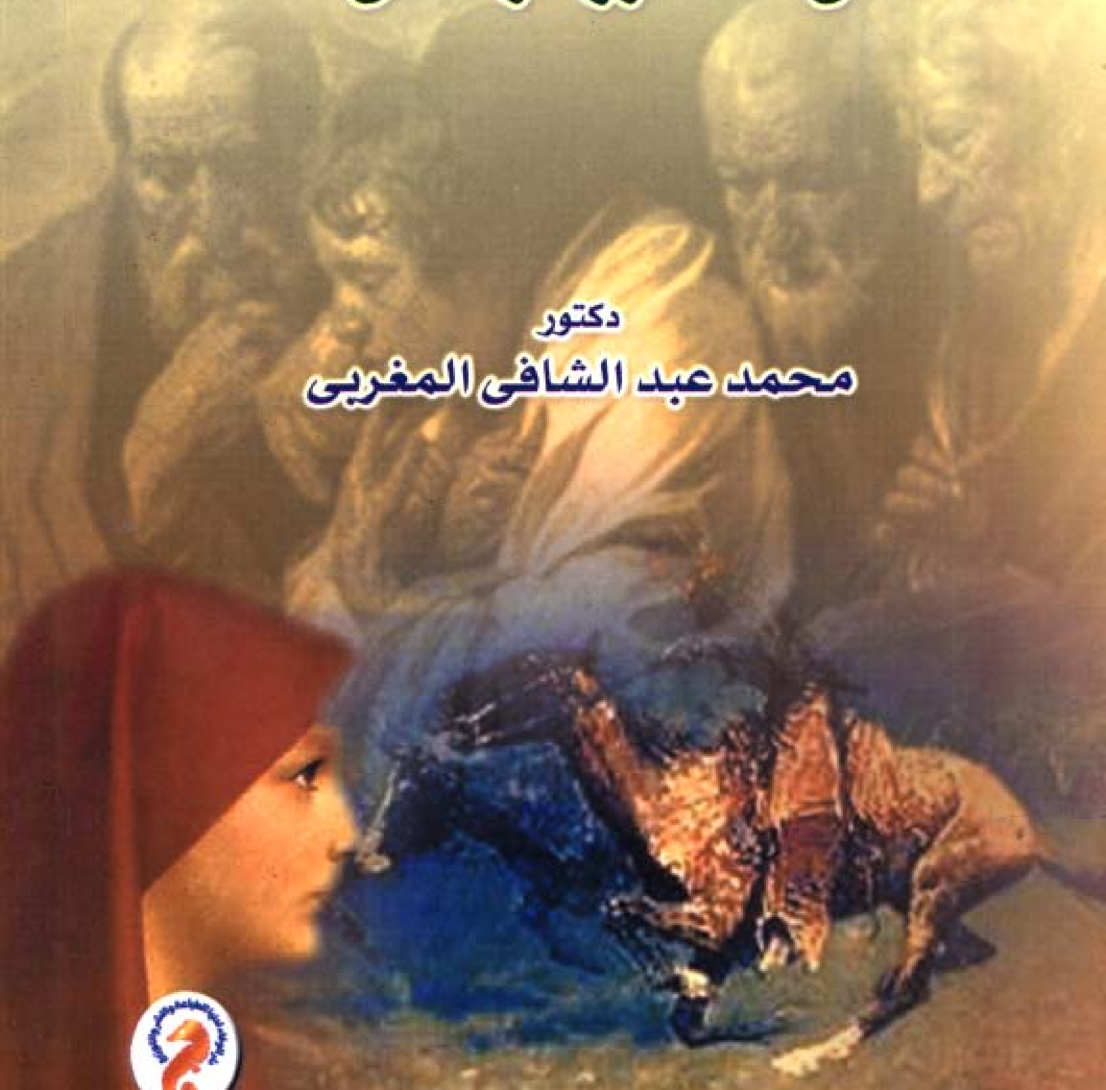
مملكة الخزر اليهودية

و علاقتها بالبيزنطيين و المسلمين

فى العصور الوسطى



دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

١١٦

مملكة الخـزر اليهودية

وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين فى العصور الوسطى

مملكة الخزر اليهودية
وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في العصـــور الوســطى

د. محمد عبد الشافى المغربى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

طباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة - بلوك رقم٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيــداع: ٢٠٠٢/١٦٣٢

الترقيم الدولى:9-224-327-977

مملكة الخزر اليهودية

وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين

في العصور الوسطى

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

AAY
08/04/2006

إهـــداء

✍ إلى الذين يؤمنون بالقيم الإنسانية.

✍ إلى الذين يرفضون الموافقة علـى تشريح أجسادنا ونحـن علـى قيـد الحياة.

✍ إلى روح والدى .... يرحمه الله

وإلـى والدتـى ....العطاء الدائم

إلى كل هؤلاء أهدى هذا الكتاب

محمـــــد

المقدمة

- أهمية الموضوع.
- دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع البحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

على التخوم الشرقية الأوربية فى العصور الوسطى كان هناك قوم يستلفتون النظر بقوتهم، وشدة بأسهم ومراسهم، وهم اليهود الخزر الذين استطاعوا فى العصور الوسطى تكوين دولة قوية فيما بين القوقاز والفولجا عرفت بمملكة الخزر. والخزر من الشعوب التركية التى لعبت دورا هاما فى العصور الوسطى مع البيزنطيين والمسلمين والعديد من الشعوب المعاصرة فى ذلك الوقت.

والخزر من الشعوب التى لا ترجع إلى أصل سامى، نزحوا من أواسط آسيا وسكنوا الإقليم الواقع بين المجرى الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز، وتتسع ممتلكاتهم حول الأراضى الواقعة حول بحر آزوف AZOV، وزاد اتساعها أكثر من ذلك حتى قاربت كييف وأواسط الدنيبر Dnieper غربا فى القرن التاسع الميلادى، وكانت كثير من القبائل الضاربة جهة الشرق حتى أكسوس Oxus تحت حكم الخزر[1]. وقد أمتد نفوذ مملكة الخزر إلى المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين، فيما سمى بعد بـ "خزريا أو إقليم الخزر".

ولقد عرف الخزر بأسماء وأشكال مختلفة وجدناها فى بطون المصادر والمراجع المختلفة، حيث كانوا يعرفون عند كتاب العصور الوسطى القدامى بهذه الأشكال: خوزارس Chozars وخازيرس Khazirs وأكاتزيرس Akatzirs وأكاتيرس Akatirs، أما فى التاريخ والحوليات الروسية فقد كانوا يعرفوا باسم Ugry Byelyge وKhwalisses[2]. وفى المصادر الجورجيانية عرف الخزر باسم كادزاريا Kadzaria وهو الاسم الجورجيانى لمنجريليا Mingrelia[3] وهناك

---

(1) Dunlop (D. M.): The History of the Jewish Khazars (Princeton,1954). P.ix.

(2) Rosenthal (H): Art, Chazar, in Jewish Ency. Vol, iv, p.1.

(3) Art. Khazar, in Harmsworth Ency. (London, 1906) Vol, vi, p.370.

أشكال أخرى لاسم الخزر: ففى اليونانية ختزروى οξαποι وفى اللغة العربية خرر وفى العبرية(ן כ ז) كوزارى وكوزاريوم Kuzari - Ku3arium، وفى الصينية كوسا Kosa، ويميل بعض المحدثين إلى أن اسم الخزر مشتق من الكلمة التركية Qazmak وهى بمعنى التجول - البدو الرحل (to wonder - nomadize)، أو من كلمة Quz (جهة من جبل ناحية الشمال)[٤] على أن التاريخ الروسى يسمى الخزر الأوغور البيض White Ugrian، على النقيض من التاريخ الهنغارى الذى يطلق عليهم الأوغور السود[٥] والمؤرخ الأرمينى موسى خورنى Moise de Khoren الذى تحدث عن تاريخ الخزر المبكر) ذكر الخزر باسم Khazirs[٦] وإذا بحثنا عن المعنى اللغوى للفظة خزر فى اللغة العربية، نجد أنها تعنى ضيق العين أو ميل العين كأن نقول "خزر الشيخ عينه" أى ضيق جفنيه حتى كأنهما خيطتا، والإنسان حينما يفتح عينه ويغمضها وينظر بمؤخرة عينيه فهو فى هذا الحال أخزر، وخزرت العين خزراً صغرت وضاقت، ويقال أيضا "خزر الشاب عينه" فعل ذلك دهاء[٧] ويبدو أن الشعب أطلق عليه خزر لأنهم أصحاب انكسار فى العيون كسمة مميزة لهم، مثلهم فى ذلك الصينيون واليابانيون وبعض الشعوب الآسيوية الأخرى.

ولقد نجح الخزر فى تكوين أعظم إمبراطورية تجارية شملت جزءا كبيرا من جنوبى روسيا الأوربية، فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى[٨] وكانت بلاد الخزر التى يسكنها شعب من أرومة تركية تشغل مركزا استراتيجيا يعتبر المفتاح والمدخل الحيوى بين البحر الأسود وبحر قزوين، حيث كانت الدول الشرقية

---

(4) Art. Khazars, in Ency. Judaica (Jresalem, 1974) Vol. X,p. 944.

(5) Art. Khazar, in the standard Jewish Ency. (Tel Aviv, 1958), p. 1124.

(6) Klaporothe (M): Memoire sur les Khazar, in journal Asiatique (1823) T.3, p. 153.

(٧) المعجم الوسيط: (الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٧٢)، جـ١، ص ٢٣٩.

(8) Sinor (D): Art Khazars, in the New Ency. Britanica (London, 1973), Vol. V, p. 788.

Bachrach (B.S) : Art. Khazar in Lexicon universal Ency. (NEW YOURK, 1983), Vol. 12, p.66.

العظمى الممثلة فى بيزنطة وفارس فى تلك الأيام تواجه بعضها بعضا. وذلك أن بلاد الخزر كانت حاجزا يدرأ عن البيزنطيين شر غزوات القبائل البربرية النهمة فى الفيافى الشمالية وهى قبائل البلغار Bulgars والمجر Magyars والبشناق Pechengs وغيرهم، وكذلك شر غزوات الفيكنج Vikings قراصنة الشمال والروس، وأهم من ذلك ما عرف من وجهة نظر الدبلوماسية البيزنطية والتاريخ الأوربى من أن الخزر هم الذين أوقفوا الهجوم العربى الإسلامى العاصف فى مراحله الأولى الجانحة على أوربا الشرقية[9] بعد أن أصبحت حدود الخزر تلاصق أملاك المسلمين فى تلك الجهات من جهة وتقترب من مناطق عملياتهم الحربية الجديدة من جهة أخرى وهذا الموقع الاستراتيجى الفريد مكن الخزر من أن يكون لهم دورا هاما فى الصراع السياسى والدينى فى ذلك العصر.

ومما يجدر ذكره أن العلاقات بين الخزر والبيزنطيين موغلة فى القدم وإن كانت تلك الصلات قد أخذت فى الازدياد والعمق فى القرنين السابع والثامن للميلاد. فقد اشترك الخزر فى الحروب التى خاضتها الدولة البيزنطية ضد فارس فى القرن السابع، حينما استعان بهم الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) فى حملاته العسكرية ضد الفرس، إذ أجرى مفاوضات معهم فى إقليم لازيقا بالقوقاز، انتهت بتحالفهم معه، وعندئذ أضحى التفاهم بين البيزنطيين والخزر من أهم معالم سياسة الدبلوماسية التى سارت عليها الدولة البيزنطية فى الشرق.

بيد أننا نلاحظ أنه عقب وفاة هرقل سنة ٦٤١م صمتت المصادر عن الإشارة إلى أى جديد فى مصير العلاقات البيزنطية الخزرية حتى أواخر القرن السابع الميلادى، أى إلى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى ففى خلال فترة حكمه الأولى (٦٨٥-٦٩٥م) التى انتهت بإعفائه من المنصب الإمبراطورى، وعودته مرة أخرى

---

(9) **Koestler (A): the thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage, (London, 1976), pp. 13-14.**

الى العرش البيرنطى سنة ٧٠٥م تجددت الصلات مرة أخرى. ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه عندما خلع جستنيان الثانى عن العرش فى سنة ٦٩٥م لجأ إلى خاقان الخزر الذى رحب به وتعاطف معه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل بالغ خاقان الخزر فى إكرامه بتزويجه من أخته. وبعد أن رجع جستنيان الثانى إلى عرشه حدث صراع كبير بين البيزنطيين والخزر حول السيادة على خرسون وشبه جزيرة القرم.

أما عن العلاقة بين الخزر والمسلمين فقد بلغت من أهميتها حدا لا يمكن إغفاله، فالخزر كانوا عقبة كأداء فى طريق الحملات الإسلامية التى استهدفت التوسع ونشر الدين الإسلامى الحنيف فى منطقة القوقاز، لقد نجح الخزر فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف حول شواطىء البحر الأسود وقزوين حيث كانت تقع بين الدولة الإسلامية شرقا والدولة البيزنطية غربا. ولقد دارت حروب طويلة بين الدولة الإسلامية والخزر منذ ظهور الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والخلافة العباسية، تمخض عنها إيقاف المسلمين عند جبال القوقاز، فلم يفلح المسلمون فى التوغل فى شرق أوربا، فى الوقت الذى أوقفت هذه الحروب توسع الخزر فى المناطق الإسلامية.

وليس من المبالغة القول أن الخزر حموا سهول أوربا الشرقية ضد المسلمين، فالحروب التى نشبت بين المسلمين والخزر فى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد وهى لمدة قرن من الزمان تقريبا عرفت عند المؤرخين المحدثين بالحرب العربية الخزرية الأولى (٦٤٢-٦٥٢م/٢٢-٣٢هـ) والحرب العربية الخزرية الثانية (٧٢٢-٧٣٧م/١٠٣-١١٩هـ).

وفى الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين، وقف الخزر إلى جانب البيزنطيين. ونتيجة لذلك تزوج الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس سنة ٧٣٢م

من أميرة خزرية أنجبت له ولدا قدر له أن يعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية باسم ليو الرابع أو ليو الخزرى (٧٧٥-٧٨٠م).

ومما يدعو إلى الدهشة أن الخزر اعتنقوا اليهودية فى القرن الثامن الميلادى عام ٧٤٠م، فقد اتخذوا دينا لا سند له من أية سلطة سياسية، بل كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا، ولا يمكن أن يعد هذا أمرا عارضا، وإنما يدل على السياسة المستقلة التى انتهجتها مملكة الخزر.

ومما هو جدير بالذكر أن علاقة الخزر لم تكن قاصرة على المسلمين والبيزنطيين، بل تعدت ذلك بكثير. فقد كان للخزر علاقات مع الأرمينيين والهون والفرس والأتراك الغربيين والبلغار واللان والبشناق والعديد من الشعوب الأخرى. كما كانت لهم علاقة بأسبانيا (الأندلس) فى القرن التاسع الميلادى تمثلت فى الرسائل التى تبودلت بالعبرية بين حسداى بن شفروط كبير الوزراء اليهودى للخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١١-٩٦١م/٣٠٠-٣٥٠هـ) والملك يوسف ملك الخزر.

وتناول موضوع الخزر ليس من الموضوعات التاريخية التقليدية إذ يذكر المؤرخ المحدث دنلوب[10] Dunlop فى مقدمة كتابه القيم الذى وضعه عن الخزر قائلا: "إن الخزر لازالوا غير معروفين لدى العديد من قراء وكتاب التاريخ، وذلك ليس بسبب قلة الاهتمام بهم أو بما تقدمه أحداثهم فى التاريخ، وليس أيضا بسبب صعوبة الحصول على المادة العلمية الخاصة بدولتهم، ولكن بسبب صعوبة التعامل مع المصادر الموجودة والمتوافرة عن دولتهم حيث تحوى قدرا كبيرا من المادة التاريخية المكتوبة بلغات مختلفة كاليونانية والعبرية والعربية والسريانية والأرمينية والجورجيانية والروسية والفارسية والتركية والصينية، ولا يمكن لأحد أن يلم بكل

---

(10) The Hist. Of the Jewish Khazars., p.x,

هذه اللغات، هذا فضلا عما حوته تلك المصادر من التناقض والتعارض وما اكتنف الحقائق والقضايا من غموض".

وعلى أية حال، فإن البحث يتناول بالدراسة ظهور الخزر وتاريخهم المبكر وعلاقتهم بالمسلمين والبيزنطيين فى القرنين السابع والثامن للميلاد، وأيضا علاقتهم بالهون والفرس والبلغار وغيرهم، كما يتناول مظاهرهم الحضارية خاصة موضوع اعتناقهم اليهودية وهو الموضوع الذى تأثر به حاضرنا تأثرا بالغا.

وكان مما شجعنى على اختيار هذا الموضوع والمضى فيه عوامل وأعتبارات عديدة:

أولا: أن المشتغلين بالعصور الوسطى الأوربية والإسلامية قدموا لنا مؤلفات ضافية فى إبداع وأصالة فى كثير من النواحى التاريخية أثرت المكتبة العربية، إلا أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام كاف لمن تصدى له، وقد تأكد للباحث أن هذا الموضوع لم يطرق فى دراسة مستقلة، كما أن الدراسات التى خرجت فى العالم عن الخزر قليلة، تناولت جوانب معينة فقط من تاريخ الخزر وهى بلغات مختلفة.

ثانيا : حاجة العرب والأمة الإسلامية إلى معرفة وافية بالخزر (الأتراك) الذين اعتنقوا اليهودية فى القرن الثامن الميلادى، وينحدر منهم فى الوقت الحاضر معظم الشعب اليهودى لقد كانت فلسطين مسكونة بقبائل عربية ترجع أصلها إلى الجنس السامى الذى ينتسب إلى سام بن نوح عليه السلام، قبل العبرانيين (الإسرائيليين) بآلاف السنين، ولم يكن اليهود أول من سكن فلسطين أو المناطق المجاورة لها بل سبقتهم إليها بآلاف السنين كثير من القبائل التى ترجع إلى الجنس السامى.

لقد نجح اليهود فى تكوين مملكة لهم فى فلسطين، لكنها لم تدم لما نالها من تدمير. فهاجروا إلى جميع أنحاء العالم، وأصبحوا غرباء عن أرضها وسكانها وأصبحت فلسطين فى نظر التاريخ والقانون بلادا غير يهودية وليس لهم فيها أى حق

أو مطالبة بها، واصبح يهود اليوم هم سلالة الاختلاط الجنسي بالأجناس الأخرى ونشأت أجيال وطوائف لا تمت بصلة إلى اليهود إلا بصلة العقيدة.

فمن علماء الأجناس من يرى أن تسعة أعشار اليهود في العالم لا يمتون بصلة إلى اليهود الأولين بأي شبه[11] وإذا ما اتفق على أن بعض يهود اليوم من الشرقيين (خاصة اليهود العرب) لا يزالون يعتبرون من الساميين، فإنه لا يمكن الموافقة على اعتبار يهود أوربا وأمريكا ومناطق أخرى من العالم من الساميين.

لقد اثبت العلماء المختصون بدراسة اليهود ومنهم "آرثر كويستلر" الذى أثبت بعد أن جمع الحقائق والأدلة فى كتابه "القبيلة الثالثة عشر" أن معظم يهود الحاضر، إنما يعتبرون من سلالة الخزر الذين ينحدرون من أصل يافث وليس من أصل سام، والذين اعتنقوا اليهودية. لقد هاجر يهود الخزر بعد التدمير الذى لحق بتجمعاتهم إلى مناطق الانتعاش الاقتصادى فى أوربا الوسطى والشمالية، وتمركزوا فى الطريق التجارى بين اتحاد المدن التجارية وبين روسيا وبولندا وأوكرانيا ورومانيا ولتوانيا وغاليسيا وألمانيا وفنلنده والعديد من بلدان أوربا ليكونوا أصول يهود أوربا (الأشكنازيم) وكان عدد هؤلاء اليهود الخزر يفوق بكثير غيرهم من اليهود الذين جاءوا إلى أوربا فى فترات أخرى من التاريخ، وعلى هذا الأساس فإن كويستلر يعتبر أن حوالى نصف يهود العالم بما فى ذلك، يهود إسرائيل لا علاقة لهم على الإطلاق بالجنس السامى وبقبائل موسى وسليمان العبرية.

ومن خلال هذا الموضوع، فإن الدراسة تطرح تساؤلا: هل قيام دولة يهودية قديما فى فلسطين يخول ليهود الحاضر (المخلطون لحما ودما والخزريون) سندا فى العودة إلى فلسطين، لو صح أن لكل شعب من شعوب الأرض فى الوقت الحاضر حقا فى الأراضى التى قطنها أو استعمرها أجداده من مئات السنين، لاحتاج

---

(11) Ripley (W.Z): The Races of Europe (London, 1945), p. 293.

الأمر إلى تغيير فى خريطة العالم المعاصرة، ونقل معظم شعوب الارض من بلادها. ولكان للعرب الحق فى المطالبة بأسبانيا التى أقام فيها أجدادهم ثمانية قرون، بل لو سرنا بهذا المنطق المعوج لكان العرب أحق فعلا بأسبانيا من اليهود بفلسطين، فقد بقوا فترة أطول من اليهود وتركوا آثارا أكثر مما تركه اليهود.

إن اعتناق الخزر لليهودية فى العصور الوسطى قد هدم عددا من المقولات التى صارت بحكم تكرار إلحاحها فى العصور الحديثة من قبيل المسلمات فى قضية العرب مع اليهود، وإن شعب الخزر دليل قاطع يدحض ما ردده الصهاينة من أن اليهود فى مختلف بقاع العالم ينتمون إلى أصل واحد هو فلسطين. ونجد اليهود (الخزر) فى وقتنا المعاصر، يمثلون خليطا من الشعوب البعيدة عن نسب إسرائيل، يهاجرون من الاتحاد السوفييتى إلى فلسطين المحتلة، يأتون إليها من كل حدب وصوب ومن كل فج عميق، ليستقروا فى دولة فلسطين المحتلة. هذا الكيان الخزرى اللقيط الذى ولد فى العالم الإسلامى، وقام بدور الدولة الحاجزة بين المسلمين والبيزنطيين فى العصور الوسطى، نراه بصورة حية فى التاريخ المعاصر فى الوجود الصهيونى.

إن فلسطين لم تكن جزيرة مهجورة نجح اليهود فى اكتشافها ورفعوا علمهم عليها، بل كانت وطنا له أصحابه، والدراسة التى نحن بصددها وجدت أن أكبر طائفة فى التاريخ تحولت إلى اليهودية هم الخزر الذين نجحوا فى العصور الوسطى فى صد الهجوم الإسلامى على شرق أوربا. وفى العصور الحديثة نجحوا أيضا هم وبقايا يهود العالم فى تكوين دولة إسرائيل.

أما عن سبب اختيار فترة القرنين السابع والثامن للميلاد التاريخية لمملكة الخزر، على الرغم من أنها عاشت ما يقرب من خمسة قرون منتعشة، إنما يرجع إلى أنها قبل ذلك كانت عبارة عن قبائل وثنية صناعتها الغزو والنهب، أما فى القرنين

السابع والثامن فقد ظهرت بلاد الخزر في شكل مملكة وإمبراطورية قوية الجانب، مثلت قوة ثالثة وسط بين البيزنطيين والمسلمين، وزادت علاقتها بكلا الطرفين بصورة فعالة. ويتميز القرنان السابع والثامن للميلاد من حياة الخزر ودورهم التاريخي بالمادة العلمية الغزيرة، أما قبل ذلك أو بعد ذلك فالوثائق التي تتحدث عنهم تختلف تماما.

أما عن الصعوبات التي قابلت الباحث، فهي مثل كل الصعوبات التي تواجه المشتغلين بالبحث العلمي، والواقع أنني وجدت عناء في جمع المادة العلمية التي وردت في المصادر المعاصرة، كما أن كثير من المؤرخين لم يتفقوا على شكل معين لاسم الخزر. هذا في الوقت الذي وجدت عناء في التعامل مع المادة العلمية، إذ قابلت نصوصا تبدو ومتسقة، لكنها تغص بالتعارض والتناقض، فضلا عن كونها بلغات مختلفة. كما أن بعض هذه المادة لم تكن متوفرة في مصر أو في العالم العربي.

وتقع الرسالة في أربعة فصول. تبدأ بمقدمة ودراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع وتنتهي بخاتمة، أوضحت فيها ما وصلت إليه، ثم قائمة بالمصادر والمراجع. وجاء الفصل الأول بعنوان "قيام مملكة الخزر" ويتناول تاريخ الفترة المبكرة لشعب الخزر وعرض للآراء المختلفة بشأن ظهورهم وصلاتهم بالأرغينيين والهون وبيزنطة وعلاقاتهم المختلفة مع الفرس والأتراك الغربيين والبلغار والالان والبرطاس والبشناق وغيرهم - كما تناول هذا الفصل الشعوب والقبائل الخاضعة للخزر.

أما الفصل الثاني وعنوانه "مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين في القرنين السابع والثامن للميلاد"، فقد اشتمل على اشتراك الخزر في حملة الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) على الفرس ونتائج ذلك، كما أشرت إلى الفترة الشاغرة التي طرأت في العلاقات بين الخزر وبيزنطة ثم تعرضت لموقف الخزر من مسألة طرد جستنيان

الثانى سنة ٦٩٥م من بيزنطة حيث لجأ إلى الخزر ورحبوا به. ثم تناول هذا الفصل الصراع الذى دار فى خرسون وشبه جزيرة القرم بين الخزر والبيزنطيين وألقيت الضوء على التحالف الذى جرى بين البيزنطيين والخزر على عهد الإمبراطور ليو الأيسورى (٧١٧-٧٤١م) وقد ختمت هذا الفصل بعرض ما بقى من علاقة الطرفين خلال الفترة التى تناولها البحث.

أما الفصل الثالث وعنوانه "مملكة الخزر وعلاقتها بالمسلمين فى القرنين السابع والثامن للميلاد" فقد استعرضت فيه الصراع الطويل الذى دار بين المسلمين والخزر فى منطقة القوقاز ومحاولات العرب فتح بلاد الخزر لنشر الدين الإسلامى وذلك فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٤٢م ((٢٢هـ) و٦٥٢م (٣٢هـ) والتى أصطلح عليها الحرب العربية الخزرية الأولى والتى انتهت بهزيمة المسلمين، ثم تعرضت للحروب التى دارت بين الطرفين فى عهد الدولة الأموية والتى كانت فيما بين سنتى ٧٢٢م (١٠٣هـ) و٧٣٧م (١١٩هـ) واصطلح على تلك الفترة الحرب العربية الخزرية الثانية، كما ألقيت الضوء على العلاقات الدبلوماسية بين الخزر والمسلمين فى عهد الدولة العباسية.

فى الفصل الرابع والأخير وهو بعنوان ""المظاهر الحضارية بمملكة الخزر" ويبحث فى أوضاع الخزر الحضارية المتمثلة فى التنظيم السياسى الخاص بمملكتهم والجيش والقانون والقضاء الخزرى واللغة والمجتمع الخزرى وما عج به من جنسيات كثيرة من شعوب مختلفة والنشاط الاقتصادى لمملكتهم من تجارة وزراعة. ثم أفردت قسما كبيرا لاعتناق الخزر لليهودية والمراسلات التى دارت بين الأندلس ومملكة الخزر فى العصور الوسطى.

وأخيرا أحب أن أسجل هنا أنه كان يجب نشر هذا الكتاب فى عام ١٩٩١م أى منذ عشر سنوات تقريبا، غير أن ظروف خارجة عن إرادتى حالت دون ذلك،

وأحمد الله أن جاء الوقت لنشر هذا الكتاب الذى كان بحثى لرسالة الماجستير. ومن هنا أسدى شكرى العظيم لأستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور محمود الحويرى لما أمدنى به من توجيه ونصح وإرشاد، كما أقدم جزيل شكرى للأب جورج قنواتى (ت) بدير الآباء الدومينكان، والأب منصور مستريح بدير الآباء الفرنسسكان اللذين ساعدانى فى الترجمة عن اللاتينية، كما لا يفوتنى أن أشكر الدكتور محمود صميده (ت) أستاذ اللغة العبرية بآداب سوهاج وتلميذه النجيب الأستاذ فرج قدرى الفخرانى المدرس المساعد بآداب قنا للترجمة عن العبرية، والحقيقة أن الموضوع لم يكن ليخرج لولا تعاون الكثيرين الذين أبدوا معى تعاونًا صادقًا، لذا فإنى أتقدم بالشكر لكل من قدم لى يد العون طيلة مراحل إعداد هذه الدراسة سواء فى مصر أو خارجها، وفى النهاية أتمنى من الله أن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة فإن كان بها نقص أو تقصير أو أصابنى فيها بعض العثار فهو منى وحدى فهذه طاقتى المحدودة، وإن كان غير ذلك فمن الله وحده وتوفيقه.

وعلى الله قصد السبيل

د. محمد عبد الشافى المغربى

كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادى

دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع البحث:

نظرا لطبيعة هذا الموضوع، فقد تطلب من الباحث أن يعتمد في دراسته على مصادر مختلفة بيزنطية (يونانية ولاتينية) وأرمينية وسريانية وفارسية وتركية، وعبرية وعربية، ومنها ما هو مدون بلغته الأصلية، ومنها ما هو مترجم إلى العربية والإنجليزية والفرنسية. كما تطلب البحث الاعتماد على عدد وفير من المراجع الأجنبية الحديثة المدونة بالإنجليزية والفرنسية، والرجوع أيضا إلى الدوريات والمجموعات ودوائر المعارف المختلفة، وكل ذلك أملا في إخراج الموضوع على أحسن صورة واستخلاص أفضل النتائج على ضوء المعلومات المتاحة. وسأقتصر التركيز في تحليل المصادر على أهمها، وإن كان معظمها خدم الموضوع وكذلك بالنسبة للمراجع التي إفادتنا إفادة كبيرة والتي برزت من خلال معالجتي لهذا الموضوع.

تأتي في طليعة مصادرنا مجموعة مؤرخي التاريخ البيزنطي "الكوربس"
Coupus Scriptorum Historiae Byzantinae

وتحتوي هذه المجموعة على كتابات المؤرخين البيزنطيين أمثال ثيوفاينس ونيقغورس وقسطنطين بورفيروجينتوس وكيدر رينوس وزانوراس وآناكومنين وجريجوراس وغيرهم. ولقد اعتمدت الدراسة على هذه المجموعة، طبعه بون (١٨٢٨-١٨٩٧م) وهي عبارة عن أجزاء عديدة مختلفة لهؤلاء المؤرخين، تحتوي على نصين في الصفحة الواحدة، نص باليونانية وهو الأصل في النصف الأعلى من صفحاتها، ومع نص باللاتينية في النصف الأسفل من صفحاتها وهو الترجمة لنفس النص اليوناني. وهذه المجموعة من القطع المتوسط.

ومن المصادر الهامة التي أفادت الدراسة مؤلف المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس Theophanis ومؤلفه بعنوان "تاريخ الأزمنة" Chronographia وكان ثيوفانيس قد ولد في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) وخط كتابه بين عامي

(٨١٠-٨١٤م)، وتوفى سنة ٨١٧م، وغطى تاريخه الفترة الواقعة بين عامى ٢٢٤و٨١٣م، وكتب ثيوفانيس مدونته على شكل حوليات أو سجلات تاريخية سنوية، وتميز بغزارة ما أورده بالنسبة لدراستنا. وأفادنا ثيوفانيس فيما يختص بعلاقة الخزر ببيزنطة، حيث تحدث عن حملات هرقل ضد الفرس وكيف استعان هرقل بالخزر فى إحدى حملاته، كما ألقى المؤلف الأضواء القوية على ما كان بين بيزنطة والخزر من صراع فى شبه جزيرة القرم. وكنا نأمل أن يمدنا ثيوفانيس بشىء من تاريخ الخزر المبكر. وقد اعتمدنا عليه من خلال مجموعة الكوربس Corpus.

كما استفادت الدراسة من التاريخ الذى وضعه المؤرخ والإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس Constantin VII Prophyrogentus (٩١٤-٩١٩م، ٩٤٥-٩٥٩م) وعنوان مؤلفه هو "الإدارة الإمبراطورية" De Administrando Imperio ويعتبر هذا المصدر من أكبر وأعظم المصادر التى يجد فيها الباحث معلومات شتى عن الخزر وكثير من الشعوب السلافية وغير السلافية ولقد استفادت منه الدراسة فيما يختص بعلاقة الخزر ببيزنطة والبلغار واللان والبشناق وغيرهم. والكتاب على غزارة ما أورده إلا أنه لم يخل من عدم الدقة فى عرضه للحوادث. أما بشأن التسمية الخاصة بمؤلفه، فلم يضعها قسطنطين نفسه، وإنما وضعها جون موريس John Meurrius الذى قام بنشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٦١١م، وقد التزم بهذه التسمية كل من تناول هذا الكتاب بعد ذلك. ولقد اعتمدت عليه الدراسة بشكل كبير من خلال نشره فى مجموعة "الكوربس" Corpus، كما استفادت الدراسة من إحدى المؤلفات الأخرى لنفس المؤرخ السابق وجاءت بعنوان "مراسم البلاط البيزنطى" De Cerimoniis Aulae Byzatinae.

كما استفادت الدراسة من الإشارات القيمة التى وجدناها فى كتابات المؤرخين البيزنطيين زانوراس Zanoras وعنوان مؤلفه "موجز التواريخ" Epitomae Historiarum وكيدرينوس Cedrenus وعنوان مؤلفه "خلاصة التاريخ Historiarum Compenduim على الرغم من تأخرهما عن فترة دراستنا حيث عاشا فى القرن الحادى عشر الميلادى. ولقد نقل كيدرينوس عن ثيوفاينس واعتمد عليه فيما يختص بالحديث عن حملات الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠-٦٤١م) ضد الفرس وعلاقته بهم.

ومن المصادر البيزنطية الهامة التى وقفت عليها الدراسة التاريخ الذى وضعه بطريرك القسطنطينية نيقفورس (٨٠٦-٨١٥م) Nicephorus، وهو بعنوان "مختصر تاريخى لما حدث بعد الإمبراطور موريس".

"Breviarium Historicum De Rebus Gestis Post Imperium Mauricii"

ويغطى هذا الكتاب الفترة الواقعة بين سنتى ٦٠٢ و ٧٦٩م أى من عهد الإمبراطور البيزنطى فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) إلى نهاية عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) ولقد استفادت الدراسة إلى حد كبير من هذا المصدر الخصب إذ تعرض للحروب البيزنطية الفارسية، وقدم لنا وصفا رائعا عن الاتفاق الذى جرى بين الخزر وهرقل. كما تعرض المؤرخ بصورة تفصيلية للصراعات التى جرت بين الخزر وبيزنطة على السيادة على كل من خرسون وشبه جزيرة القرم. كما ألقى الضوء على مسألة طرد الإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩٥م من عرشه وعودته إليه مرة أخرى سنة ٧٠٥م. ولقد اعتمدت عليه الدراسة فى الفصل المتعلق بعلاقة الخزر ببيزنطة.

والحقيقة أن هذا المؤرخ أمدنا بمعلومات طيبة وتميز بغزارة ما أورده موضوعية ما قدمه. وهذا الكتاب منشور فى مجموعة الكوربس Corpus، إلا أننا اعتمدنا عليه من خلال مجموعة أخرى لا غنى عنها لباحث العصور الوسطى وهى

مجموعة "أعمال الآباء اليونانيين" Patrologyia Graeca وهى مجموعة ضخمة من المجلدات ذات القطع الكبير يزيد عدد مجلداتها عن ١٥٠ مجلدا. وقد نشرها مين Mign فى باريس عامى ١٨٥٧ و ١٨٦٦م وتحتوى على كتابات البطاركة القديسين البيزنطيين. والحقيقة أن التعامل مع مجموعة الكوربس أيسر من التعامل مع مجموعة الباترولوجيا وذلك لتميز مجلدات المجموعة الأولى بفهرسة أكثر دقة من المجموعة الثانية. الأمر الذى أفاد الباحث فى جمع مادة موضوع رسالته.

كما استفادت الدراسة من المصادر السريانية، وخاصة المؤرخ ميخائيل السريانى. صاحب الكتاب الذى عرف باسم "تاريخ ميخائيل السريانى" Chronique De Michel le Syrien وقد ولد هذا المؤرخ فى ملطية عام ١١٢٦م وتوفى فى عام ١١٩٩م، وقد ألقى كتابه الضوء على ما يتعلق بالعلاقات بين بيزنطة ومملكة الخزر. ومن المؤرخين السريان أيضا ابن العبرى واسمه بالعربية أبو فرج غريغوريس بن العبرى الملطى الذى ولد أيضا فى ملطية فى عام ١٢٢٦م، وتوفى فى سنة ١٢٨٦م. وكان ابن العبرى على علم باليونانية والسريانية والعربية، ويعتبر بحق أكبر كاتب موسوعى فى الأدب السريانى وقد ألف العديد من الكتب، استفادت الدراسة منها بكتابين أحدهما بعنوان "تاريخ الأزمنة" The Chronography of Georgory Abul Faraj. وهو أصلا باللغة السريانية، وقد قام بدج Budge بترجمته إلى الإنجليزية. ويتناول هذا الكتاب التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عام ١٢٨٥-١٢٨٦م، وهو نفس تاريخ وفاته. ولقد استفادت منه الدراسة فى مواضع مختلفة من الرسالة على الرغم من قلة المعلومات المستقاة منه. ولابن العبرى كتاب آخر بعنوان "مختصر تاريخ الدول"، ويعتبر هذا الكتاب من أشهر مؤلفاته، وقد ألفه بالسريانية فى البداية، ثم قام هو نفسه بترجمته إلى العربية بناء على رغبة وإلحاح

بعض وجهاء العرب. وقد تناول هذا الكتاب علاقة الخزر بالمسلمين... وهو موضوع الفصل الثالث من دراستنا.

وخرجت الدراسة بفائدة كبيرة من المصادر الأرمينية، وخاصة المؤرخ الأرميني موسى خورنيه Moses Khorenots، الذى أمدنا بإشارات عن تاريخ الخزر المبكر فى كتابه "تاريخ أرمينيا"، واستفادت الدراسة أيضا مما عرض لهذا المؤرخ الأرميني من تاريخ على صفحات المجلة الآسيوية Journal Asistiqua، وذلك فيما يختص بعلاقة الخزر ببيزنطة على عهد الإمبراطور هرقل، حيث قام المؤرخ الروسى الأرمينى باتكانيان Patkanian بترجمة ما نشر من الأرمينية إلى الفرنسية.

ومن المصادر ذات الأهمية الخاصة بالنسبة للبحث، والتى أمدته بمعلومات عاية فى الأهمية المصادر الفارسية، ويأتى فى مقدمتها المخطوطة الفارسية مجهولة المؤلف "حدود العالم" Hudud Al Alam وهذه المخطوطة اكتشافها المستشرق الروسى تومانسكى Tomanski فى عام ١٨٩٢م، ونسبت إليه فى الدوائر العلمية، فأصبحت تعرف "بمخطوطة تومانسكى المجهولة المؤلف L' Anonyme de Tumanski وقد قام بنشرها بارتولد فى عام ١٩٣٠م، ثم تلى ذلك ظهور ترجمة إنجليزية تصحبها تعليقات وافية ليمنورسكى فى عام ١٩٣٧م وهى النسخة التى اعتمدت عليها الدراسة. وقد تم تأليف هذا الكتاب حوالى ٩٨٢م (٣٧٢هـ). والمؤلف لا يميل إلى ذكر مصادره فى عرضه للحوادث ووصفه للشعوب، ويبدو أنه كان عالما نقليا أكثر منه رحالة متجول، وذلك لأننا نلمس انعكاس آثار المؤلفين السابقين فى مواضع مختلفة من كتابه، وقد أفادنا فى مواضع مختلفة من الدراسة حيث تعرض للخزر واللان والبلغار والبشناق والبرطاس وغيرهم.

ويعد كتاب "زين الأخبار" "للكرديزى" الذى وضعه بالفارسية من المصادر الهامة التى أمدت البحث بمعلومات وفيرة. وقد تم تأليف هذا الكتاب فى عهد السلطان الغزنوني عبد الرشيد (١٠٤٩-١٠٥١م/ ٤٤٠-٤٤٤هـ)وهو من المصنفات التاريخية الرائعة وقد استفادت الدراسة من الفصل الذى وضعه المؤلف عن الترك حيث تحدث عن الخزر. وفى هذا الفصل يذكر من بين مصادره المؤرخين ابن خرداذبه والجيهاني، ويبدو أنه اعتمد اعتمادا كبيرا على ابن رسته فى مواضع كثيرة خاصة فى حديثه عن أوربا الشرقية على الرغم من أن المؤلف لم يشر إليه ولو مرة واحدة.

وعن الكتب الفارسية أيضا التى أفادت الدراسة كتاب "تاريخ كذيذة" لحمد الله مستوفى قزوينى.وهو كتاب وضعه فى التاريخ العام، ألفه فى عام ١٣٣٠م (٧٣٠هـ) ويتميز هذا المؤلف بدقة ما أورده. وهو من مدينة قزوين وشغل وظيفة المستوفى (أى مفتش الحسابات) وكانت وفاته سنة ١٣٤٩م (٧٥٠هـ)، وقد أفادنا هذا الكتاب فى الفصل الخاص بعلاقة الخزر بالمسلمين، ويتضح من المعلومات التى عرضها أنه قد أفاد إفادة كبيرة من الذين سبقوه.

وأيضا استفادت الدراسة من الإشارات القيمة التى أوردها الكتاب الفارسى "فارسنامه" لابن البلخى الذى ألفه فى الفترة الواقعة بين عامى ١١٠٦م و١١١٦م. وأيضا كتاب "ديوان لغات الترك" للمؤلف التركى الأصل محمود الكاشغرى. وقد أمدنا بمعلومات متناثرة وقليلة. وهذا الكتاب وضعه عن آسيا الوسطى والقبائل التركية. وقد تم تدوين الكتاب ببغداد فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٠٧٢م (٤٦٤هـ) و١٠٧٤م (٤٦٦هـ) كما يذكر ذلك هو نفسه.

وعن الكتاب المسيحيين الشرقيين الذين أفادوا الدراسة نذكر منهم محبوب المنبجى وكتابه "العنوان" الذى يبدأ تاريخه من بدء الخليقة حتى ٩٤١م (٣٣٠هـ)، وقد قام المؤرخ المحدث فازيليف Vasiliev بنشره فى "مجموعة أعمال الآباء

الشرقيين Patrologia Orientalis" وقد نشر باللغة العربية يصاحبها ترجمة فرنسية في باريس ١٩١١م، وقد استفادت منه الدراسة في الفصل الخاص بعلاقة الخزر ببيزنطة خاصة على عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني (٦٨٥-٦٩٥م) (٧٠٥-٧١١م).

وننتقل الآن إلى المصادر اليهودية، ويأتي في مقدمتها المصدر اليهودي المعروف "بالرسائل الخزرية" وهي رسائل تبودلت باللغة العبرية بين حسداي بن شفروط كبير الوزراء في بلاط الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الثالث (٩١١-٩٦١م/ ٣٠٠-٣٥٠هـ) من جهة والملك يوسف ملك الخزر، وتبودلت هذه الرسائل في الفترة الواقعة بين عامي (٩٥٤م) و(٩٦١م) أي في الوقت الذي كتب المسعودي كتابه تقريبا، وقد استفادت الدراسة من هذه الرسائل بشكل كبير خاصة في الفصل الرابع، واعتمدنا عليها من خلال كتاب Jewish Travellers حيث قام المؤلف بنشرها، فضلا عن المراجع الأخرى التي تعرضت لهذه الرسائل. على أن أهم ما يلاحظ في رسالة حسداي أنها كانت طويلة تحدث فيها عن كيف سمع أول ما سمع بوجود مملكة يهودية وعن الصعوبات التي واجهته في إرسال رسالته ومضى يسأل طائفة من الأسئلة المباشرة التي تكشف عن حرصه على الاستزادة من المعلومات عن كل وجه من وجوه الحياة في مملكة الخزر، ثم أورد معلومات طويلة عن أسبانيا وعن وضع اليهود، ولا شك أن حسداي كان يرمي من وراء ذلك إغراء الملك بالإفاضة في ذكر أحوال مملكته في رده عليه. وأهم ما يلاحظ على رد الملك يوسف على رسالة حسداي أنها جاءت أقل عاطفة وشجنا مما بدا في رسالة حسداي إليه، ولا شك أن مرجع ذلك أن العلم والثقافة لم يكونا سائدين بين يهود الفولجا بالشكل الذي كان يلتمس على أنهار الأندلس في ذلك الوقت.

وعن المصادر العبرية الهامة التى أمدت الدراسة فى الجزء الخاص باعتناق الخزر لليهودية كتاب يهوذا هاليفى (يهودا اللاوى) (١٠٨٥-١١٤١م) والذى وضعه عن الخزر وسماه "كوزارى" (٦ر د٢٦) وهاليفى شاعر عبرى أسبانى كتب هذا الكتاب قبل أن يموت بسنة واحدة أثناء حجه لبيت المقدس، والكتاب عبارة عن رسالة فلسفية تحدث فيها عن المحاورات الفلسفية التى دارت بين أنصار الديانات السماوية الثلاث. والكتاب على الرغم من عنوانه فإنه لا يقول إلا القليل عن بلاد الخزر نفسها، لكن المؤلف اتخذ من عسألة اعتناقهم لليهودية سبيلا لتأليف هذا الكتاب، والباحث المدقق يجد أن هذا المؤلف يمثل العقلية المستنيرة لليهود لأنه متمكن من الديانة اليهودية وملم بالعقيدة الإسلامية والمسيحية وفلسفة الإغريق، واعتمدنا عليه فى الكتاب من خلال كتاب سه لا فان يوسف: يهوذا اللاوى "هاخوزارى". هو تسأت أورعيم، هعروت فهنحيوت ليلمود فلقرياه (١٩٧٣) والكتاب أحد كتب السلسلة التى تقدم تعريفات باللغة العبرية للكتاب والأدباء بإنتاجاتهم المختلفة.

وأيضا رجعنا إلى كتاب "التوراة" وهو من المصادر اليهودية الأولى. من خلال الكتاب المقدس الذى يضم بين دفتيه كتب التوراة والأنبياء وأخبار الملوك وتمثل العهد القديم والإنجيل الذى يمثل العهد الجديد، وقد اعتمدت عليه الدراسة لتفسير بعض المسائل التى تخص مسألة اعتناق الخزر لليهودية.

أما عن المصادر العربية فهى كثيرة ومتنوعة، والحقيقة أن هذه الدراسة تدين بالفضل لتلك المصادر، حيث غذت البحث بالمعلومات التفصيلية القيمة، ويمكننا تقسيم تلك المصادر إلى طائفتين: طائفة أفادتنا فى الفصل الخاص بعلاقتهم بالمسلمين. وأخرى أفادتنا فى الفصل الخاص بالمظاهر الحضارية، ويأتى فى مقدمة الطائفة الأولى كتاب "الفتوح" للعلامة أبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى المتوفى

سنة ٩٢٦م (٣١٤هـ) ويقع فى ثمانى مجلدات تناول فيه أخبار المسلمين وفتوحاتهم فى بلاد المشرق والبحر المتوسط وخرا سان وأرمينية وأذربيجان، وقد أغنى هذا الكتاب الدراسة بمادته العلمية الغزيرة، حيث عرض للحروب التى خاضها المسلمون مع الخزر. والحقيقة أنه لم يترك لمستزيد يريد الزيادة أن يستزيد، ولا سبيل إلى استكمال أخبار الحروب بين المسلمين والخزر إلا بالاطلاع على هذا المصدر الخصب الذى استقى منه معظم من تناولوا تاريخ فتوح المسلمين فى القوقاز، ولكن السمة الغالبة على هذا المصدر هو السرد القصصى الممل، ويبدو أن موهبة المؤلف القصصية تفوق قدرته التاريخية. ومن هنا حذفنا التفاصيل الكثيرة التى لا تدعو الحاجة إليها، كما أن المؤلف لم يدعم عرضه للأحداث بالعنصر الزمنى.

كما استفادت الدراسة من كتاب "فتوح البلدان" للبلاذرى المتوفى سنة ٨٩٢م (٢٧٥هـ) وكتاب " تاريخ الرسل والملوك" للطبرى المتوفى سنة ٩٢٢م (٣١٠هـ) حيث أمد الدراسة بمعلومات طيبة فى مواضع كثيرة فى الرسالة، لكنها كانت فى كثير من الأحيان موجزة وبعضها مقتضبا اقتضابا يجعل الفائدة منها قليلة - كما أن البلاذرى والطبرى وبعض المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الخزر كانوا يخلطون بين الترك والخزر، فمرة يطلقون عليهم الخزر ومرة أخرى يطلقون عليهم الترك فقط دون خاصية أو تحديد، مما كان يشكل صعوبة فى البحث وذلك لأن الخزر ترك وليس الترك خزرا.

وكتاب "الكامل فى التاريخ" لأبن الأثير المتوفى سنة ١٢٣٢م (٦٣٠هـ) من المصادر الهامة التى أمدتنا بمعلومات قيمة فى الدراسة. وقد اعتمد ابن الأثير على سابقيه، ولكنه حذف الأسانيد، كما حذف التفاصيل التى لا تدعوا الحاجة إليها.

ومن المصادر التى افدنا منها، تاريخ ابن خلدون وابن كثير والنويرى والذهبى وإن لم يكن فى أخبار هؤلاء من جديد انفردوا به، بل اعتمدوا كلية على

سابقيهم، فالنويرى مثلا لا يدعى لنفسه أصالة خاصة، بل يذكر بالتحديد أنه إنما يقتفي اثر السابقين عليه ويلقى المسئولية على عاتقهم.

أما عن طائفة المصادر العربية الأخرى التى أفادتنا فى معالجة المظاهر الحضارية فقد كانت على جانب كبير من التعقيدات، لأنها كانت وحدها تقريبا المتاحة بين أيدينا التى تكلمت فى هذا الشأن، ولم تكن بصورة واضحة وكبيرة تمكن المتصدى لمعالجة تلك المظاهر، خاصة وأن ما أورده الجغرافيون والرحالة من مادة علمية فى هذا الصدد قد شابه الغموض واللبس، ذلك أنهم كانوا يهتمون بتدوين الأحداث الغريبة العجيبة فقط.

أفادت الدراسة أيضا من كتاب "مروج الذهب" للمسعودى المتوفى ٩٥٧م (٣٤٦هـ) الذى تحدث عن الخزر والأمم التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى القوقاز وأشار المسعودى فى مروجه بشأن اعتناق الخزر لليهودية أن له كتابا آخر تضمن وصفا لهذه الظروف إلا أن الكتاب لا تعرف عنه شيئا لأنه فقد، إلا أنه يبدو أن تلك الظروف بقيت ماثلة فى كتابين هما المسالك والممالك "للبكرى" المتوفى سنة ١٠٩٤م (٤٨٧هـ) والثانى "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" للدمشقى المتوفى سنة ١٣٢٧م (٧٢٧هـ). ونادرا ما يشير المؤلفان إلى مصادرهما وهى جميعها لا تخرج عن سابقيهم كالمسعودى والاصطخرى والإدريسى.

ومن المؤلفات التى كانت على جانب كبير من الأهمية "رسالة ابن فضلان" لأحمد بن فضلان الذى ترك رسالة مشهورة قدم لنا فيها صورة حية للظروف السياسية فى العالم الإسلامى والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها فى آسيا الوسطى والأصقاع النائية. وكان الخليفة العباسى المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢م/ ٢٩٥-٣٢٠هـ) قد أنفذ بعثة إلى بلاد البلغار، وكانت هذه البعثة برئاسة سوسن الرسى وكان ابن فضلان أحد أفراد تلك البعثة، وقد تم إعداد هذه البعثة بناء على طلب

بلغار الفولجا الذين أرسلوا رسولا إلى عاصمة الخلافة العباسية بعد ان أسلم ملكهم زطلب من الخليفة أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبنى له مسجدا ويقيم حصنا ضد ملوك الخزر اليهود الذين كانوا يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب. وقد استغرقت رحلة ابن فضلان حوالى أحد عشر شهرا، وكتب رحلته عن الشعوب التى مرت عليها البعثة بأسلوب شيق سلس ولغة حية مصورة فى رسالة إلى الخليفة، وربما تكون هذه الرسالة هى المصدر الذى استقى منه الأصطخرى وابن حوقل والمسعودى. ومن المؤسف أن ابن فضلان قد حيل بينه وبين زيادة قصبة الخزر، ولم يجد بدا فى تدوين رحلته من الاعتماد على البيانات التى استقاها من البلاد الخاضعة للخزر وخاصة البلغار، وقد اهتم بهذه الرسالة العديد من المستشرقين وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على النسخة التى اكتشفت فى مدينة مشهد العراقية والتى قام الدكتور سامى الدهان بتحقيقها.

كما أفادت الدراسة من كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموى المتوفى سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ). وتكمن أهمية هذا الكتاب أنه حفظ لنا رحلة ابن فضلان فى مواد (خزر، أتل، روس، بلغاريا باشقرد، خوارزم) وكان هذا المصدر الوحيد لتلك الرحلة قبل اكتشاف النسخة المدونة، والشىء الملاحظ أن ابن فضلان كان يسمى ملك البلغار (ملك الصقابة) وكان يمكن اعتبار هذه العبارة خطأ من ياقوت لولا أن ابن فضلان يستعمل نفس هذه العبارة، وكان ياقوت يتخفف فى نقوله من بعض التفاصيل حينا ويتقيد بالنص حرفا حينا آخر ولقد أفادنا المصدر فى معظم الرسالة، خاصة وأنه حقق معظم الأماكن الهامة التى وردت بالرسالة ولم يفته إلا القليل.

وهناك ثلاثة مصادر جغرافية تحمل عنوانا واحدا هو "المسالك والممالك" لبن خرداذبة (ت٩١٢م/٣٠٠هـ) والإصطخرى (ت٩٥٧م/٣٤٦م) وابن حوقل (ت٩٧٧/ ٣٦٧) الذى ألف كتابه بعد الإصطخرى واعتمد عليه اعتمادا كليا، ولكنه

انفرد بإيراد النظام القضائي بمملكة الخزر وهزيمتهم على يد الروس، واستفادت الدراسة من مؤلف الإصطخرى الذى اعتمد فى تأليفه على رحلاته فى طلب العلم والمعرفة فى الآفاق الإسلامية وعلى ما نقل من كتاب "صور الأقاليم" للبلخى، ولكن رواية الإصطخرى عن الخزر وضعت أمام المؤرخين صعوبات جمة إذ أنه جمع فيها دون فائدة تذكر بين روايتين مختلفتين. كما حاول أن يثبت ذلك العلامة الهنغارى كموشكو Kmocho (١٩٢١م) غير أن هذه المشكلة قد حلت بعض الشيء عقب العثور على النص الأكمل لابن فضلان حيث اتضح أن القسم الخاص بالخزر الذى ينسبه ياقوت إلى ابن فضلان إنما هو فى الواقع للأصطخرى[١٢].

أما عن المراجع والمجموعات والدوريات ودوائر المعارف المختلفة. فقد أفاد معظمها الدراسة بصورة كبيرة. ويأتى فى مقدمة هذه المراجع الكتاب القيم الذى وضعه المؤرخ المحدث دنلوب عن الخزر، وكان دنلوب يعمل أستاذا للتاريخ الشرقى الوسيط فى جامعة كولومبيا. ويعتبر كتابه مرجعا كبيرا عن الخزر، ولكنه لم يسدل الستار على العديد من القضايا التاريخية الخاصة بالخزر، وأوصى بمزيد من البحث لأن كثيرا من القضايا مازالت موضع استنتاج وحدس وموضع جدل واختلاف.

أما الكتاب الثانى فهو للصحفى المجرى كويستلر الذى جاء بعنوان "القبيلة الثالثة عشر، إمبراطورية الخزر وتراثها" وهو عبارة عن دراسة تاريخية أنثروبولوجية، حاول فيها كويستلر أن يدحض مزية الاستقلال العرقى الجنسى لليهود وكذب الادعاء بمعاداة الشعوب الأخرى للسامية، وتناول فيها أثر الخزر فى التركيب السلالى

---

(12) Krachovski (I.V.): Istoria Arabskoi Geograficheskoi Listeratury. (Moskova, 1957), p. 197.

والترجمة العربية، كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج١، ص٢٠٠.

لليهودية الحديثة وتراثها الاجتماعى. والحقيقة أن كويستلر فى كتابه قدم لنا فيضا من الأدلة والوثائق فى تأييد نظرية اقتناعنا بها يزداد، وإن صحت هذه النظرية فإن القول بمناهضة السامية يصبح خاليا من المعنى، واعتمد المؤلف على حجج المؤرخين المحدثين سواء البولنديون أو النمساويون أو الإسرائيليون فى إثبات أن الغالبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطينى وإنما من أصل قوقازى، كما أخذ بالإحصاء الموثوق الذى قدمه المؤرخون البولنديون والدال على أن الغالبية العظمى من اليهود فى العصور السابقة كان أصلها من بلاد الخزر، والحقيقة أن نظرية كويستلر ليست بالنظرية الجديدة، فقد توصل إليها من قبل كثير من العلماء أمثال دنلوب وبولياك الإسرائيلى (الروسى الأصل) الذى قدم إلى فلسطين مع المهاجرين اليهود سنة ١٩٢٣م وشغل كرسى تاريخ اليهود الوسيط. بجامعة تل أبيب، وألف كتابا باللغة العبرية عن الخزر، وطبع فى تل أبيب سنة ١٩٤٤م[١٣] وقوبل بالعداء ولم يذكر اسمه فى دائرة المعارف اليهودية التى طبعت سنة ١٩٧١م.

ولقد أثار كتاب كويستلر ضجة ضخمة فى جميع الأوساط. وعلى الرغم من أن الكتاب هو شهادة لنا – لا علينا – فى موقفنا مع اليهود إلا أن الكاتب يظهر صهيونيته حين ذكر فى نهاية كتابه قائلا: "رغم أن هذا الكتاب يدرس التاريخ الماضى، فلا مفر أن يحمل تضمينات معينة تنسحب على الحاضر والمستقبل فأنا أعى – فى المرتبة الأولى – الخطر المتمثل فى أنه قد يساء فهمه باعتباره إنكارا لحق دولة إسرائيل فى الوجود، ولكن هذا الحق لا يستند إلى الأصول المحتملة للشعب اليهودى ولا إلى الوعد الأسطورى بين إبراهيم والله، ولكنه يستند إلى القانون الدولى، أقصد إلى قرار الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٧م والذى قضى بتقسيم

(13) Poliak (A. N.): Khazaria, in Hebrew (Tel Aviv, 1944).

فلسطين - التى كانت يوما ما ولاية تركية ثم صارت إقليما خاضعا للانتداب البريطانى ثم إلى دولة عربية ودولة يهودية - وأيا كانت الأصول العرقية للمواطنين الإسرائيليين وأيا كانت أوهامهم عنها التى يعللون النفس بها فإن دولتهم قائمة فعلا وقانونا، سواء أ حملت كروموزومات شعبها جينات من أصل خزرى أو سامى أو من أصل رومانى أو أسبانى فأمر لا صلة له بالموضوع، ولا يمكن أن يؤثر فى حق إسرائيل فى البقاء ولا فى الالتزام الأدبى لأى شخص متحضر، يهودى أو غير يهودى، بالدفاع عن هذا الحق، ولا شأن لمسألة الوجود الخزرى منذ ألف عام - مهما كان سحرها بإسرائيل الحديثة"(١٤).

والحقيقة أن الكاتب يناقض نفسه فيما قدمه، فهو فى البداية يقدم لنا فيضا من الأدلة على أن شعب اليهود المعاصرين ليسوا ساميين، وعلى هذا فليس من حقهم احتلال فلسطين ويفاجئنا فى النهاية بأن هؤلاء من حقهم فلسطين بناء على القانون الدولى. وهذا القول يناقض البحث العلمى السليم، ويبدو أن التنصل الآن من العرق السامى أصبح لا يضر بعد أن استنفذ غرضه باغتصاب فلسطين وإقامة دولة فيها بقوة القانون الدولى والأمر الواقع. إن كويستلر يفاخر ويغيظ العرب والمتحضرين والمثقفين فى العالم أنه أخذ يكذب هو واليهود على العالم طوال الوقت السابق بأنه سامى يريد أن يعود إلى أرض أجداده وأفلح فى العودة هو واليهود إلى فلسطين وتكوين دولة إسرائيل وتشريد شعبها بعد أن ابتلع العالم كذب اليهود، أما الآن فلا يضيره اليوم هو واليهود بأن يعلن أنه مدع، وأن يعلن أن فلسطين ليست أرض أجداده، وأولئك القادمون ليسوا أجداده وأنه ليس ساميا، وقد يكون خزريا. ولكن هذا كله لا يعنى شيئا ما دامت إسرائيل فى زعمه قائمة بقوة القانون.

---

(14) Koestler: The thirteenth tribe the khazar Empire and its Heritage, p.223.

الفصل الأول

قيام مملكة الخزر

- الإشارات المبكرة عن تاريخ الخزر.
- علاقة الخزر بالأرمن.
- علاقتهم بالبيزنطيين قديمًا.
- علاقتهم بالهون.
- علاقتهم بالفرس.
- علاقتهم بالأتراك الغربيين.
- الهيمنة الخزرية على بعض الشعوب فى شرق أوربا.

(البلاد التى كانت تدفع الجزية للخزر - البلغار - الغز - البرطاس - مملكة السرير - الآلان - المجر - هون ورشان - البجناك)

اتفق معظم الباحثين الذين تناولوا تاريخ الخزر سواء أكان ذلك من قريب أم بعيد على أن الخزر شعب من اصل تركى عاش فى أواسط آسيا، ثم قدم فى فترة مبكرة غير محددة إلى شرق أوربا بحذاء الطريق البرى المار شمال بحر قزوين، واستقر الخزر حول بحر قزوين ومناطق جبال القوقاز وامتد سلطانهم من بحر قزوين ونهر الفولجا إلى نهر الدنيبير وعاصمتهم كانت تقع على بعد من استراخان الحالية وقد أطلق عليها بلاندشار Balandshar، كما شمل نفوذ الخزر جزءا كبيرا من جنوب روسيا وامتدت أراضيهم إلى الغرب الأوربى[1].

ولكن الشىء الذى اصطدم به المعنيين بالخزر هذه التساؤلات الكثيرة بشأنهم. متى ظهر الخزر واسم الخزر لأول مرة، وكيف برزوا على مسرح الأحداث ومتى قدموا من أواسط آسيا، وكيف كانوا فى بداية عهدهم واستقرارهم، وكيف تحولوا من قبائل وثنية إلى مملكة لها كيانها وإمبراطورية لها امتدادها، ثم اين كان الخزر وشكلهم السياسى فى تلك الحقبة التى ظهر فيها الهون والآفار والأتراك الغربيين والفرس، وما هى علاقتهم المبكرة بالعرب والبيزنطيين ومتى بدأت؟

ونود هنا قبل الإجابة عن هذه التساؤلات أن نشير إلى أن فجر تاريخ الخزر يكتنفه الغموض، خاصة فيما يتصل ببداية ظهورهم ووصفهم الأثنولوجى. لذا فإننا فى السطور القادمة سوف نورد كل ما ذكر عن الخزر وبدايتهم، واضعين فى الاعتبار عدم إغفال أية رواية مهما كانت خيالية أو ساذجة أو بعيدة عن الصحة فربما يكون لها أهمية تاريخية.

---

[1] Art. Khazar, in Ency. Americana (1829), Vol. 16, p.391, Cole (F.C.): Art. Khazar in the American People Ency., (New York, 1966), Vol. 11, p.111.
Art. : Chazars, in Chambers's Ency., (London and Edinburgh. 1923), Vol. 3.
Durant (W) : The Story of Civilization, The Age of Faith (New York, 1950), Vol. Iv, p. 446.

ففيما يختص بأصل الخزر الأنثروبولوجى يجمع المؤرخون المسلمون على أن الخزر أتراك من ولد يافث بن نوح، كما يورد هؤلاء المؤرخون أيضا تصنيفا أنثروبولوجيا لشجرة نسب أولاد نوح (سام وحام ويافث) وما تفرع منهم فى الأماكن التى استقروا بها، ونجدهم مثلا يخصون يافث بشعوب الترك والخزر ويأجوج ومأجوج والصقالبة والأشبان والبرجان وغيرهم، وكانت منازلهم أرض الروم قبل الروم. وصار لولد حام بلاد المغرب وما وراء النيل وصار لسام وسط الأرض كالحرم وما حوله[٢] كما نجد ياقوت الحموى[٣] يرجع شعب الخزر إلى الخزر بن يافث.

وفى المراسلات المتبادلة بالعبرية فى القرن التاسع الميلادى بين حسداى بن شفروط كبير الوزراء اليهودى لخليفة قرطبة فى الأندلس عبد الرحمن الثالث وبين يوسف ملك الخزر جاء فى رد الملك يوسف أن الخزر اليهود يرجع أصلهم إلى ياغث ابن نوح الثالث، كما يذكر أنه وجد فى الكتب المختصة بالسلالات عن آبائهم أنه كان لنوح عشرة أولاد هم Ouvar, Tirus, Agijoe, Balgad, Sanar, Cusar, Zarna, Bisal, Ugin, Savir وهم ينحدرون من كوزار (الخزر) Cusar[٤].

---

[٢] ابن قتيبه : المعارف، ص ٢٦.
الديتورى : الأخبار الطوال، ص ٣٤.
اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ج١، ص ٩-١٢.
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٢٠٥-٢٠٦.
الكرديزى : زين الأخبار، ج٢، ص ٤٣٣.
ترجمة : عفاف السيد زيان.
ابن الأثير : الكامل ف التاريخ، ج١، ص٤٦.

[٣] معجم البلدان: ج٣، ص ٤٣٢.

(4) The Answer of Joseph, C.F. Adler (E. N.), Jewish traveller (London, 1930) p. 34; Koesler: op. Cit., p.72.

ولنأتى لكتاب "ديوان لغات الترك" الذى وضعه المؤلف التركى الأصل محمود الكاشغرى(٥) وشمل الحديث عن كثير من الشعوب التركية ومواضع سكناهم، وقد اعتمد فى ذلك على المعاينة ومعرفته الشخصية بتلك البلاد، فنجده يعود بأصل الترك إلى ترك بن يافث، ونجده يصف العديد من أقوام الترك، ونندهش من عدم ذكره للخزر، على الرغم من أنه ذكر أمما مجاورة ومعاصرة للخزر أمثال البجناك والقفجاق والباشقرد وغيرهم، ويبدو أنه لم يذكر الخزر لأنه لم يكن لهم كيان سياسى ضخم، خاصة وإذا علمنا أن تاريخ تأليف هذا الكتاب كان بين عامى ١٠٧٢م و١٠٧٤م أى القرن الحادى عشر، وفى ذلك القرن كان الخزر فى طريقهم إلى الاضمحلال والتلاشى كدولة.

وتفيض المصادر العربية والفارسية بالحديث عن تاريخ الخزر المبكر، فنطالع رواية ذكرها ابن سعد(٦) تربط بين الخزر وإبراهيم عليه السلام، وذلك أن إبراهيم رزق أولادًا اتفرقوا فى أرض مدين ويقشان وغيرها "وقالوا لإبراهيم" يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة قال: بذلك أمرت. قال فعلمهم اسما من أسماء الله فكانوا يستسقون به ويستنصرون، فمنهم من نزل خراسان، فجاءتهم الخزر فقالوا: ينبغى للذى علمكم هذا أن يكون خير أهل الأرض أو ملك الأرض، قال : فسموا ملوكهم خاقان".

وأورد الطبرى(٧) نفس هذه الرواية التى ذكرها ابن سعد بلا اختلاف. كما أوردها أيضا تميم بن بحر(٨) الذى يذكر أن إبراهيم لم يتزوج بعد سارة حتى ماتت

---

(٥) جـ١، ص ٢٧.

(٦) الطبقات الكبرى، جـ١، ص ٢٢.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص ٣١١

(8) Minorsky (T.): Tamim Ibn Bahr's Journey to the Uyghurs. (1948), Vol. Xii, part 2, p.282 in Bulletin of the School of Orintal and African studies.

فتزوج امرأة من العرب العاربة تدعى قنطورا بنت مقطور ثم خرجوا سائرين حتى وصلوا إلى خراسان فتناسلوا هناك واتصل خبرهم بالخزر الذين يحدرون من أصل يافث بن نوح فصاروا إليهم وحالفوهم وتزوجوا منهم وأقاموا بعضهم عندهم وانصرفوا الباقون إلى بلدهم.

والحقيقة أن هذه الروايات تثير تساؤلات هامة، هل كان للخزر وجود بالشكل المعروف على عهد إبراهيم عليه السلام؟ ، أم أن هذه الروايات أسطورة وخرافة، أم أن الخزر ذكروا في هذا الموضع خطأ، أم أن الرواية ساذجة ولا تستحق الاهتمام. وبدون النظر إلى تلك الاعتبارات فإن تلك الروايات قد أفادت بأن الخزر أقاموا في خراسان، فهل كانوا بالفعل في خراسان؟ فضلا عن أن الخزر في تلك الرواية سموا ملوكهم خاقان، والملاحظ أن هذه التسمية لم تظهر إلا بظهور الأتراك الغربيين الذى سيأتى عنهم الحديث فى موضع آخر من الدراسة.كما اننا نطالع قصة أخرى فى كتاب "الحيوان" للجاحظ[9] الذى ذكر قصة فى عهد النبى سليمان، غير ذات أهمية بالنسبة لدراستنا، إلا أن صاحب الخزر ذكر مع صاحب الروم، وصاحب الترك وصاحب النوبة فى هذا الموضع، وإن صحت هذه القصة فهل كان صاحب الخزر نظيرا لصاحب النوبة والروم؟ والملاحظ فى هذه الرواية أنها ميزت بين الترك والخزر.

ونطالع أيضا قصصا تربط بين الإسكندر الأكبر والخزر، فالدينورى[10] يذكر أن الإسكندر توجه إلى أرض المشرق ليحصل على طاعة ملك الصين، إلا أن وزراءه صعبوا له ذلك وقالوا: "كيف يمكنك الاجتياز إلى مطلع الشمس من هذه الجهة، دون ذلك البحر الأخضر ولا تعمل فيه السفن، لأن ماءه شبيه بالقيح، ولا يصير على

---

(٩) جـــــ٤، ص ٨٥-٨٦.

(١٠) الأخبار الطوال. وص ٣٥-٣٦

Dunlop : op. Cit., p. 14.

نتن ريحه أحد؟" فقال: لابد من المسير ولو لم اسر إلا وحدى. قالوا: نحن معك حيث سرت. فسار حتى قطع أرض الروم ... ثم جاوزهم إلى أرض الصقالبة، فأذعنوا له بالطاعة، فجازهم إلى أرض الخزر فأذعنوا له فجازهم إلى أرض الترك فأذعنوا له....".

ولا تعنينا بقية الأحداث الخاصة بالإسكندر، ولكن ما يثير التساؤل فى هذا الموضوع هو هل كان الخزر موجودين على فترة الإسكندر بالشكل الذى نعرفه عن الدول والممالك؟ ثم أن الطبرى[11] فى إحدى مواضع كتابه الضخم ذكر معركة عظيمة جرت بين الإسكندر وحاكم الفرس فى خراسان بالقرب من حدود الخزر. على أن المؤرخ المحدث دنلوب[12]، يعتبر ارتباط ذكر الخزر بقصص الإسكندر نوعا من التجاوز ولا يمكن قبوله أو تصديقه، ويعلق قائلا: "إن صح ما روى عن الخزر فإن ذلك يعد دليلا على نشاط الخزر وأتساعهم بعيدا إلى الشرق من منطقة القوقاز فى بعض الوقت" إلا أنه فى النهاية يعود ويرى أن جميع الإشارات التى تربط الخزر بالإسكندر وهمية وخيالية.

وهناك مصادر عربية أخرى نجد فيها أخبار عن الخزر، ففى كتاب "العقد الفريد" لبن عبد ربه[13] إشارات عن الخزر تلقى بعض الضوء على بداية تاريخ الخزر، ففى مناقشة طريفة درات بين ابن المقفع (ت١٤٢هـ) ومجموعة من أقرانه. طرح سؤال هام: أى الأمم أعقل؟ فردوا عليه بهذه الأمم الفرس، ثم الروم، ثم الصين فالهند فالأفارقة ثم جاء الترك فالخزر، فلم يوافق على هذه الأمم جميعا ورد عليهم

---

(11) تاريخ الرسل والملوك، حـ١، ص٥٧٦.

Dunlop : op. Cit., p.15.

(12) Dunlop : op. Cit., p.15.

(13) حـ٢. ص ٢٢٤-٢٢٥.

Rosenthal (H.): Techniaue and Approach of Muslim Scholarship. (1947), p. 72.

بالعرب، وكان ابن المقفع يعقب على كل أمه ويخصها بخصائص معيه في رده. فقد عقب على الترك بأنهم "كلاب ضالة" وعلى الخزر بأنه "بقر سائمة". ، كما ذكر نفس المصدر رواية أخرى وكانت عبارة عن مناظرة جرت بين النعمان بن المنذر ملك الحيرة وبين كسرى ملك الفرس في شان العرب وقوام هذه المناظرة أن كسرى نظر فوجد أن لكل أمة من الأمم ميزة وصفة، فوجد للروم والهند والصين صفة وحتى للترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش فإن لهم ملوكا تضم قواصيهم وتدبر أمرهم ولم ير للعرب شيئا من خصال ......إلخ"[١٤].

ولنأتي الآن لتحليل هاتين الروايتين، ففي الرواية الأولى جاء الترك والخزر في المؤخرة بعد الفرس والصينيين والهنود والأفارقة، وعلى الرغم من أن الخزر جاءوا في المؤخرة إلا أن هذا لا ينفي أنهم ذكروا مع هذه الأمم بالشكل الذي يولد اتجاها على وجودهم وكيانهم وإن كان الخزر الترك قد احتلا مكانة قليلة الشأن بين الأمم، كما أن هذه الرواية ميزت بين الترك والخزر في الصفات والمميزات، لكن الشيء الذي يمكن الخروج به من هذه الرواية أن الخزر جاءوا كمجموعة عرقية مستقلة لها طابع معين وصفات وخواص مميزة بين عناصر وطوائف الترك المختلفة، والرواية الثانية على الرغم من أنها خصت الترك والخزر بسوء الحال إلا أنها أفادت بأن لهم ملوكا تضم قواصيهم وتدبر أمرهم، الأمر الذي يجعل من الخزر شعب له دوره وكيانه بين الشعوب القائمة وإن كان أقل في الدرجة.

وهناك علاقة مبكرة بين الخزر والأرمن تذكرها المصادر الأرمينية، وتفصيل ذلك أن شعوب الشمال اتحدوا وهم الخزيرز Khazirs والباسيليون Basilians (أو الباسيلك Basilk) ونفذوا عبر ممر كور Chor تحت قيادة زعيمهم فناسب سورهاب Vnasp Surhap وقد عبروا إلى ذلك الجانب من نهر كورا Kura إلا أن فالارش

---

[١٤] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٢، ص ٤-٥.

Valarsh القائد الأرمينى صدهم على رأس قوة من الجند المحاربين وبعثرهم فى صورة جثث على طول السهل، وطارد بقاياهم إلى مسافة بعيدة ودفعهم خلفا إلى ممر كور. وهناك اتحد الخزر والباسيليون مرة أخرى ودخلوا فى معركة ثانية مع الأرمن، إلا أن الأرمن أبدوا شجاعة وهزموهم وأجبروهم على الفرار على الرغم من موت فالارش بين يدى الرماة، وقد حدث ذلك فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٩٧م و٢١٧م[١٥].

ويطلعنا الطبرى[١٦] عن علاقة مبكرة بين الخزر والإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) حيث ذكر أن هدنة جرت بين شابور الثانى ذو الأكتاف (٣١٠-٣٧٩م) كسرى الفرس والإمبراطور البيزنطى قسطنطين الكبير (٣٢٤-٣٣٧م) أول من اعترف بالمسيحية (سنة ٣١٣م) ثم تولى من بعده ثلاثة من بنوه حتى جاء الإمبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣م) الذى ارتد عن المسيحية، ووجدت الوثنية من أيدها بإخلاص وولاء فأعادها "وقتل الأساقفة وأحبار النصارى، وأنه جمع جموعا من الروم والخزر ومن كان فى مملكته من العرب ليقاتل بهم سابور وجنود فارس".

ويبدو أن البعض اعتمد على هذه الرواية وذكر أن الخزر قدموا مساعدتهم الأولى للإمبراطور الرومانى جوليان سنة ٣٦٣م[١٧] على أن المؤرخ المحدث دنلوب[١٨] يعتبر هذه الرواية نوعا من الخطأ ولا يقبلها، ويبدو أنه اعتمد على ما جاء فى المصادر البيزنطية فيما يتعلق بشعب الخزر، فالمصادر البيزنطية لم تذكر الخزر

---

(15) Moses Khorenots: History of the Armenians. (London, 1978), p.211.
Klaproth (M): Meomorie sur les Khazar in Journal Asiatique. (1823), T. 3, pp.. 153-154.
Dunlop : op. Cit., pp. 8-9.

(١٦) تاريخ الرسل والملوك، حـ٢، ص ٥٨.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٢٣٠.

(17) Rosenthal: Art. Chazar, in Jewish Ency., Vol. Iv, p. 1.

(18) Op. Cit., p. 18.

بشكل صريح إلا فى القرن السابع الميلادى، حينما التحقوا بقوات الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٧م فى حروبه ضد الفرس ومساعدته بقواتهم فى حصار تفليس، فالمؤرخ اليونانى ثيوفانيس[19] Theophanis يتحدث عن الخزر بقوله: "أولئك الأتراك القادمون من الشرق الذين يدعون الخزر" ومع ذلك فإن لفظ الأتراك يأتى لدى غيره من الكتاب الإغريق دون تحديد أو خاصية.

والحقيقة أن الخزر كونهم ساعدوا الإمبراطور هرقل ولم يذكروا بشكل صريح فى المصادر البيزنطية إلا فى القرن السابع، فإن ذلك لا ينفى مساعدتهم لجوليان فربما ذكروا فى تلك المصادر بأسماء غير الشكل الذى نعرفه، كما تقدم من أن الخزر عرفوا بمسميات شتى، وعلى ذلك يمكن القول أنه لم يكن للخزر شأن ولم يدخلو دائرة الضوء التاريخى على عهد الإمبراطور جوليان إلا أن فى صورة جنود مرتزقة.

وهناك اتجاه لربط الخزر بالهون Huns، والمعروف أن الهون شعوب تركية مغولية سماهم الصينيون هيونج – نو Hioung – nou وقد أطلق الرومان والهنود فيما بعد عليهم الهون أو الهونى Hunni والهونا Huna[20] وقد نجح الهون فى تأسيس إمبراطورية لم تعش طويلا شمال الصين وقد شقت قبائل الهون أواخر القرن الرابع الميلادى طريقها إلى سهول روسيا الجنوبية (شمال البحر الأسود) عندما دفعتها من الوراء تحركات غامضة قامت بها قبائل الأورال – الطائية فى وسط آسيا، ربما بسبب، زيادة أعدادها زيادة هائلة أو نشوب صراع وحروب بينها أو تغيرات مناخية أثرت تأثيرا بالغا على حياة الهون الرعوية، ونجح الهون فى تكوين

---

(19) Chronographia, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (1839), Vol. I, p. 485.
Klaproth : op. Cit., T. 3, p. 155.
Art., Khazar., in Ency., Judica., Vol. x, p. 944.

(20) Grousset (R): L'Empire Des Stepps. (Paris, 1948), p.53.
Halphen (L) : Les Barbares. (paris, 1936)., p. 11.

إمبراطورية ضخمة جعلوا مقرها في سهل هنغاريا (المجر)، وبلغت هذه الامبراطورية أوج عظمتها عندما توحدت تحت زعامة آتيلا Attila الذى ورث الحكم سنة ٤٣٣م، وقد وقع تحت سيطرة الهون الشعوب الجرمانية التى عجزت عن الوقوف أمام زحفهم العاصف ومنها الجيبيداى Gipidae والآلان Alans والقوط والصقالبة وغيرهم(٢١).

وكان آتيلا ملكهم قد استقبل سنة ٤٤٨م سفارة من الإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م) Theodosius II الذى كان يرأسها بريسكوس Priscus(٢٢)، وتحدث بريسكوس عن شعب خاضع للهون ويقطن سكيثيا Scythia تجاه بونتس Pontus (البحر الأسود) ويدعى أكاتزير Akatzir (23) ومن جهة أخرى فإن الأصطخرى(٢٤) تحدث عن الخزر وذكر أنهم "صنفان: صنف يسمون قراخزر، وهم سمر يضربون - لشدة السمرة - إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال" . إلا أنه لم يخص الصنف الثانى باسم كما فعل فى الصنف الأول، مما دفع بعض المحدثين إلى اعتبار أن الشعب الذى ذكره بريسكوس وهو أكاتزير الخاضع للهون هم نفس الصنف الثانى أقخزر الذى ذكرهم الأصطخرى أى البيض ظاهرو الحسن والجمال، وقد لاقى هذا التفسير قبولا واسعا فى كتابات المؤرخين المحدثين وإن كان قد قوبل بالرفض من فريق آخر على أساس أن هناك استحالة من الناحية اللغوية(٢٥).

(٢١) محمود الخويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٠٧-١٠٨.

(22) Bernad (P.): A. History of Russia. (London, 1962), p. 37.

(23) Dunlop : op. cit., p.7.
Art. Khazar., in Ency. Judica., Vol. x, p. 944.

(٢٤) المسالك والممالك، ص ١٣١.
Klaproth : op. cit., T. 3, p. 158.

(25) Dunlop : op. cit., p.7.
Pritsak (O) : Art. Khazar., in Dictonary of the Middel Ages. (New York. 1986), Vol. 7, p. 240.

وعن الاكاتزير والدى يطابق الى حد كبير أقخرر او الخرر البيص يخبرنا بريسكوس أنه كان خاضعا تحت سيطرة الهون وحاول الإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس أن يكسب هدا الشعب الى جانبه عن طريق تقديم رشوه. لكن رئيس الأكاتزير (الخزر) الجشع ويدعى كاريداك اعتبر تقديم الرشوة له غير وافية فوقف بجانب الهون. كما أن آتيلا هزم المنافس الرئيسى لكاريداك ونصبه الحاكم الأوحد على شعبه[٢٦].

وعلى أى حال فإن الشيء الذى أكده المؤرخون أن الخزر تبعوا رايات آتيلا وكانوا يدفعون له الجزية سنة ٤٣١م، كما أنهم حاربوا فى سنة ٤٥٢م فى أقاليم كاتالونا Catalanian تحت راية الهون السود والآلان[٢٧] على أن الهون ظلوا فيما بعد على المسرح الأوربى ثمانين عاما فقط، فى حين أن الخزر كانوا فى طريقهم إلى التماسك والانتعاش. وفى أعقاب انهيار إمبراطورية الهون بعد وفاة آتيلا سنة ٤٥٢م حدث فراغ في شرق أوربا وتدفقت مرة أخرى موجات متلاحقة من حشود البرابرة قادمة من الشرق إلى الغرب، ومن أبرز هذه الحشود الأويغور والأفار وفى الغالب كان الخزر فى تلك الحقبة ينعمون بالإغارة على إقليمى جورجيا وأرمينيا الغنيين وممرات القوقاز[٢٨].

وتفيض المصادر العربية والفارسية أيضا بالحديث عن علاقة الخزر بالفرس قبيل الإسلام، حيث أنه إبان حكم كسرى الفرس قباذ بن فيروز سنة (٤٨٨-٥٣١م) خرجت قبائل الخزر فأغارت على بلاده حتى بلغت الدينور، وبذلك بدأ صدامهم مع الفرس، فأرسل إليهم قائدا من خيرة قواده على راس جيش بلغ مقداره اثنى عشر

---

(26) Koestler : op. Cit., pp. 22-23.
(27) Rosenthal op. Cit., in Jewish Ency., Vol. Iv, p.1.
Klaproth op. Cit., T 3., p. 154.
Cole Art. Khazar. in the American People Ency., Vol. Xi, p. 111
(28) Koestler op. Cit., pp. 23

الف مقاتل فوطىء بلاد أران[٢٩]، وفتح ما بين الشروان[٣٠]، ونهر الرس[٣١]. ثم أن قباذ قد قام بنفسه بحمله على قبائل الخزر البربرية التى كانت كثيرا ما تجتاح المنطقة الواقعة بين القوقاز ووادى كر، وتمكن من هزيمتهم بسهولة فى أول صدام بينه وبينهم وقتل عدد كبير منهم واستولى على غنائم هائلة[٣٢]. ولا شك أن الخزر آنذاك سببوا للفرس قلقا عظيما حتى أن قباذ أهتم بتحصين حدوده الشمالية فأقام حائطا دفاعيا وعدة قلاع قوية محصنة[٣٣] ليقى نفسه من شر غزوات الخزر وغيرهم، الأمر الذى يدل على أن العلاقات بين الفرس والخزر على عهد قباذ كانت عدائية.

ولم تكن العلاقات بين الفرس والخزر على عهد خليفته كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) بأحسن حال، إذ تجددت الحروب مرة أخرى وقام أنو شروان بحملة عليهم،فقتل منهم وغنم[٣٤]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فيبدو أن أنوشروان كان

---

(٢٩) أران : أران والران واحد، وهى ولاية واسعة من نواحى أرمينية.
انظر : ياقوت: معجم البلدان، حـ٤، ص ٢١٣.

(٣٠) شروان : مدينة من نواحى باب الأبواب الذى تسميه الفرس الدربند.
انظر : ياقوت: معجم البلدان، حـ٥، ص ٢٥٨.

(٣١) البلاذرى : فتوح البلدان، ١٩٨.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ح١، ص ٢٤٢.
الرس : بين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس.
انظر : ياقوت: معجم البلدان، حـ١، ص ١٧٠.

(32) Sykes (p.): History of Perisa (London, 1921), Vol, I, p.441.
Klaproth : op. Cit., T.3, p. 154.

(٣٣) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ١٩٨.
ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٣٨٧.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ١، ص ٢٤٢.
زبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى، ص ١٣.

(٣٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٢، ص١٠٣.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ١، ص ٢٥٨. =

قلقا بشأن المحافظة على الثغور الفارسية التي تحيط بها شعوب شتى تبادل الفرس العداء، ويدل على ذلك ما ذكره المؤرخون المسلمون في قصة بناء أنو شروان لباب الأبواب (الدربند)، ذلك أن قبائل الخزر كانت كثيرا ما تحتاج الأراضي الفارسية، وحينما تولى آنو شروان عرش كسرى خاف عادية الخزر، فأرسل إلى ملكهم يعقد معه الصلح، فخطب إليه ابنته على أن يزوجه إياها ويعطيه هو أيضا ابنته ويكون أمرهما واحدا بهذه المصاهرة ويتفرغا لأعدائهما، فلما أجابه إلى ذلك بعث إليه آنوشروان جارية من جواريه، كانت في قصره على أنها ابنته وحمل معها ما يحمل مع بنات الملوك وأهدى خاقان الخزر إلى أنوشروان ابنته، وبعد ذلك، التقى الاثنان بناء على رغبة أنوشروان لتوطيد المودة في موضع يعرف بالبرشلية، وأظهر كل واحد منهما تجاه الآخر بره وكرمه(٣٥).

وتضيف المصادر أن أنوشروان أمر جماعة من عسكره بشن هجوما على طرف من عسكر الخزر، بغرض إحراقه وتخريبه والعودة في الخفاء. ولما حدث ذلك شكى خاقان الخزر لأنوشروان مما فعل جنده. ولكن أنوشروان لم ينكر ما فعله عسكره فحسب بل عاد لتكرار هذا الفعل ثلاث مرات وفي كل مرة يقدم اعتذاره للخاقان، فلما ضجر الخاقان أمر جنده بمثل ما أمر به أنوشروان، فلما فعلوا أرسل إليه أنوشروان قائلا : "كاد أصحابك يذهبون بعسكرى وقد كافأنني بالظنة فحلف أنه لم يعلم بشيء مما كان سببا فقال أنوشروان: يا أخي جندنا وجندك قد كرهوا صلحنا

= ابن الوردى : تتمية المختصر، حـ١، ص ٧١.

Sykes : op. Cit., Vol. I, p. 455.

Shater (E.Y) : Art. Khosrow I531 –579, in the Ency. Of World Biography (1973), Vol. 6, p. 191.

(٣٥) البلاذرى : فتوح البلدان، ص١٩٨ –١٩٩.

ابن خرد اذبه : المسالك والممالك، ص ٣٦٠.

القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٠٣.

لانقطاع ما ا طع عنهم من النيل في الغارات والحروب التي كانت تكون بيننا ولا آمن أن يحدثوا أحداثا يفسد قلوبنا بعد تصافينا وتخالصنا حتى نعود إلى العداوة بعد الصهر والمودة، والرأى أن تأذن لى فى بناء حائط يكون بينى وبينك ونجعل عليه بابا فلا يدخل إليك من عندنا وإلينا من عندك إلا من أردت وأردنا فأجابه إلى ذلك"[٣٦]. وشرع أنوشروان فى بناء ما عرف بباب الأبواب وهو عبارة عن سور حاجز على الخليج الفارسى، ولقد تناولت معظم المصادر المتاحة بين أيدينا وصفا لهذا الباب[٣٧] ومما يلفت النظر فى هذه الرواية أن بعض المؤرخين يذكرون الترك دون تحديد أو خاصية، فعلى سبيل المثال ذكر البلاذرى وابن الأثير أن ما حدث كان مع الترك ولم يكن مع الخزر، وبعبارة أخرى كان المؤرخون يخلطون بين الترك والخزر ويجمعون بينهم.

ويبدوا أن السلام خيم على الطرفين فقد كان يحضر بباب شروان وفود من الترك والصين والخزر ونظرائهم[٣٨] والحقيقة كان لأنوشروان عادات وتقاليد وطباع تتصف بالعدل والرقة وهو الذى أتم بناء حائط دربند الخزر التى شيدها سفنديار[٣٩].

ويبدو أنه كان للخزر شأن عظيم آنذاك، وذلك أنه من تقاليد بلاد أنوشروان أن يوضع على يمين عرشه كرسى من الذهب وعن يساره وخلفه كرسيان آخران من

---

(٣٦) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ١٩٩.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ١، ص ٢٥٩-٢٦٠.
انظر : ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص ١١، ١٢.

(37) Barthold (v.) : four studies on the History of Centiral Asia. (1962), Vol. 3, p. 87.
Notices et Extrarits Des Manuscrits De la Bibliotheque De Roi (Paris, 1789) T.2, pp. 507-8.
زبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى. ص ١٣

(٣٨) الطبرى تاريخ الرسل والملوك. حـ٢، ص ١٠٣.

(٣٩) حمد الله قزوينى تاريخ كذيذة، حـ١. ص ١١٥

الذهب، فأحد هذه الكراسي الثلاثة كان يخص ملك الصين، والثاني يخص ملك الروم والثالث كان لملك الخزر، بحيث إذا قدموا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسي الثلاثة، وهذه الكراسي الثلاثة دائمة توضع طوال السنة، فلا ترفع ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليها(٤٠).

وهناك رواية أخرى قريبة الشبه من الرواية السابقة الخاصة بأنوشروان وملك الخزر، حيث يذكر المؤرخ اليوناني بريسكوس أن بيروز Peirozes (فيروز Firuz) (٤٥٩-٤٨٤م) في وقت ما قبل سنة ٤٨٥م أرسل إلى كونخاذ Qun (Kounkas) Khan) ملك هون الكيدارايت Kidarite Huns وذكر أنه يرغب في السلام والتحالف وأنه سوف يعطى الكيدارايت أخته لتتزوج من كونخاذ، وأجابه إلى ذلك وأرسل إليه من فارس بدلا من أخته امرأة أخرى تمثل شخصيتها وعندما خيم السلام على الفريقين أفشت هذه المرأة لملك الكيدرايت هذا التدليس مما جعله يصبر على الاستمرار في الزواج لكي يأخذ بثأره واستمال فيروز أن يرسل إليه عددا من رؤساء الفرس وكبرائهم، فلما وصلوا إليه قتل بعضهم، وأرسل البعض الآخر مشوهين إلى سيدهم(٤١).

وهناك ما يشير إلى أن الخزر هم الهون البيض(٤٢)، فقد أشار المؤرخ الشهير بيوري(٤٣) في كتاباته التي تناولت الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أن الكيدارايت هم الهون الذين أقاموا في طريق القوقاز وهددوا ممر داريل Dariel مما دفع البعض إلى الميل بأن الخزر هم الكيدارايت(٤٤).

---

(٤٠) ابن البلخي : فارسنامه، ص ٨٧.

(41) Dunlop : op. Cit., p. 19.

(42) Cole : Art., Khazar, in the American People Ency., Vol. xi.

(43) Bury (J. B.) : History of the later Roman Empire from the Death of Theodosios I to the Death of Justinian. (London, 1923)., p. 7 n.5.

(44) Dunlop : op. Cit., p. 19.

وإذا أجرينا مقارنة بما أوردته المصادر العربية وما أورده المؤرخ اليوناني بريسكوس نجد تشابها فى الأحداث وإن اختلفت التفاصيل والمسميات، فقد ذكر مثلا هذا المؤرخ أن الفرس سنة ٤٦٥م أقاموا قلعة يورباخ Yuroeipakh فى نهاية شرق القوقاز أمام الكيدارايت، وطالبوا الرومان بدفع عطايا مقابل هذه الحماية، وفى موضع آخر ذكر هذا المؤرخ أن سفارة فارسية زارت سنة ٤٧٢م القسطنطينية وأعلنت انتصارها على الكيدارايت واستيلائهم على مدينة بلعم Balaam الكائنة شمال القوقاز(٤٥) ومن الجائز أن تكون هذه الدفاعات هى نفس الدفاعات التى اهتم بها الفرس وأقاموها أمام الخزر.

ويميل أحد المؤرخين المحدثين إلى الأخذ بأن الرواية التى أوردها بريسكوس هى نفس الرواية التى طالعناها فى المصادر العربية على أساس أنها حدثت فى عهد فيروز (٤٥٩-٤٨٤م) وتحولت إلى أنوشروان لأنه تزوج بنت خاقان الأتراك الغربيين سنجبو(٤٦).

على أن ما يؤكد أن العلاقات بين الفرس والخزر على عهد كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) كانت عدائية فى فترات كثيرة، ما أشار إليه الطبرى(٤٧) من أن شعوبا عديدة من بينها أبخز وبنجر وبلنجر(٤٨) وآلان(٤٩) قد اتفقوا على غزو بلاد كسرى "وكان طريقهم سهلا ممكنا" هذا ولم يهتم كسرى بغزوات تلك الشعوب فى أول الأمر، مما

---

(45) Ibid, pp. 19-20.
(46) Ibid, pp. 24.

(٤٧) تاريخ الرسل والملوك، حـ٢، ص ١٠٠.

(٤٨) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.
ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص ٢٧٨.

(٤٩) آللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورة للخزر.
ياقوت : معجم البلدان، حـ٧، ص ٣١٦.

جعلهم يتوغلون فى بلاده، وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد وجه إليهم جيشا ألحق بهم الهزيمة وتمكن من أسر عشرة آلاف فأسكنهم أذربيجان وما والاها.

والحقيقة أن الطبرى لم يأت على ذكر الخزر فى روايته السابقة إلا أن ما يؤكد اشتراكهم فى غزوات تلك الشعوب ما ذكره المسعودى[٥٠] من أن بلنجر هى العاصمة الأولى للخزر.

على أن الصراع الدائم بين الفرس والبيزنطيين خاصة حول منطقة لازيقا الاستراتيجية قد أجهد الإمبراطورية البيزنطية، حتى أن الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) عقد مع الفرس معاهدة سلم كان من بنودها ألا يسمح الفرس لقبائل الهون والآلان وغيرهم من التوغل فى الإمبراطورية الرومانية خلال ممرات الخزر[٥١] الأمر الذى يدل على أن الفرس فى ذلك الوقت كانت بيدهم السيطرة على تلك الممرات الخزرية.

على أن الخزر قبل أن يصبحوا دولة ذات شأن كانوا يدينون بالولاء والتبعية لدولة قصيرة العمر عرفت باسم إمبراطورية الأتراك الغربيين كانت هذه الإمبراطورية حلفا من مجموعة من القبائل يتولى أمره حاكم هو الخاقان. وهو اللقب الذى خلعه الخزر على أنفسهم فيما بعد[٥٢].

---

(٥٠) التنبيه والأشراف، ص ٦٣.

(٥١) عبد القادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص٦٤.

(52) Koestler : op. Cit., 24.
Chavannes (E.) : Ducuments Sur Les tou-Kiue (Turc s) Occidentaux (st. Petersburg, 1903).
Barthold & Golden : Art., Khazar, in Ency. Of Islam.
Obolensky (D) : The Byzantine Commonwelth (London, 1971), p. 172.
Wren (M. C.) : The Course of Russian History, (New York, 1958).

ومن المعروف أن كلمة ترك "وردت أول ما وردت في القرن السادس الميلادي على شعب من البدو وأقام دولة بدوية قوية في خلال هذا القرن[٥٣] وقد ظهر الأتراك في التاريخ الفارسي في منتصف القرن السادس الميلادي، حيث انقسموا إلى فرعين غربي وشرقي، وقد امتلك الأتراك الغربيون المناطق الشمالية الممتدة عن منغوليا إلى جبال أورال وبسطوا سيادتهم من جبال الألطاى Altai إلى سيرداريا Sirdaria، وكان أول خاقان لهم تومين Tumen [٥٤].

وكانت هذه الإمبراطورية حلقة الوصل بين بيزنطة والصين[٥٥] حيث وردت كلمة ترك بالصينية (توكيو)[٥٦] وقد تمكن الأتراك الغربيون من إخضاع الآفار[٥٧] (Huann – Juan – Var – Hun)[٥٨].

---

(53) Barthold : Art. Turkes, in Ency. Of Islam, Vol. vi.

(54) Sykes : op. Cit., Vol. I, p. 454.
Chavannes : op. Cit., p. 47.
Grousset : op. Cit., p. 126.
Setton (M.K) : A History of the Grusades, (Philadlphia, 1955), Vol. I, p. 136.
Walsh (W.B) : Russia and the Soviet Union, (New York, 1958), p. 17.

(55) Setton : op. Cit., Vol. I, p. 136.

(56) Barthold : Art. Turks, in Ency. Of Islam.

(٥٧) الآفار : في منتصف القرن السادس الميلادي استطاع الآفار تكوين إمبراطورية ضخمة في شرق أوربا وتمكنوا من مد نشاطهم حتى الألب، وتقدموا إلى الدانوب، وأقاموا في بنونيا Pannonie، كما امتد نفوذهم إلى الدينيبر وإلى بحر البلطيق، ويرى جروسيه : أننا يجب أن نميز بين الآفار الحقيقيون Les Varais Avar وبين من أطلق عليهم خطأ بالآفار، فالآفار الحقيقيون ينحدرون من سلالة المغول، ونتجوا عن تفكك إمبراطورية المغول في القرن الخامس. وقد ظلوا سادة منغوليا خلال هذا القرن قبل أن يدمرهم الترك سنة ٥٥٢م أما الآفار المزيفون Fau x-Avar (Pseudavr)؛ فيتكونون من قبيلتين إحداهما تمثل آفار أوربا وهم من المغول والآخرى يعتقد أنها تنحدر من الترك الشرقيين.

انظر : Grousset : op. Cit., pp. 226-232.

(58) Barthold (W.) & Gloden (P.B.) : Art. Khazar in Ency. Of Islam, Vol. iv.

وعلى اية حال فقد اشترك الخزر مع الأتراك الغربيين في هجومهم على الفرس الساسانيين[٥٩]. خاصة على عهد كسرى أنوشروان حين استعان بهم سيجيور (سنجبوا) خاقان الأتراك الغربيين هم وبعض الأمم القاطنة في القوقاز[٦٠].

وعلى عهد كسرى الفرس هورمزد (٥٧٩ –٥٩٠م) تجدد القتال بين الأتراك الغربيين والفرس وكان هورمزد قد حارب سنجبو خاقان الأتراك الغربيين الذى مات سنة ٥٧٥م[٦١]. وخرج خاقانهم في ذلك الوقت وكان يدعى شابه في هجوم كبير على الأراضى الفارسية وزا من ذلك خروج ملك الخزر في جيش عظيم فخرب ودمر عند باب الأبواب، كما أغار الإمبراطور البيزنطى على الأراضى الفارسية[٦٢].

والواقع أنه كان ثمة تقاربا بين الإمبراطورية البيزنطية والترك بما فيهم الخزر لأن العدو التقليدى لبيزنطة آنذاك هو الفرس في الوقت الذى اصبح الفرس العدو الأول للتوسع التركى ومن هنا كان من الطبيعى أن يتحد الجانبان – البيزنطى والخزرى – ضد العدو المشترك.

ومما يؤكد التعاون بين البيزنطيين والترك تبادل البعثات بينهم بهدف القيام بحملات مشتركة ضد الفرس الساسانيين[٦٣].

---

(59) Chavannes : op. Cit., p. 226.

(٦٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص ١٠٠.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٢٥٧.

Art. Khazar, in Ency. Judaicac, Vol. x, p. 944.

(61) Chavannes : op. Cit., p. 242.

(٦٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٢، ص ١٧٤.

ابن الأثير : الكامل فى تاريخ، حـ١، ص ٢٧٧.

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٢، ص٣٦١.

(٦٣) Barthold, Art. Turkes, in Ency. of Islam, Vol. iv.

زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٤–١٥.

وتشير الروايات إلى أن الخزر قد دأبوا على شن الغارات على بلاد أرمينيا التابعة للفرس. خاصة فى عهد الملك الفارسى هورمزد[٦٤] الأمر الذى سبب قلقا وانزعاجا للفرس ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخضع الخزر بلاد أرمينيا لنفوذهم وعينوا عليها نائبا لخاقان الخزر فى ذلك الوقت يدعى يزيد بلاش[٦٥].

ولكن إمبراطورية الأتراك الغربيين لم تدم طويلا كما سبق أن ذكرنا، إذ استمرت فقط قرن من الزمان وجاءت نهايتها على يد الصينيين فى سنة ٦٥٩م[٦٦]، والحقيقة أن الإمبراطورية التركية برغم قصر عمرها كانت من عوامل المدنية والاستقرار، والشعوب التركية أمثال الخزر استطاعوا أن يتلاءموا معها ويتقلبوا التقدم الحضارى[٦٧] وسنرى فى علاقة الإمبراطورية البيزنطية بالخزر كيف كانوا تحت سيادة الأتراك الغربيين اسما وكانوا هم القوة الفعالة.

ونطالع الخزر عند المؤرخين السريان الذين يشيرون برواية قوامها أن إبان حكم الإمبراطور البيزنطى موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م) ثلاثة إخوة تقدموا من داخل سكيثيا Scythia إلى ناحية الغرب وكانوا على رأس ثلاثين ألف رجل تقريبا وعندما وصلوا إلى تخوم بيزنطة عبر أحدهم وهو بولجاريورس Bulgarios (ذكره ابن العبرى Bulgaris) نهر الدون واستقر داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية، أما الأخوان الآخران فقد احتلا أراضى شعب الآلان الذى كان يطلق عليه بارزاليا Barsalia وهؤلاء جميعا اتخذوا اسم الخزر من اسم أكبر هؤلاء الإخوة وهو خزريج

---

(64) Notices et Extraits Des manscrits De La Bibliotheque Du Roi, T.2, p. 348.

(٦٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، حـ١، ص١٨٧.

(66) Barthold & Golden : Art. Khazar, in Ency. of Islam, Vol. iv.
Pritsak : op. Cit., Vol. 7.

(67) Runciman (S) : A history of the Crusades, (Cambridge, 1954), Vol. I, p.59.

Khazarig[68]. ويورد يوحنا الإفسوسى Johon of Ephesus (ت٥٨٦م) نفس هذه الرواية وإن صحت فهو مرجعها حيث أشار حوالى سنة ٥٨٥م إلى اسم بلغاريوز Bulgarioz وخزريج Khazerig اللذين انحدرا من صلبهما البلغار والخزر على أنهما أخوان[٦٩]. والحقيقة أن هذه الرواية أشارت إلى قرابة شعبى الخزر والبلغار والتحالف الوثيق بينهما.

ويذكر المؤرخ اليونانى ثيوفيلاكت Theophylact (ت٦٢٠م) أن سفارة من الأتراك الغربيين قد وصلت إلى الإمبراطور موريس فى سنة ٥٩٨م حيث يصف هذا المؤرخ كيف أنه فى السنوات الماضية أطاح الأتراك بالهون البيض (Hephthalites) والآفار والأيجوريين Uigurs الذين كانوا يقطنون تيل Til[٧٠]، والذى أطلق عليه الأتراك النهر الأسود[٧١].

---

(68) Michel Le Syrien : Chronique, (Paris, 1904), T. II, p. 364.
Bar Hebraus : The Chronography, (London, 1932), p. 32.

(69) Barthold : Art., Bulghar, in Ency. of Islam, Vol. i.

(٧٠) تيل : أو أتيل عاصمة الخزر وكانت كائنة على بعد ٨ أميال من استراخان الحالية وعلى يمين بانكوف Bankof على نهر الفولجا وهذا النهر كان يطلق عليه أيضا اتل أو اتيل ومعنى هذه الكلمة فى لغة القوط (الأب) ومعناها فى لغة Turanian (النهر) ولا نعرف عن هذين الاسمين جاء اسم هذا النهر.

انظر :

Rosenthal, Art., Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv The Time Atlas of World History, p.108.

وقد وصفت كثير من المصادر الإسلامية مدينة اتل.

انظر : الإصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٢٩.

ياقوت : معجم البلدان، حـ١، ص ١٠٣.

(71) Dunlop : op. Cit., p. 5.
Chavannes : op. Cit., pp. 246-8.

ومن المعروف أن الخزر أطلق عليهم الهون البيض[٧٢]. مما يولد اتجاها إلى اعتبار أن الهون البيض الذين ورد ذكرهم فى هذه الرواية هم الخزر، فضلا عن ذلك أن الخزر كانت عاصمتهم اتل والتى سوف يقابلها المسلمون فى فتوحاتهم.

ويمضى ثيوفيلاكت فى روايته ويذكر أنه فى وقت السفارة التركية سنة ٥٩٨م حدثت هجرة جديدة من أواسط آسيا إلى أوربا، كان قوام هذه الهجرة قبائل التارنياخ Tarniakh والكوتزاجرز Kotzagers والزبندر Zabender [٧٣] وبمقارنة هذا الرواية اليونانية وبما ذكرته المصادر السريانية نخلص إلى أن هجرة القبائل التى ذكرها ثيوفيلاكت لابد وأن تكون نفس الهجرة التى ذكرتها المصادر السريانية عن الإخوة الثلاثة الذين تقدموا من داخل سكثيا واستقروا داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية إبان عهد الإمبراطور موريس والذين اتخذوا فى النهاية اسم الخزر من أكبر هؤلاء الإخوة خزريج الذى هو عند ثيوفيلاكت فى الرواية اليونانية كوتزاجرز، كما أن هناك اتجاها إلى أن المدينة الخزرية سمندر[٧٤] اقتبست اسمها وأصلها من الزبندر.

على أن المؤرخ المحدث دنلوب[٧٥] يقرر بناء على الروايات السابقة أن الخزر الذين كان لهم شأن فيما بعد هم قوم من الأتراك قدموا من أواسط آسيا إلى أوربا خلال حكم الإمبراطور موريس – أى فى القرن السادس الميلادى.

والحقيقة أن المادة المعروفة عن هذا الموضوع تبرز أن الخزر كانوا يعيشون فى ضواحى أوربا قبيل القرن السادس وعرفوا بمسميات مختلفة، ولم يستقر اسمهم

---

(72) Cole : op. Cit., Vol.xi.

(73) Dunlop : op. Cit., p.5.

(٧٤) سمندر : للخزر مدينة تسمى سمندر فيما بين باب الأبواب، انظر ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٩٣، وكانت سمندر دار مملكة الخزر، انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٥، ص١٣٠.

(75) The Hist. Of the Jewish Khazars, p. 6.

عند المؤرخين إلا بعد توحدهم واستقرارهم. ومن المحتمل أن هذه الأسماء كانت لقبائل وشعوب استوعبتها مملكة الخزر بعد قيامها.

ويمكن اعتبار القرن السابع هو نقطة البداية الحقيقية للخزر لكي يقوموا بممارسة دورهم على مسرح الأحداث، حيث استقلوا استقلالا تاما بعد أن سقطت إمبراطورية الأتراك الغربيين، كما بدأت علاقتهم بشكل كبير مع البيزنطيين والمسلمين.

وسوف تستفيد الإمبراطورية البيزنطية من الخزر في تلك المناطق التي عاشوا فيها. حيث كانوا يشكلون قوة ودولة منظمة تمارس نوعا من السيادة على الشعوب البربرية المحيطة بها، وقد امتدت دولة الخزر من القوقاز ناحية الشمال إلى الفولجا وبعيدا إلى مصبات هذا النهر، ونهر الدون، ووصل امتدادها أيضا ناحية الغرب على شواطىء الدنيبير[٧٦] واستقرار الخزر على الفولجا جعلهم لثلاث قرون المفتاح لسياسات بيزنطة تجاه الإستبس، مما كان على بيزنطة أن تحافظ على وجود علاقات طيبة معهم[٧٧].

ولقد كان الخزر يتحكمون ويجمعون الجزية من العديد من الأمم والقبائل التي تعيش في الأقاليم الممتدة بين القوقاز وجبال أورال ومدينة كييف وسهول أوكرانيا. ففي المراسلات التي دارت بين الخزر والأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١١-٩٦١م/ ٣٠٠-٣٥٠هـ) أجاب الملك يوسف ملك الخزر في رده على رسالة حسداي عن حجم مملكة الخزر وطبيعة أرضها وتحدث عن القبائل والأقطار التي كانت تدفع الجزية[٧٨]. ومما يذكر أن يوسف كان يجمع الجزية من

---

(76) Bury (J. B.) : A History of the Eastern Roman Empire (London, 1912), p. 404.
Rosenthal : op. Cit., in Jewish Ency. vol. iv., p. 1.

(77) Miller (D. A.) : The Byzantin tradition ., p.12.

(78) The Answer of Joseph king of the Togami to Chisdai., CF. : op. Cit., p. 34.

سبع وثلاثين أمة. على أن دنلوب(٧٩) يعتبر ذلك مغالاة ويخلص إلى أن تسع أمم فقط كانت على ما يبدو قبائل تعيش في قلب الخزر، أما الثماني والعشرون الأخرى فتنطبق على قول ابن فضلان(٨٠) بأنه كان لملك الخزر خمس وعشرون زوجة كل منها ابنة ملك من الخاضعين.

والحقيقة أن الملك يوسف في رسالته لحسداى أعطى بيانا شاملا عن مملكته، منها أن البلاد التى كانت على طول نهر اتل (الفولجا) في رحلة تمتد إلى أربعة أشهر إلى الشرق كانت تدفع الجزية للخزر، وهذه البلاد والممالك هي Bulgar, Burtas, Suver, Arissu, Ventit, Tzarmis, Syever, Slavlyun ومن هنا يمتد خط التخوم Buarasm حتى Jord Jan وجميع السكان القاطنين على ساحل البحر لمسافة شهر كانت أيضا تدفع الجزية للخزر وإلى الجنوب على شاطئ البحر كانت Semender , Bak-Tadiu وبوابات باب الأبواب ومن هناك يمتد خط التخوم إلى جبال Bak-Bgola, Azur, Sridi, Kiton, Zunikh, Kladusser وهذه كلها كانت تقع على قمة مرتفعة جدا، ومن Alan لغاية تخوم Gebul, Taket, Kessa, Kalkial وعلى امتداد طوال شاطئ البحر وإلى الغرب من Serkel كانت هذه التخوم Lambot, Aluss, Sugdai, Kertz, Samkrtz, Budik, Mamkup, Hut, Alubika, Bartinit, Grusin, Aloma وكل هذه الأماكن السابقة كانت تقع على شاطئ القسطنطينية (البحر السود). ثم يمتد خط التخوم إلى الشمال معترضا أرض Basar والتى تقع على نهر Vaghez وفي سهول هذا النهر كانت توجد قبائل عديدة حتى حدود Gagries وتقوم بدفع الجزية للخزر(٨١).

---

(79) op. Cit., op. 141.

(٨٠) رسالة بن فضلان، ص ١٧١ (بيروت، ١٩٨٧) حققها وعلق عليها وقدم لها د. سامى الدهان.

(81) Rosenthal : Art. Chazar, in Jewish Ency., Vol. 4, p. 5.

وكانت مملكة الخزر تهيمن على العديد من الأمم والقبائل والشعوب البربرية الصاخبة فى منطقة القوقاز، منها البلغار والمجيار (الهنغاريون) (Magyars Hungarians) كذلك سيطر الخزر على المستوطنات القوطية والإغريقية فى القرم Grimea والقبائل الصقلبية فى الغابات الشمالية الغربية[٨٢].

فالبلغار وقعوا تحت سيطرة الخزر سنة ٦٧٩م حين مدوا سيادتهم نحو الغرب إلى المنطقة الواقعة بين الدون والدنيبر حتى رأس مياة الدونيتز Donetez فى إقليم ليبديا Lebedia [٨٣] وتفصيل وقوع البغار تحت سيطرة الخزر طبقا لما أورده المؤرخ اليونانى ثيوفانيس من أن البلغار (أونوجور Onogundurs وهو اسم قديم للبلغار) نشأوا أقوياء فى إقليم Kuban. وعند موت زعيمهم كوبرات Kubrat سنة ٦٥٠م ترك ميراثه لخمسة أولاد وأوصاهم بالتمسك بالوحدة والحفاظ على وحدة أمتهم، إلا أنهم لم يعملوا بهذه النصيحة، فقد قام الابن الأكبر باتباز Batbais بالبقاء فى ميراثه وترك الآخرون أماكنهم حيث عبر الثانى وهو كوتراجوس Kotragus الدون واستقر فى مواجهة باتباز وشغل الثالث وهو أسباروخ Asparukh الأراضى الواقعة غرب الدنيبر، وذهب الرابع والخامس بعيدا خلف الدانوب[٨٤]. وتقدم الخزر واستولوا على جميع الأقاليم حتى البحر الأسود، وفى هذا الصدد فقد وصفوا

---

(82) Koestler : op. Cit., p. 19.
Bury : op. Cit., p. 404.
Walsh op. Cit., p. 17.
Sumner (B. H.) : Survey of Russian History., (London, 1944), p. 35.

(83) Rosenthal : Art. Chazar in Jewish Ency., Vol. 4, p. 2.
Obolensky : op. Cit., p. 37.
Sinor : op. Cit., Vol. v. p. 788.

(84) Dunlop : op. Cit., p. 41.
Runciman (S.) : A history of the First Bulgarion Empier (London, 1930), pp. 16019.
Brehier (L.) : Vie et Mort de Byzance. (Paris, 1947), p. 64.

"بالأمة العظيمة من برزيليا Berzilia إلى سارماتيا Sarmatia الأدنى"(٨٥)وخضع جانب كبير من البلغار للخزر نظرا لتفككهم ومغادرة قبائل بلغارية عديدة مواطنها الأولى، على أن أكبر الجموع التى ارتحلت هى التى كانت بزعامة أوسباروخ (أكبر هؤلاء الاخوة البلغار، حيث ارتحلت إلى الغرب، وفى العقد السابع ومن القرن السابع ظهرت هذه الجموع عند مصب نهر الدانوب(٨٦) واستقر الوضع عند مطلع سنة ٦٧٩م، عندما ارتحل أسباروخ واستقر فى بلغاريا الحالية(٨٧) الحقيقة أن وقوع البغار تحت سيطرة الخزر فى ذلك الوقت لم يمنعهم فيما بعد من أن يلعبوا دورا عظيما فى عصير العلاقات البيزنطية الخزرية كما سنرى فيما بعد.

وبالرجوع إلى المراسلات التى دارت فى القرن العاشر الميلادى بين حسداى ويوسف ملك الخزر نجد أن تقدم الخزر إلى مناطق البحر الأسود والقرم قد وضح فى رد الملك يوسف حيث أشار قائلا: "كان آباؤنا قلة فى العدد، لكن الإله منحهم القوة والحصانة حينما كانوا يظهرون شجاعة فى الحروب ضد العديد من الأمم القوية مثل شعب الونندر Wnntr الذى طردهم من أرضهم وتعقبوهم بالقتال حتى النهر العظيم دونا Duna (الدانوب) حيث استقروا بالقرب من القسطنطينية، واستولى الخزر على أقاليمهم"(٨٨).

---

(85) Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, pp. 944-5.
Dunlop : op. Cit., p. 41-42.

(86) Ostrogrsky (G.) : History of the Byzantine State. (Oxford, 1957), p. 23.
Miller : op. Cit., p. 12.
السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص ١٥٢.
حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص٩٢.

(87) Hudud Al Alam. (The Region of World), Apersian geography : p. 163.
Bernard : op. Cit., p. 37.
Barthold & Golden : op. Cit, Vol. iv, p. 1173.

(88) The Answer of Joseph., C. F. Adler : op. Cit., p. 34. =

وقد جاء ذكر شعب الوننـدر Vnndr فـى المخطوطـة الفارسـية "حـدود العالم" حيث كان يعيش فى المنطقة الواقعة شمال الخزر، ووصف بالضعف والجبن والفقر وانعدام الثروات[٨٩] كما جاء ذكر الوننـدر عند ابن الأثير[٩٠] وفـى حـوادث سنة ٧٢٣م (١٠٤هـ) باسـم الوبنـدر. علـى أية حـال فإن الـذى يهمنا أن بعض المؤرخين يميلون إلى اعتبار شعب الوننـدر هو نفسه شعب البلغار، إذ جاء ذكره بهذا الشكل فـى المصادر العبرية ثم تحرف إلى الاسم القديم للبلغار وهـو أنوجـور Onogundur. ويرى بعض المؤرخين استنادا لما جاء فى المخطوطة الفارسية "حـدود العالم" من أن شعب الوننـدر هم بقية من البلغار[٩١]. والحقيقة أن العلاقة بين البلغار والخزر علاقة وثيقـة حيـث أنـه مـن الثـابت أنـهم وفـدوا علـى حـوض الفولجـا قبـل أن تتكـون إمبراطورية الأتراك المعروفة باسم (توكيو)[٩٢].

ولقد اعتـاد البيزنطيون علـى أن يستميلوا إلى جانبـهم شـعوبا ليوقفـوا مـن زحـف شـعوب أخـرى علـى أراضيـهم، وقـد ذكـر المـؤرخ والإمـبراطور البـيزنطى قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس[٩٣] (٩١٣-٩٥٩م) فى كتابه الذى وضعه عـن إدارة الإمبراطورية البيزنطية أنه يمكن لبلغاريا السوداء أن تهاجم الخزر لكبح جماحهم.

= Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 945.
Dunlop : op. Cit., p. 42.

(89) Hudud Al Alam: p. 162

(٩٠) الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص ١٨٧.

(91) Dunlop : op. Cit., p. 43.
Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 945.

(٩٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ٢٦.
ترجمة : أحمد السعيد سليمان، راجعه إبراهيم صبرى.

(93) De Administrando Imperio, (Bonne, 1811), p. 81, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantine and trans, by Jenkins : p. 65.
والترجمة العربية، قسطنطين السابع بورفيرو جينيتوس إدارة الإمبراطوريـة البيزنطيـة، ص ٦٥ – ترجمة : محمود سعيد عمران. =

ومن العناصر التركية التى كان للخزر هيمنة عليهم الأتراك الغز الذين كانوا يؤدون الجزية للخزر وكانوا قريبى الشبه بهم[٩٤]، وإن كان قسطنطين السابع عدهم من الشعوب التى يمكن أن تصد وتهاجم الخزر إن لزم الأمر وذلك لمجاورة أراضيهم أراضى الخزر وكل ذلك أملا فى الحفاظ على أمن الإمبراطورية[٩٥].

وهناك عنصر تركى آخر يدين بالتبعية للخزر هم البرطاس وهم أمة تعيش ملاصقة للخزر ويعيشون فى وادى اتل (الفولجا) فى بيوت مصنوعة من الخشب[٩٦] "والبرطاس أمة من الترك حاضرة داخلة فى جملة ممالك الخزر وهم كائنون على نهر معروف بهم اسمه برطاس"[٩٧].

وأيضا من الشعوب التى كانت تسكن جبل القبق[٩٨] شعب مملكة السرير وهى مملكة واسعة بين اللان وباب الأبواب[٩٩] ويشير المسعودى[١٠٠] إلى أن ملكها

= Runciman (S) : Byzantine Civilization, (London, 1933), p. 159.

(٩٤) ابن فضلان : رسالة بين فضلان، ص ٩١-١٠٦.

Koestler : op. Cit., p. 37.

(95) Constantine Porphyrogentius : op. Cit., p. 80 in Corpus Scriptrum Historiae Byzantinae and trans. By Jenkins: pp. 63-65.

(٩٦) الإصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٣٠.

القزوينى / آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧٩.

Macarth (C.A) : The Magyars in The Ninth century (Cambridge, 1930), p. 25.

زبيدة عطا : المرجع السابق، ص٧-٨.

(٩٧) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص ١٣٦.

Hudud Al Alam : p. 163.
Macarthy : op. Cit., p. 25.

(٩٨) قبق : جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان وهو آخر حدود أرمينية، انظر ياقوت : معجم البلدان، جـ٧، ص ٢٧.

(٩٩) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص ٨٠.

(١٠٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص ١٤٤-١٤٥.

كان يدعى فيلان شاه ويدين بالصرانية وقد كان بينهم وبين الخزر علاقات عدائية حيث إن "ملكهم كان يغير على الخزر مستظهرا عليهم. لأنهم فى سهل وهو فى جبل". وهنا نلاحظ أن المصادر الإسلامية الأخرى لم تشر إلى غاراتهم على الخزر على الرغم من أنها أوردت أوصافا لهذا الشعب(١٠١) على أننا نستطيع أن نستنتج من صمت المصادر التاريخية أن هذا الشعب خضع للخزر خصوصا إذا ما قورن بشعوب أقوى منهم قد دانت بالتبعية للخزر.

وعلى الرغم من أن شعب مملكة السرير قد ورد ذكره فى المخطوطة الفارسية "حدود العالم" ووصف بالغنى وسعة العيش(١٠٢) إلا أن هذا الشعب لم يرد اسمه فى المصادر البيزنطية، ولم تذكر تلك المصادر شيئا بشأنه(١٠٣).

ومن الشعوب القوقازية التى لعبت دورا فى مصير العلاقات البيزنطية الخزرية شعب مملكة الآلان (اللان) الذين كانوا يدينون بالمسيحية، وملكهم يدعى كركنداج، أما عاصمة بلادهم فكانت تسمى مغص(١٠٤). وكان ملكهم فى وقت ما قبل القرن العاشر قد اعتنق المسيحية عن طريق القسطنطينية، وعلى الرغم من بقاء عدد كبير من شعبه على الوثنية فقد منحه الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت لقب رفيع فى بيزنطة وهو Exusiastes(١٠٥) وقد جاء ذكر هذا الشعب فى المخطوطة الفارسية بصورة تفصيلية بعض الشيء عن موقعه وسكانه ومدنه(١٠٦) وعلى الرغم من السيادة

---

(١٠١) الإصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٣٠

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٢٥٤

(102) Hudud Al Alam : p. 161.

(03) Bury : op. Cit., p. 409.

(١٠٤) المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر. جـ١. ص ١٤٥

(105) Bury op. Cit., p. 409.

(106) Hudud Al Alam p. 161

الخزرية على هذا الشعب فى منطقة القوقاز إلا أنه كان من الشعوب التى يستعيلها البيزنطيون لمهاجمة أرض الخزر إذا تمردوا على الإمبراطورية[١٠٧].

ومن الشعوب التي خضعت للخزر وتعاهدت معهم المجر، وكان الخزر قد نصبوا عليهم ملكا أيضا من الخزر الذى شكل السلالة الملكية للمجر، وكان المجر يجبون الجزية من الصقالبة والفنيين لحساب الخزر[١٠٨] حيث امتد حكم الخزر ناحية الغرب بعيدا خلف القرم والقوقاز والفولجا، وهناك تقارير تفيد فى تاريخ غير محدد أن قبيلة البوليانز[١٠٩] Polians كانت تدفع الجزية للخزر وهى عبارة عن سيف عن كل بيت، وأيضا قبائل السفيريانز Severians الصقلبية والفياتشيانز[١١٠] Viatchians، ثم استبدلت السيوف فيما بعدبضريبة نقدية فالراد يمشيانز Radimichians وهم قبائل صقلبية أدوا للخزر درهم عن كل فرد[١١١] وكيف نفسها كانت مستعمرة من الخزر لبعض الوقت قبيل سنة ٨٦٢م[١١٢].

---

(١٠٧) بيرَ : الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٤.

ترجمة : حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد.

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص ٢٩١.

(108) Koestler : op. Cit., p. 98.
Sinor : op. Cit., Vol. v, p. 688.
Florinsky (M. T.) : Russia (New York, 1953), Vol. I, p. 5.

(١٠٩) البوليانز : قبيلة صقلبية على نهر الدنيبير بالقرب من وسط كييف الحالة، انظر:

Mackenzie & Curran : A History of Russia and the Soviet Union (New York, 1982), p. 15.

(١١٠) الفيانشيانز : قبيلة صقلبية كانت تعيش فى الإقليم الواقع جنوب موسكو الحالية. انظر:

Koestler : op. Cit., p. 118.

(111) Art. Khazar., in Ency. Judaica., Vol. x, p. 948.
Mackenzie & Curran : op. Cit., p. 18.
Brutzkus (J.) : The Khazar Origin of Ancient Kiev., in Slavonic and East European, Review (1944), Vol 22, p. 110.
Wren : op. Cit., p. 46.

(112) Art. Khazar., in Ency. Judaica., Vol. x, p. 948.
Brutzkus (J.) : op. Cit., pp. 108-24.

وفى القوقاز خضعت شعوب أخرى تحت سيادة الخزر مثل هون ورشان (ورثان)، وهم عناصر ترجع إلى أصل هونى فى الدربند، ويعتقد أنهم شكلوا جزءا من اتحاد إمبراطورية الخزر، وقد كان أميرهم Alp Liuture ملازما لخاقان الخزر[١١٣].

ومن الشعوب التى كانت تعيش تحت سيادة الخزر البجناك[١١٤] الذين كانوا يعيشون بين نهرى الفولجا والأورال، وكان الخزر يغيرون عليهم كل عام لجباية الجزية منهم[١١٥].

ولقد عرف البجناك فى المصادر البيزنطية باسم باتزيناك Patzinak أو باتزيناكوى Patzinakoi وفى المصادر اللاتينية باسم بيسينى Bisseni، وفى المصادر الهنغارية باسم بزينيو Besenyo، وقد شغل هذا الشعب التركى السهول الواقعة شمال البحر الأسود[١١٦]. وكثير ما أوقف الخزر البجناك عند حدهم[١١٧] الأمر الذى كان يعد فى صالح الإمبراطورية البيزنطية.

---

(113) Art., Khazar., in Ency. Judaica., Vol. x, p. 944.
Barthold & Golden : op. Cit., Vol. iv., p. 1173.

(١١٤) البجناك : قبيلة من الأتراك وأصلهم من تركستان الصينية وكانت مساكنهم فى الأورال بجوار الخزر، لمزيد من التفاصيل انظر:

Constantine Porphyrogentius: op. Cit., pp. 50-58. Trans by Budge.
Hudud Al Alam : p. 160.

القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٠.

(١١٥) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١٤٣.

(116) Art. Pecheneg, in Ency. Britt., Vol. 7, p. 826.
Buss : Art Pechengens, in Lexicon universal Ency. (New York, 1983), vol. 15.

(١١٧) بيتز : الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٣.

وهنا نود أن نعرض بعض ما أورده المؤرخون بشأن الخزر وأصلهم. وما التبس عليهم. فقد ذكر المسعودى[١١٨] "أن الخزر يدعون بالتركية سبير"، وما يلفت النظر هنا أن هناك شعب يدعى سبير Sabir كان معاصرا للخزر وهو أحد الشعوب التى كانت تسكن وسط آسيا واضطروا للهجرة من مواطنهم بسبب الهزيمة التى لحقت بهم على ايدى الآفار وهاجروا إلى سهول كوزاخ Kozakh حتى استقروا فى سهول شمال القوقاز[١١٩]. ولقد ذكر المؤرخ بروكوبيوس Procopius على عهده فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى أن الآلان والأبخاز الذين كانوا يدينون بالمسيحية ويصادقون الرومان عاشوا فى الأراضى الواقعة شمال القوقاز مع الجراكسة Zichs (Circassians) وخلف هؤلاء كان يعيش سبير الهون[٢٢٠]. كما أشار إليهم جورداناس Jordanas على أنهم أحد أعظم فرعين من الهون[٢٢١] فهل تعتبر هؤلاء القوم هم الخزر؟.

لقد كان هؤلاء الهون السابيريه يسيطرون على أبواب قزوين التى كان أى مغير شمالى يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة، لذا نجد الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) قد عمل مرارا على السيطرة على لازيقا وعلى كثير من القبائل القوقازية الأخرى خاصة قبائل الأباجية Abasgi والهون السابيرية[٢٢٢]. ولقد انقطع ذكر هؤلاء السابيرية بقيام إمبراطورية الأتراك، ويبدوا أنهم كانوا خاضعين للأتراك أو الخزر، عندما قامت مملكة الخزر واتسع نفوذها استوعبت هذا الشعب.

---

(١١٨) التنبيه والأشراف، ص ٨٣.

Hudud Al Alam : p. 455.

(119) Barthold & Golden : op. Cit., Vol. iv, p1174.

(220) Dunlop : op. Cit., p. 26.

(221) Art., Khazar, in Ency. Judaica, Judaica, Vol. x, p. 944.

(٢٢٢) موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٠٥-٢٠٦.

ترجمة : عبد العزيز جاويد، مراجعة : الباز العريني.

وقد خلط بعض المؤرخين الخزر بشعوب أخرى، فالقلقشندى[٢٢٣] على سبيل المثال يقول " أن الخزر هم التركمان"[٢٢٤] وهم نوع من الترك"، مما دفعنا للاطلاع على كل ما يخص التركمان فى موسوعته، ولم نجد صلة بين التركمان والخزر. والحقيقة أن ما ذكره القلقشندى بعيدا عن الصحة، فالخزر والتركمان ترك ولكن ليس الترك تركمان وخزر.

كما يذكر ابن العبرى[٢٢٥] "أن الكرج[٢٢٦] هم الخزر" والحقيقة أن هذا الرأى بعيد عن الصحة تماما وذلك أن الكرج شعب مستقل من الشعوب التى كانت تسكن جبال القبق.

أما الدمشقى[٢٢٧] فقد وضع عبارة نحس منها بأنه يعى ما يؤرخه ويكتبه، ولكن بعد التثبت والتحقق نجد غير ذلك تماما فمثلا يقول: "إن ابن الأثير قال أن الخزر هم الكرج وليس بموافق بل هم الأرمن يدينون بالنصرانية" أراد أن يصحح ما التبس على غيره فوقع فى مثله. والحقيقة أنه كثيرا ما تضطرب أقوال القدماء من مؤرخى وكتاب التاريخ حول هذه الشعوب وذلك لاعتبارين هامين أولهما، أنه ربما

---

(٢٢٣) صبح الأعشى فى صناعة الانشا، حـ١، ص ٣٦٧.

(٢٢٤) التركمان : أصلهم قبيلة من الأتراك، عاشوا فى المنطقة الواقعة بين بحر الخزر ونهر جيجون، ثم انتقلت جموع منهم غربا ليستقروا شرقى آسيا فى قونية وقيصرية وسافوستا Savosta بالإضافة إلى شمال بلاد الشام وهم من العناصر البعيدة عن العنصر السامى. انظر: محمود الحويرى: الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، ص ٢٦.

(٢٢٥) تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠.

(٢٢٦) الكرج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون جبال القبق، انظر : ياقوت، معجم البلدان، حـ٧، ص ٢٣٠.

(٢٢٧) نخبه الدهر فى عجائب البر والبحر: ص٢٦٣.

مرجع ذلك إلى بعدهم عن تلك الديار ثانيهما، قرب هذه الشعوب بعضها البعض ومعاصرتها لبعضها البعض أيضا، فى الوقت الذى يغلب على هذه الشعوب التنقل والترحال، الأمر الذى يشكل صعوبة فى معرفة وتحديد أماكنها الأصلية.

ومما يجدر ذكره أن مملكة الخزر بلغت حدا من الاتساع والنفوذ حتى أنه أطلق على بحر قزوين البحر الخزرى(٢٢٨).

وهكذا نجح الخزر فى الانتشار والتوسع حول منطقة البحر الأسود وبحر قزوين والقوقاز ليكونوا إمبراطورية مترامية الأطراف تقع بين الدولة الإسلامية شرقا والإمبراطورية البيزنطية غربا، وكان هذا الموقع الاستراتيجى المتميز قد سمح لمملكة الخزر أن تلعب دورا هاما على مسرح الأحداث فى العصور الوسطى، وسنشاهد ما كان لها من علاقات مع البيزنطيين والمسلمين فى خلال مائتى السنة التالية، هذه الحقبة التى كانت تتراوح فيها بين النزاع المسلح ومعاهدات الصداقة.

---

(228) Allen (W. D.) : A History of the Georgian People (London, 1939), Vol. I, p.10.
Sykes : op. cit., Vol. I, p. 26.
Art., Bahr Al Khazar, in Ency. of Islam, Vol. I, p.931.

الفصل الثانى

مملكة الخزر

وعلاقتها بالبيزنطيين فى القرنين

السابع والثامن الميلادى

- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م).
- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥، ٧٠٥ - ٧١١).
- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١م).
- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢م).

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل:

رأينا فى الفصل السابق كيف كانت علاقة الخزر المبكرة بالبيزنطيين، على الرغم من أن تلك العلاقات لم تأت بصورة صريحة فى المصادر البيزنطية، والواقع أن البداية الحقيقية لتلك العلاقات كانت على عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) وذلك أن المصادر البيزنطية والأرمينية تحدثت عن بداية تلك العلاقات فى عهد هذا الإمبراطور بإفاضة.

فقد تولى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية فى الخامس من أكتوبر سنة ٦١٠م، بموافقة الشعب والسناتو، وتم تتويجه فى كنيسة القديس استيفانوس St. Stephanos[1] وكانت هناك تركة مثقلة بالمشاكل تنتظر حلولا حاسمة، فقد تسلم هرقل الإمبراطورية وهى فى حالة شديدة من الفوضى والاضطراب، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية والمالية كما أصاب الشلل الإدارة الحكومية. أما النظام الحربى الذى كانت تتبعه بيزنطة والقائم على الاعتماد على المأجورين أضحى عديم الفائدة، فضلا عن ذلك، فإن الخزانة العامة قد خلت من الأموال ولم يعد فى استطاعة الدولة أن تتخذ جنودها من مصادرها القديمة، فالأقاليم الكبيرة الواقعة فى وسط الإمبراطورية تعرضت لغارات العدو، إذ أخذ الصقالبة والآفار يستقرون فى شبه جزيرة البلقان، بينما صار الفرس يوطدون مراكزهم فى قلب آسيا الصغرى. ولم يكن ثمة من وسيلة لإنقاذ الإمبراطورية إلا إذا جرى فى داخلها حركة تجديدية ناشطة[2].

---

(1) Theophanis : Chronographia, in Corpus Scriptorm Historiae Byzantinae, Vol. I, p. 461.

Cedrenus (G) : Historiarum Compendium, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae; 1811), Vol. I, p. 713.

(2) السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص ١١٦.

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٠.

وكانت المشكلة الرئيسية التى واجهت الإمبراطور هى الفرس العدو التقليدى للإمبراطورية البيزنطية الذين أخذوا فى التوسع على حساب بيزنطة التى كانت فى حالة تدهور وانحلال. حيث استولى هؤلاء على أنطاكية سنة ٦١١م وعلى دمشق سنة ٦١٣م، وأخذت الجيوش الفارسية تتقدم شمالا الى قليقية فاستولت على حصن طرسوس وطردوا البيزنطيين من أرمينيا، كما تمكن الفرس من الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤ وأسروا زكريا بطريرك بيت المقدس، وكان لذلك رد فعل خطير فى بيزنطة، لا سيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبوت) قد حمله الفرس معهم ونقلوه إلى عاصمتهم طيسفون (المدائن) Ctesiphon، كما لم تنجو مصر التى كانت المركز الرئيسى الذى يمد الإمبراطورية بالقمح حينذاك، إذ سقطت فى أيديهم سنة ٦١٦م[٣].

والحقيقة أن ضياع الصليب المقدس نشر الذعر والغضب واليأس فى القسطنطينية بل إن البيزنطيين تخيلوا أن يوم القيامة على وشك الحلول، ويقال أن كسرى رغبة منه فى إذلال هرقل وجه رسالة إليه وقد جاء فيها: "من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى هرقل عبده الفاجر عديم الإحساس، ألم أقض على الإغريق؟ إنك تقول إنك تثق فى إلهك، فلماذا إذن لم يخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا؟ على أننى سأغفر لك جميع ذنوبك إذا قدمت إلى ومعك زوجتك وأطفالك وسأمنحك الأراضى والكروم وعروش الزيتون وسأنظر إليك نظرة رحيمة، لا تغش نفسك بأملك الخائب فى ذلك المسيح الذى لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه"[٤]. والحقيقة أن ضياع الصليب المقدس والألفاظ المفزعة المتهجمة التى

(3) Ostrogorsky Hist Of the Byzantine state.. p. 85
Diehl (C): Histoire De l'Empire Byzantine (Paris, 1920) p. 49
Cambridge History of Iran, (Cambridge, 1983), Vol. 3,p.523.

(4) Oman (C. W.) The Byzantine Empire (New York, 1892), pp. 132-3

وجهها كسرى لهرقل، كانت بالنسبة للبيزنطيين بمثابة كارثة دينية أكبر منها حربية والصليب المقدس كان أثمن المقدسات الدينية عند المسيحيين.

ويبدو أن المسألة لم تكن مسألة أملاك ضائعة من الإمبراطورية فحسب بل انها كانت بالفعل مسألة دينية حيث قضى هرقل الذى لم يستسلم لتلك الظروف اثنتى عشر سنة فى تنظيم الإدارة الحكومية ومراقبة حركات أعدائه. وفى هذه الأثناء حصل على الأموال اللازمة من الكنيسة التى قدمت كنوزها ونفائسها من ذهب وفضة لتصهر وتسبك نقودا لمواجهة نفقات الحرب وعندئذ تيسر للإمبراطور هرقل استئجار الجند اللازمين لحربه مع الفرس[٥]. ولا شك أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بدور كبير فى تلك الفترة إذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة التى خوت خزائنها من المال وكانت تلك من أكبر المشاكل التى واجهت هرقل فى إصلاحاته.

ولكى يأمن هرقل ظهره من جانب الآفار ابرم معهم معاهدة قبل شروعه فى قتال الفرس واشترى مسالمتهم مقابل مقدار كبير من المال وأن يقوم الإمبراطور هرقل بإرسال رهائن عنده لهم[٦]. وكانت خطة هرقل تهدف إلى استعادة المناطق التى اغتصبها الفرس، فقام بما لا يقل عن ست حملات فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٢٢م و٦٢٨م وكان هرقل قد غادر العاصمة فى ٣ أبريل سنة ٦٢٢م بعد أن أدى القداس وعبر البوسفور إلى آسيا الصغرى، ثم شق طريقه إلى أرمينيا، حيث نشبت

= والترجمة العربية : أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٣.
ترجمة : مصطفى طه بدر.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، حـ١، ص١١١.

(6) Vasiliev (A. A.) : A History of the Byzantine Empire (Madison, 1958), Vol. I, p. 197.
Vasiliev (A. A.) : Historie de L'Empire Byzantine (Paris, 1932), Tome. I, p. 260.

معركة كبيرة، وتمكن الجيش البيزنطى من إحراز نصر حاسم على الفرس بقيادة شهر باراز، ولم يكتف هرقل بهذا النصر بل استمر فى قتال كسرى فى بلاده وأحرز عدة انتصارات متوالية عليه[٧]. ولم يأت عام ٦٢٥م إلا وكان هرقل قد استولى على أرمينيا الفارسية وأذربيجان وجزء من فارس، كما استولى على معسكرات الفرس الشتوية فى إقليم فان. وعلى الرغم من أن الفرس نجحوا فى منع البيزنطيين من التوغل وغزو بلاد فارس إلا أن ذلك كلفهم الكثير حيث دمر هرقل جيش القائد الفارسى شاهين وجزءا كبيرا من جيش شهرباراز وجيش سارابلانجز Sarablanges. كما سقطت العديد من المناطق التى كانت تحت السيطرة الفارسية فى يد البيزنطيين[٨]، مثل بلاد الجزيرة فيما بين النهرين بما فيها من قلاع أميدا ودارا ومرتيرو بوليس Martyropolis[٩].

على أن الفرس لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء ما حققه هرقل من انتصارات، إذ بحلول الشتاء عزم خسرو على القيام بمحاولة جريئة لسحق ذلك الخصم العنيد، حيث أرسل سفارة إلى الآفار الذين نقضوا المعاهدة السابقة مع الإمبراطور، ورتب معهم أمر غزو القسطنطينية بشرط أن يقوموا بغزوها من الشمال فى حين يقوم الفرس بمهاجمتها من الجنوب، وحينئذ ترك خسرو جيشين عظيمين، أحدهما لشهر باراز تقدم به إلى خلقدونية لمعاونة الآفار فى الهجوم على العاصمة، والآخر تحت قيادة شاهين تقدم به إلى هرقل الذى كان آنذاك ببلاد الجزيرة يواصل استعداداته للهجوم على الأراضى الفارسية[١٠]. وكان كسرى قبل أن يجهز تلك الجيوش قد

---

[٧] ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل، ص ٢٣٧-٢٤٨.

[8] Brehier : Vie et Mort de Byzance., p. 51.
Stratos (A. N.): Byzantine in the Seventh Century (602-634), (Amsterdam, 1921), Vol. I, pp. 163-5.

[9] Oman : op. Cit., p. 136.

[10] Robinson (S): A Short History of Medieaval People. (London), p. 543. =

أرسل من يسلب كنوز جميع الكنائس الواقعة على تخومه، وأجبر جميع المسيحيين في تلك المنطقة على اعتناق مذهب النساطرة(11) وفي الوقت الذى فرض ضرائبا جديدة في دولته لكى يواجه نفقات حروبه مع هرقل(12) ثم كون جيشا من جميع الشعوب من الأجانب والمواطنين والعبيد ومن كل الأجناس والطبقات الذين تضمهم الإمبراطورية(13) ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أنه قام بضم بعض القوات من رجاله إلى تلك الجيوش وأطلق عليها اسم كتائب الذهب Chrysolochas، وأطلق عليها ايضا اسم حملة الرماح الذهبية، وذلك لأن رماحهم كانت مطلية بلون الذهب(14).

Levtchenko (M. V.): Byzance des Origines A 1453 (Paris, 1949), p. 121. =
Vasiliev : Hist. De L'Empire Byzantine, Tome. I, pp. 260-1.
Diehl : op. Cit., p. 50.

(11) النساطرة: أو النسطورية نسبة إلى رجل يدعى نسطوريوس من اصل فارسى وقد نشأ فى مدينة جرمانيقة (مرعش فى الوقت الحالى) فى أواخر القرن الرابع، وكان أول من تولى نشر بدعة النسطورية بين الناس جهرا وتحمس لمناصرتها حتى اشتهرت باسمه. وأصبح نسطوريوس كاهنا على كنيسة أنطاكية، ثم أصبح بطريركا على القسطنطينية فى سنة ٤٢٧م فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير.

انظر : ليلى عبد الجواد: المرجع السابق ص ١٧٦، حاشية رقم ٢.

(12) Theophanis : Chronographia, Vol. I, p. 484.
Gedrenus: Historiarum Compendium, Vol. I, p.727.
Finaly (G): Hist. Of Greece (Oxford, 1877), Vol. I, p.344.
Lebeau: Historie du Bas-Empire. (Paris, 1930), Tome. Xi, pp. 111-12.
Stratos : op. Cit., Vol. I, p. 160.

(13) Theophanis : Chronographia, Vol. I, p. 484.
Gedrenus: Historiarum Compendium, Vol. I, p.727.

(14) Theophanis :op. Cit., Vol.i, pp. 484-5.
Cedrenus : op. Cit., Vol.i, pp. 272.

على أن الإمبراطور هرقل عندما علم بتحركات كسرى قسم جيشه إلى ثلاث فرق، الفرقة الأولى أرسلها لحماية عاصمته القسطنطينية من الهجوم الآفارى الفارسى، والفرقة الثانية عهد بها إلى ثيودور Theodoro وأمره بمهاجمة شاهين، أما الفرقة الثالثة فجعلها تحت قيادته وتحرك بها إلى منطقة لازيقا حيث مكث هناك مدة وسعى إلى التحالف مع هؤلاء الخزر القادمين من المشرق والذين كانوا يعرفون آنذاك باسم الأتراك(١٥). وبعد أن تحالف معهم قدم له الخزر المساعدة فى حملته ضد فارس وأمدوه بقوات قوامها أربعين ألف محارب أعانته فى حربه معهم، كما قدم له المساعدة بعض الشعوب المسيحية فى منطقة القوقاز(١٦). وهكذا كان هناك حلفان أحدهما بين الفرس والآفار والآخر بين البيزنطيين والخزر.

على أن التحالف الفارسى الآفارى أخفق فى السيطرة على العاصمة القسطنطينية واضطر المتحالفون مكرهين إلى رفع الحصار بعد أن قتل منهم الآلاف، ويرجع سبب ذلك إلى أنه كان يوجد بالعاصمة حامية قوية وأسطول حربى كبير، هذا بالإضافة إلى الشعور العدائى الذى استولى على أهل القسطنطينية ضد الفرس منذ ضياع بيت المقدس والصليب المقدس(١٧).

ولكن ما يثير التساؤل، لماذا استعان الإمبراطور هرقل بالخزر، هل كان هو فى موقف يحتاج فعلا إلى المساعدة؟، ثم لماذا استعان بالخزر على وجه الخصوص؟ وما مدى أهمية الخزر فى ذلك الوقت حتى تستعين بهم الإمبراطورية البيزنطية؟

---

(15) Theophanis :op. Cit., Vol.i, p. 485.

(16) Art. Byzantine Empire. In the New Ency. Britt, Vol. 3,p556.
Grousset (R): Historie de L'Armenie de Origines A 1071 (Paris, 1947), p. 200.
Allen (W. D.) : A History of the Georgian People, (London, 1939), p.79.
Levtchenko : op. Cit., p. 121.

(١٧) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٦.

يبدو أن القوات البيزنطية التى كانت تحت قيادة الإمبراطور هرقل غير كافية لهزيمة الفرس، كما أن تقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام جعل القوات البيزنطية عاجزة عن تحقيق أى انتصار على الفرس.

وهنا نلاحظ أن الخزر الذين كانوا لا يزالون تابعين آنذاك للأتراك الغربيين من الناحية الاسمية قد ساعدوا البيزنطيين فى حروبهم ضد فارس بسبب عدائهم القديم للفرس من ناحية، ولما بلغوه من نفوذ واسع. جعل الإمبراطورية البيزنطية تستعين بهم من ناحية أخرى.

ويذكر أن المؤرخ الأرمينى موسى أنه فى العام السادس والثلاثين من عهد خسرو أى يونيه سنة ٦٢٥م - يونيه ٦٢٦م قام الخزر بغزو أرمينيا الفارسية، ونهبوا أذربيجان وحينما علم خسروا بهذا الغزو كتب إلى قادته شهربا راز وشاهين يستدعيهم بجيوشهم لكى يرسلهم لمعاقبة الخزر، وحينما علم الخزر بذلك اصابهم الفزع وارتدوا عن أرمينيا(١٨). وقد ذكر المؤرخ اليونانى ثيوفانيس(١٩) أن الخزر بقيادة ملكهم زيبل Ziebelo اقتحموا مداخل قزوين وهاجموا فارس وتقدموا حتى ولاية أدروجام Adroegam وذلك قبل أن يلتقى الإمبراطور هرقل بزبيل ملك الخزر، وعلى هذا فإن العلاقة بين الخزر والفرس فى تلك الفترة لم تكن ودية كما أشرنا إلى ذلك من قبل، مما أدى إلى أن الظروف كانت مهيأة تماما لإقامة تحالف بين الخزر والبيزنطيين ضد فارس.

وفى سنة ٦٢٧م وحينما علم هرقل بالغزو الخزرى لأرمينيا الفارسية تحرك من طرابيزون Trebizond على البحر الأسود وتوجه إلى لازيقا أملا فى لقائهم عند عودتهم، ومن هناك أرسل هرقل البطريرك أندرياس Andreas إلى حاكم الخزر زيبل محملا بهدايا قيمة وطلب إليه أن يفاوضه فى إقامة تحالف بينه وبين بيزنطة.

---

(18) Stratos : op. Cit., Vol.i, p.199.
(19) Chronographia, vol.i, p. 486.

ورحب أمير الخزر بذلك وبعث بسفارة يصحبها ألف فارس كبعثة تأييد إلى منطقة لازيقا التى كان يقيم فيها الإمبراطور[٢٠] ويشير المؤرخ ثيوفانيس[٢١] إلى أنه بعد أن بعث حاكم الخزر بسفارة إلى الإمبراطور هرقل، قرر هرقل الذهاب للقائه شخصيا والتقى بزيبل حاكم الخزر، وعندما رأى زيبل الإمبراطور تقدم نحوه وعانقه ثم سجد أمامه، وسجد جميع جند الخزر وخروا على وجوههم، وكأنهم سقطوا من هيبة الإمبراطور، كما صعد القادة على الصخور وسجدوا له، ويروى أن زيبل كان يصغى باهتمام بالغ لكلمات الإمبراطور، وأصابه الذهول من هيبته وحكمته، وكان لا يبتعد عنه، ثم قدم له ابنه وكان فى أول شبابه، ثم اختار زيبل نخبة من نحو أربعين ألف رجل وجعلهم فى صحبة الإمبراطور، ثم عاد إلى ذويه.

وقد تحدث مؤرخ يونانى آخر وهو كيدرينوس[٢٢]عن هذا اللقاء، ولكنه لم يرو ما حدث بالتفصيل بين هرقل وزيبل كما رواه ثيوفانيس. أما ما رواه المؤرخ نيقغورس[٢٣] عن هذا اللقاء والتحالف الذى جرى بين الطرفين فقد ذكر أن

---

(20) Nicepharius : Breviarium Historicum De Rebus Gestis Post Imperium Mauricii; (Paris, 1860), Tomus, C., p. 902, in Patrologia Graeca.
Baynes (N) : the Successor of Justinian, (cambridge, 1980) Vol. ii, p.297, in Cambridge Medieval History.
Lebeau : op. Cit., Tom. Xi, pp. 117-118.
Stratos :op. Cit., Vol. I,pp. 199-200.

(21) Chronographia, Vol.i, p. 486.
Ostrogorsky (G): The Byzantine Empire in the world of the Seventh Ventury, (1959), p. 18, in Dumbarton Oasks papers.

(22) Historiarum Compendium, Vol. I, p. 728

(23) Breviarium Historicum de Rebus Gestis Post imperium Mauricii, T, C., pp. 902-903.
Ostrogorski : op. Cit., (1959), p.18.
Stratos: op.cit., Vol. I, pp. 201-202.

الإمبراطور هرقل كان ينتظر زيبل عند أسوار تفليس[٢٤] وكان ممتطيا جواده ومرتديا رداء أرجوانيا وعلى رأسه تاج رائع مرصع بالماس، وكان ينتعل بصندل أرجواني في قدميه ومن حوله حراسه وبلاطه،وبقي ساكنا حتى قدم عليه زيبل الذى ما أن رآه حتى ترجل من على فرسه وسجد أمام الإمبراطور مقدما فروض الطاعة والولاء، وترجل الإمبراطور أيضا، وعانق كلاهما الآخر ثم قام زيبل بتقبيل الإمبراطور هرقل، الذى ما لبث أن خلع تاجه من على رأسه ووضعه على رأس زيبل، كما خلع عليه خلعة ملكية، ومنحه أقراطا محلاه باللؤلؤ، ومنح الأمراء الذين كانوا معه أقراطا وهدايا أخرى، وأراد هرقل أن يربط زيبل بروابط الصداقة فوعده بتزويجه من ابنته ايدوكسيا Eudoxia التى كانت فى نضارة عمرها وما إن وقعت عينا زيبل على صورتها حتى انبهر بجمالها وهام بها حبا.

ـ وهنا نلاحظ أن روايتا ثيوفانيس ونيقغورس قد أشادتا بعظمة الإمبراطور هرقل ومكانته وهيبته، وأوضحتا تقاليد قبائل الإستبس التى ينتمى إليها الخزر، عندما التقى هرقل بزيبل، ومظاهر الترحيب التى أبداها البلاط الخزرى للإمبراطور، ودقة الفن البيزنطى الذى يتجلى فيه براعة الفنان الذى صور إيدوكسيا تصويرا دقيقا ابرز فيه جمالها، مما جعل زيبل ينبهر به.

ومما يجدر ذكره أن المؤرخ جيبون[٢٥] قدم لنا وصفا بديعا لاستقبال الخزر للإمبراطور هرقل، وقد اعتمد فى هذا الوصف على رواية المؤرخ ثيوفانيس. وثمة مصدران هامان ذكرا موضوع التحالف بين هرقل والخزر أولهما ميخائيل

---

(٢٤) تفليس : قيل تفليس ونواحيها هى أرمينية الصغرى.

انظر : ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٢٠٤.

(25) The Decline and Fall of the Roman Empire., (London, 1952) Vol.ii,130.

السرياني[٢٦] الذى تحدث عن طلب هرقل المعونة من خاقان الخزر وكيف وافق وأمده بأربعين ألفا من الرجال على أن يزوجه من ابنته ايدوكسيا. أما المصدر الثانى لمحبوب المنبجى[٢٧] فقد أشار إلى نفس الموضوع، وإن كان اسم زيبل لم يرد فى المصدرين.

وبعد أن تعرضنا للمصادر اليونانية والسريانية، يبقى بين أيدينا المصادر الأرمينية، فقد ذكر المؤرخ الأرمينى موسى، أنه فى سنة ٦٢٥م غزا الخزر أرمينيا وأوغلوا فيها واستولوا على العديد من الأسلاب والغنائم، وأتلفوا أذربيجان، ثم قفلوا راجعين إلى بلادهم عن طريق الدربند دون أن يصادفوا أية مقاومة من الفرس. وكان أن قرر ملك الخزر فى العام التالى (٦٢٦م) أن يخرج بنفسه للاستيلاء على هذه الأماكن، واصدر أوامره لكل من هو فى نطاق سلطته من "القبائل والناس وسكان الجبال والسهول الذين يعيشون تحت السقوف أو تحت السماء المكشوفة، وأولئك الذين يحلقون رؤوسهم أو من لهم شعور طويلة أن يكونوا مستعدين للغزو"[٢٨].

وفى عام ٦٢٦م تحرك الخزر وكرروا غزوهم بشكل أوسع على أراضى فارس وتمكنوا من تحطيم القلاع المنتشرة بجبال القوقاز وقلاع تريزور Tresor (دربند) وأوغلوا ناحية الجنوب وأمعنوا فى قتل السكان ونهب الثروات حتى وصلوا إلى تفليس، وهناك التقى هرقل بالخزر، بزعامة جيبو خاقان Deshebou Khakan، وقام الفريقان بحصار تفليس حتى كادت أن تقع فى ايديهما، لولا أن نجح الفرس فى إرسال فرقة قوية من ألف فارس على رأسها شهر براز تمكنت من دخول المدينة

---

(26) Chronique De Michel Le Syrien., T. ii, p.409.

(٢٧) "كتاب العنوان" المنشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين.

Patrologia Orientalis (Paris, 1911), Tomus. Viii; pp. 462-3.

(28) Patkanian (M.K.) : Essai s'un Historie de La Dynastie des sassanides. (1866), Toms. Viii,p.5. dans Journal Asiatique Serie.

Chavannes : Ducuments sur les Turcs Occidentaux, p. 252.

ومنعت سقوطها وعندئذ قرر الحلفاء التراجع مؤملين العودة فى العام الثانى كقوة واحدة، وتمضى الرواية الأرمينية فتذكر أنه بعد ذلك أرسل الإمبراطور هرقل أحد كبار أمرائه ويدعى أندرياس بهدايا قيمة ليفاوض الخزر على ترتيبات الغزو فى سنة ٦٢٦م، فرحب جيبو خاقان بالرسول وأرسل فرقة من جيشه تقدر بنحو ألف فارس إلى القسطنطينية لمساندة الإمبراطور من جهة، والتفاوض على اتفاق مرض للطرفين بشأن الغزو عن جهة أخرى[٢٩].

وفى العام الثانى (٦٢٧م) أرسل ملك الشمال (خاقان الخزر فى نص ثيوفانو) القوات التى وعد بها تحت قيادة ابن أخيه شاث Shathأو شاد Shad فأغارت على أران وأذربيجان، وفى العام التالى (طبقا لهذه الرواية) سنة ٦٢٨م دخل الخزر أران واستولوا على برزعة[٣٠] Bardhaah، ثم بعد ذلك اتجهوا ناحية الغرب تجاه تفليس تحت قيادة جيبو خاقان وابنه، وحاصروا المدينة الجورجيانية، وما لبث أن التحق بهم الإمبراطور هرقل على رأس جيشه القوى بعد أن حقق النصر على الفرس، غير أن الحليفين اضطرا إلى التراجع، نظرا لأن المدينة قد أبدت مقاومة شديدة، بعد ذلك استولى الخزر تحت قيادة جيبوخاقان وابنه شاث على تفليس على أن الخزر قاموا بإحضار اثنين من كبار رجال حاميتها ومثلا أمام الخاقان، فعاملهما بقسوة شنيعة، وأمر بسمل أعينهما وتعذيبهما تعذيبا شديدا، وتعليقهما على أسوار المدينة[٣١].

وتضيف الرواية الأرمينية أن ملك الشمال (ملك الخزر) قد أخذ إتاوة من الذهب والفضة ومعادن أخرى كالحديد، واستولى أيضا على ثروات الصيادين على

---

(29) Patkanian: op. Cit., Vol. vii,pp. 607.
Chavannes: op. Cit., pp. 252-3.

(٣٠) برزعة : بلد فى أقصى أذربيجان.. انظر ياقوت: حـ٢، ص ١١٩.

(31) Dunlop: Hist. Of the Jewish Khazars, pp. 29-30.

نهر كر وفي سنتي ٦٢٩م و ٦٣٠م أعد ملك الخزر عدته لغزو شامل فأرسل فرقة تتكون من نحو ثلاثين ألف فارس يقودهم خوربان طرخان Charpan Tarkhan، استطاع أن يلحق الهزيمة بعشر آلاف من الفرس، ثم أغار على أرمينيا وجورجيا وأران[٣٢].

والحقيقة أن الروايتين اليونانية والأرمينية لم تتفقا فيما يتعلق بتفاصيل الأحداث التي تناولت العلاقات البيزنطية الخزرية على عهد الإمبراطور هرقل، ومما يدل على ذلك أن الرواية الأرمينية جعلت الإمبراطور البيزنطي هرقل وملك الخزر يلتقيان مرتين أمام تفليس الأولى سنة ٦٢٦م والثانية سنة ٦٢٨م في حين جعلت الرواية اليونانية اللقاء مرة واحدة سنة ٦٢٧م، كما أن الرواية الأرمينية لم يأت فيها اسم زيبل (ملك الخزر) إطلاقا، بل وجدنا ثلاث مسميات خلت منها الرواية اليونانية وهي ملك الشمال (خاقات الخزر) وجيبوخاقان وشاد أو شاث، كما أن الروايتين اختلفتا فيما يختص بالأف فارس الذى أرسلهم ملك الخزر إلى هرقل إذ ذكرت الرواية الأرمينية أنه أرسلهم إلى عاصمة بلاده القسطنطنية، بينما ذكرت الرواية اليونانية أنه أرسلهم إلى لازيقا، حيث كان الإمبراطور هرقل يقيم هناك، ونجد أيضا الرواية الأرمينية قد أومأت إلى أن الخزر هم وحدهم الذين استولوا على تفليس بعد انصراف هرقل عنهم.

ولنسترجع ما ذكره المؤرخ ثيوفانيس[٣٣] في روايته اليونانية التي ذكر فيها أن: "هرقل ذهب للتحالف مع أولئك الأتراك القادمين من الشرق المدعويين الخزر"، وفي موضع آخر يذكر أن: "هرقل التقى بزيبل وهو الثاني بعد الخاقان"..، "ثم أن زيبل قدم ابنه الأمرد لهرقل". أما الرواية الأرمينية فقد أوردت أن "ملك الشمال أرسل قوات تحت قيادة ابن أخيه الذى يسمى شاد أو شاث" وفي موضع

(32) Dunlop: op. Cit., p.30.
Patkanian: op. Cit., Vol. vii, p. 8.

(33) Chronographia, Vol. I, p. 485-6.

آخر من الرواية أوردت أن "جيبوخاقان وابنه شاد غزو جورجيا وأران" ....، وفوق ذلك "التقى هرقل بالخزر ورئيسهم جيبوخاقان"[٣٤].

وقبل محاولة جلاء الغموض بين الروايتين نود القول أن بعض الباحثين المحدثين يرون أن هناك دوافع تشير إلى أن زيبل يقابل لقب جيبو Jebu، وهذا اللقب هو نفسه لقب يابغو Yabgu ، وهو لقب تركى كان يمنح للإخوة وأبناء الحاكم التركى، وهو نفسه أيضا لقبى T'ung-ye-Hu, Ye-hu Khagani [٣٥] وعلى هذا الأساس يمكن المقابلة بين الروايتين اليونانية والأرمينية، فملك الشمال الذى جاء ذكره فى الرواية الأرمينية هو ملك الخزر (رئيس الخزر الأعظم)، أما جيبوخاقان فى الرواية الأرمينية هو زيبل فى الرواية اليونانية والذى كان يحتل المرتبة الثانية فى دولة الخزر، ولم يكن قد اتخذ لقب خاقان بعد كما ذهبت الرواية اليونانية، أما ابن زيبل الأمرد (صغير السن) الذى قدمه زيبل للإمبراطور هرقل فى الرواية اليونانية هو شاد أو شاث بن جيبوخاقان فى الرواية الأرمينية، ويبدو أن لقب يابغو (جيبو) كان يمنح للرجل الثانى فى دولة الخزر.

وجدير بالملاحظة أن المؤرخ بيورى قد تشكك فى دقة ما أورده البطريك نيقغورس فى روايته اليونانية بشأن اللقاء الذى جرى بين هرقل وزيبل (ملك الخزر)، ويعتبر هذا اللقاء أسطورة، ولم يجر بالمرة. وفى هذا الصدد عقب ستراتوس على ما ذكره بيورى قائلا: أن نيقغورس لم يكن المؤرخ الإغريقى الوحيد الذى أشار إلى هذا اللقاء بل هناك مؤرخين بيزنطيين آخرين تعرضوا لهذا اللقاء[٣٦].

---

(34) Patkanian: op. Cit., Vol. vii, pp. 5-8.

(35) Art. Khazar, in Ency. Judaica, vol. x, p. 944.
Chavannes: op. Cit., p. 47.
Dunlop : op. Cit., p. 30.

(36) Stratos: op. Cit., Vol.i, p. 202.

والحقيقة أن الأبحاث الحديثة التي تناولت العلاقة بين الخزر والبيزنطيين سواء بتعمق أو بشكل سريع خاطف اعتمد معظمها اعتمادا كليا على الروايات اليونانية،وتناولت المساعدة التي قدمها الخزر للإمبراطور هرقل، ولكنها لم تتطرق لما جاء بالرواية الأرمينية(٣٧) ولكن يبدو أن البعض اعتمد على الرواية الأرمينية وذكر أن خاقان الأتراك الغربيين T"ong Yabghu هو الذى أعان الإمبراطور هرقل ضد الفرس(٣٨) وكان ذلك صدى لما كان يربط الخزر بالأتراك الغربيين، إذ كان الخزر تحت سيطرة الأتراك الغربيين من الناحية الاسمية فقط، ومن المعروف أن إمبراطورية الأتراك الغربيين قد تحطمت على يد الصينيين سنة ٦٥٩م، وبذلك يتأكد لنا أن الخزر هم الذين قدموا مساعدتهم للإمبراطور هرقل دون أن يكون للأتراك الغربيين دور فى ذلك.

وفى أثناء حصار الخزر لتفليس، سخر سكانها من رئيس الترك (الخزر) برسم صورته على لوحة ضخمة، وأظهروا وجهه دون عينيه، على اعتبار أنه من خلاصة المغول، وعلقوا هذه اللوحة على سن أحد الرماح وأخذوا يضربون عليها بالسهام. وعلى الرغم من الجهود التى بذلها ستيفن قائد حامية المدينة لمنعها منن السقوط فى أيدى الخزر، إلا أنها سقطت فى النهاية بعد حصار طويل(٣٩).

---

(37) Franzius (E): History of the Byzantine Empire (New York, 1961), p. 117.
Koestler! Op. Cit., p. 25.
السيد الباز العرينى : المرجع السابق، ص ١٢٧.
ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(38) Pritsak : Art. Khazar, in Dictionary of the Middle Ages, Vol. 7, p. 240.

(39) Stratos: op. Cit., Vol.i, p. 202.
Bayness: op. Cit., Vol. ii, p. 297.

غير ان المدينة في النهاية سقطت لطول الحصار، وتمكن خاقان الخزر من القبض على ستيفن الذى كان يؤثر جانب الفرس بالرغم من كونه مسيحيا أرثوزكسيا، فقتله وأرسل برأسه إلى الإمبراطور هرقل[٤٠].

أما بشأن تفاصيل المعارك الفارسية البيزنطية التى خاضها هرقل نلاحظ أنه كان على رأس عشرين ألف من اليونانيين وحلفائه من الإيبيريين وأهل لازيقا، ويصاحبه أربعون ألف فارس من الخزر، وسار متجها إلى طيسقون (المدائن) عاصمة الفرس بعد أن تأكد من ضعف الفرس[٤١]، وفى أثناء زحفه على رأس جموعه أخذ يحرق وينهب المدن والقرى الواقعة فى طريقه.[٤٢]

ولما وصلت إمدادات أخرى إلى الإمبراطور هرقل، توغل فى الأراضى الفارسية، ولكن الخزر بدأوا فى الانسحاب والتراجع تدريجيا عن جيش هرقل. ويذكر ثيوفانيس أن الخزر انشقوا عن البيزنطيين قبل عبورهم جبال كورديش Kurdish حتى أن الإمبراطور هرقل خطب فى رجاله بأنه لم يعد له حلفاء تعينه على تحقيق النصر، وعلى الرغم من قلة عدد جيشه بعد انسحاب الخزر، فإنه سيواصل زحفه على بلاد فارس بمعاونة السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم[٤٣] وفعلا تقدم هرقل على رأس جيشه وأحرز نصرا باهرا على كسرى الثانى (٥٩٠-٦٢٨م) فى ديسمبر سنة ٦٢٧م قرب أطلال نينوى وألحق بالجيش الفارسى خسائر فادحة، وصمم الإمبراطور على مواصلة زحفه إلى المدائن عاصمة الفرس، ولكن الأمر انتهى بقيام ثورة فى فارس راح ضحيتها كسرى الثانى، كما أن خليفته الذى تولى من بعده عقد

---

(40) Grousset: Hist. De Armenie des Originies, p. 275.
Allen: op. Cit., p.79.

(41) Stratos: op. Cit., vol.i, p. 205.

(42) Cedrenus: Historiarum Compendium, vol. I,p.730.

(43) Stratos: op. Cit., vol.i, p. 209.
Camb. Hist. Of Iran, Vol., 3, p. 170.

صلحا مع هرقل بمقتضاه وافق الفرس على إخلاء جميع الأراضى التى انتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية[٤٤] وبذلك تكون الحروب الفارسية مع الإمبراطورية الرومانية قد انتهت إلى الأبد.

والواقع أن انفصال الجيش الخزرى عن هرقل كان مثيرا للدهشة، فلم تذكر المصادر شيئا جوهريا عن الأسباب التى دفعت الخزر إلى الانفصال. ويذكر المؤرخ دنلوب[٤٥] أن المساعدة التى قدمها الخزر إلى هرقل أغرته بالتوغل فى أراضى الفرس ومحاولة إنهاء الحرب لصالحه، غير أنه تمادى فى زحفه إلى أن اقترب فصل الشتاء، وفى الوقت الذى أخذت هجمات الفرس تزداد عمقا، كل ذلك أدى إلى نفاذ صبر الخزر من ناحية، ولم تعجبهم الطريقة التى عالج بها البيزنطيون الحرب من ناحية أخرى، فى حين يذكر غيره أن الخزر انفصلوا لأنه لم يكن فى مقدورهم أن يصبروا على مشقة الحملة وقسوتها فعادوا إلى بلادهم[٤٦] ويذكر البعض أيضا أن الخزر لم يكن عندهم القدرة على الاستمرار مع الإمبراطور وإن لم يتخلوا عنه فى ذلك الوقت فإنهم سوف يفعلون ذلك فى وقت آخر[٤٧]، والواقع أن جميع هذه الآراء تتفق على عدم قدرة الخزر على مواصلة الحرب لنفاذ صبرهم.

وعلى الرغم من انسحاب الخزر من حملة هرقل على فارس فإنه أوفى بوعده بتزويج ابنته أيدوكسيا The Augusta of the Roman Eudocia من زيبل ملك الخزر[٤٨]- كما سبق أن ذكرنا - فجهز ابنته وبعث بها إلى بلاد الخزر،

---

(٤٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ١١١-١١٢.

(45) The Hist. Of the Jewish Khazars, p. 28.

(46) Ostrogorski: Hist. Of the Byzantine state, p. 93.

(47) Stratos: op. Cit., Vol, I, p.207.

(48) Ostrogorski: The Byzantine Empire in the world of the Seventh Century, p. 18.

وبينما هي في طريقها هي وحاشيتها شاعت أنباء عن مقتل زيبل، فجاءت الأوامر لعودتها إلى القسطنطينية[٤٩].

ومما يجدر ذكره أن التحالف الذى جرى بين البيزنطيين والخزر فى تلك الفترة أصبح عاملا هامًا فى السياسة البيزنطية. فقد أضحى التفاهم بين الطرفين عن أهم خصائص الدبلوماسية البيزنطية فى الشرق[٥٠].

وعلى الرغم مما حققه الإمبراطور هرقل من انتصار مؤزر على الفرس واسترجاع ممتلكاته، إلا أنه قبل أن يموت بسنوات قليلة، شاهد تخوم إمبراطوريته الجنوبية والشرقية تتعرض لخطر جديد هو خطر العرب المسلمين الذين استولوا على معظم الممتلكات البيزنطية[٥١]. وهكذا تعتبر تلك الفترة الواقعة فى الثلث الأول عن القرن السابع الميلادى حلقة هامة فى تاريخ العلاقات بين البيزنطيين والخزر.

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطورية جستنيان الثاني:

لم تتجدد الصلات بين الخزر والبيزنطيين مرة أخرى إلا على عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى الذى تولى العرش مرتين الأولى (٦٨٥-٦٩٥م) والثانية (٧٠٥-٧١١م). ومما يبعث على الدهشة أن المؤرخين البيزنطيين وغيرهم قد صمتوا عن الإشارة إلى أى جديد فى مصير العلاقات بين الطرفين حتى اعتلاء هذا الإمبراطور فى أواخر القرن السابع، فجاءت هذه الفترة الطويلة التى تقرب من ثلثى القرن من الزمان فجوة هائلة فيما يتعلق بالعلاقات بينهم. وكانت بحق فترة شاغرة

(49) Koestler: op.cit., p. 26.
Stratos: op. Cit., Vol. I, p. 202.

(50) Ostrogorski: op. Cit., p. 18.

(51) The Times Atlas of world History, (New Jersey, 1985), p.112.

ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى انشغال البيزنطيين فى التصدى لخطر خارجى جديد غير خطر الفرس وهو خطر الجيوش الإسلامية الفتية التى بدأت توجه إليها أشد الضربات، فقد نجح المسلمون فى تحطيم مملكة فارس لتصبح جزءا من الدولة العربية الإسلامية، ونجحوا أيضا فى تقليم أظفار الإمبراطورية البيزنطية منذ أواخر عهد هرقل (٦٤١م) وما نتج عنها من ضياع أملاك بيزنطة فى الشرق، وبذلك تكون تلك الفترة السابقة فترة توقف مؤقت فى مجال العلاقات بين الخزر والبيزنطيين.

مات قسطنطين الرابع فى سبتمبر سنة ٦٨٥م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره فخلفه على الحكم ابنه جستنيان الثانى من زوجته الإمبراطورية أنستاسيا Anastasia وقد اعتلى جستنيان الثانى العرش ولم يتجاوز السادسة عشر من عمره[٥٢]. وكان شابا جسورا مجازفا قاسى القلب طموحا ذا عزيمة تساعده على إثبات شخصيته وسلوك الطريق الذى يرضيه[٥٣]. ولكنه كان مجردا مما يتصف به السياسى الماهر من سداد الرأى والرزانة، إذ ورث عن جده هرقل شدة العاطفة وسرعة التأثر[٥٤]ولقد وصفه المؤرخ جيبون[٥٥] بالقول: "أن انفعاله وغضبه كان سريعا، وفى فهمه للأمور سخيفا، ثملا يملأه الغرور والكبرياء الأحمق".

وعند اعتلاء هذا الإمبراطور كان قد دخل فى حرب مع البلغاريين حيث نقض اتفاقية السلام معهم، وهى المعاهدة التى أبرمها والده من قبل[٥٦] مع أسباروخ خان البلغار سنة ٦٨٠م، وفى سنة ٦٨٩م قام بغزو أقاليم بلغاريا التى تطلق عليها الحوليات الإمبراطورية (Sclavinia and Bulgaria) سكلفينيا وبلغاريا، وأنزل

---

(52) Head (C): Imperial Byzantine Portraits, (New York, 1982), p. 46.
(53) Oman: op. Cit., p. 173.

(٥٤) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص١٥٦.

(55) Op. Cit., Vol.ii, p.166.
(56) Constantine Porphyrogentius: De Administrando Imperio, trans by Jenkins, p. 93. =

باهلها عدة هزائم وأسر منهم ثلاثين ألف أسير وأجبرهم على أن يقاتلوا المسلمين تحت راياته[٥٧] ولقد لقى جستنيان الثانى الهزيمة فى حربه مع المسلمين التى دارت سنة ٦٩١-٦٩٢م بعد أن غادره البلغار وتخلوا عنه[٥٨].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شرع جستنيان فى جمع الأموال بطريق المصادرة، وقد استخدم وزيرين لا ضمير لهما وهما ثيودوتس Theodotus وستيفانوس Stephanos، وكان كل منهما عنيفا قاسيا، انتهجوا طريق المصادرة والخروج على القانون فى جمع الأموال، ويقال أن ثيودوتس كان يعلق الذين يمتنعون عن دفع الضرائب بالحبال فوق نيران ذوات دخان، حتى يكادون يموتون خنقا، وكان ستيفانوس يجلد ويرجم كل من يقع فى يديه[٥٩].

وبعد هزيمة جستنيان الثانى من المسلمين أخذ يقتل ضباطه ويحبسهم، على أنه فى سنة ٦٩٥م عين ضابطا يدعى ليونتيوس Lontuis قائدا للجند، فامتلأت نفسه رعبا وخوفا وكان على وشك السير لتسلم منصبه فى القيادة، وحينما كان يودع أصدقائه كان يقول أن أيامه أصبحت معدودة وأنه يجب عليه أن ينتظر وصول الأمر بإعدامه فى أية لحظة. وعندئذ وقف راهب يدعى بول Boul ودعاه إلى إنقاذ نفسه وذلك بأن يضرب ضربة جريئة، وقال له بأنه إذا أراد أن يضرب جستنيان فإنه سوف يجد الأهالى والجيش على استعداد للسير وراءه[٦٠].

= والترجمة العربية: لمحمود سعيد عمران، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ٨٥-٨٦.

(57) Runciman : A Hist. Of the Bulgarian Empire, p. 30.

(٥٨) السيد الباز العرينى: المرجع السابق. ص ١٥٩-١٦٠.

(59) Oman: The Byzantine Empire, p. 174.

والترجمة العربية: أومان: الإمبراطورية البيزنطية. ص ١٣٨.

(٦٠) Ibid: p. 175.

وبالفعل نشبت ثورة ضد جستنيان سنة ٦٩٥م، وتمكن لونتيوس ونفر من أصدقائه من الاستيلاء على سجن الدولة وفتح أبوابه وإطلاق سراح المئات من المسجونين الذين سجنوا فى بعض القضايا السياسة، كما استولى على كاتدرائية سانت صوفيا، ثم بعد ذلك توجه إلى القصر واستولى عليه ولم يجد مقاومة حيث تخلى الجميع عن جستنيان ورفضوا الحرب معه، وأمر لونتيوس بإلقاء القبض على جستنيان ووزيريه، وكان عقابه لجستنيان جدع أنفه وقطع لسانه ونفيه إلى خرسون فى شبه جزيرة القرم وهى أبعد مرفأ على البحر الأسود[٦١].

هكذا تولى لونتيوس عرش الإمبراطورية البيزنطية (٦٩٥-٦٩٨م) أما جستنيان فقد أقام فى خرسون سنوات فى هدوء، ولكنه فى أثناء وجوده فى خرسون كان ما يزال يتحدث عن استعادة عرشه، وأحدث الفزع والخوف حينما أعلن عزمه على ذلك، فخشى أهل تلك البلاد وعقدوا النية على تسليمه إلى أبسيماروس Apsimarus أو قتله، وعندما ما علم جستنيان بذلك، هرب إلى قلعة تسمى دوروس Doros وهى عاصمة شبه جزيرة القرم التى تقع على تخوم جوثيا Gothia[٦٢].

---

(61) Theopphanis : op. Cit., Vol, I, p. 566.
Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 938.
Glubb (S. J): The Empiro of the Arabs, (London, 1963), p. 149.
Miller : The Byzantine tradition, p. 14.
Ostrogorsky: op. Cit., pp. 123-4.
Dunlop : op. Cit., p. 171.
Head : op. Cit., p. 49.
فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكار الحربى والاتصال الحضارى، جـ٢، ص٧٦.

(62) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.
Theopphanis : op. Cit., Vol, I, p. 571.
Brooks (W.E) : The Sussessors of Heraclius. , to 717.
In camb. Med. Hist. (Cambridg, 1980), Vol.2, p411.
Koestler : op. Cit., p. 32.
Gibbon : op. Cit., Vol., ii, p. 166.

ولا شك أن ما دفع جستنيان وشجعه على الانتقال إلى دوروس هو التغيرات التى طرأت فى بيزنطة، حيث جرى طرد الإمبراطور ليونتيوس سنة ٦٩٨م، فضلا عما ساوره من شكوك من أن السلطات المحلية بخرسون عزمت على تسليمه إلى حكومة القسطنطينية، وقد أخذ بحذره من ذلك فى الوقت المناسب(٦٣). وفى القسطنطينية لم يكن الإمبراطور ليونتيوس كفؤا وجديرا بالعرش، فقد احتفظ به ثلاث سنوات، كانت مليئة بالثورات الداخلية والهزائم الخارجية، وبعد سقوط قرطاجنة(٦٤). فى يد المسلمين سنة ٦٩٨م، دبر القادة المنسحبون مؤامرة لخلع ليونتيوس ونادوا بابسيمار قائد الأسطول Drungarius إمبراطورا تحت اسم تيبريوس Tiberius، ونجحت المؤامرة واستولى تيبريوس على القسطنطينية (٦٩٨- ٧٠٥م) وقبض على منافسه لونتيوس وقام بجدع أنفه وأرسله إلى أحد الأديرة(٦٥)، وهو نفس العقاب الذى تعرض له جستنيان الثانى الذى لم يمض على عزله ثلاث سنوات.

وبعد أن انتقل جستنيان من خرسون إلى دوروس طلب مقابلة خاقان الخزر والتحدث إليه ومفاوضته، فاستجاب لطلبه واستقبله ببالغ الحفاوة، ونشأت بينهم صداقة وزوجه الخاقان من أخته(٦٦) وقد سميت شقيقة الخاقان باسم ثيودورا(٦٧) عند

(63) Ostrogorski: Hist. Of the Byzantine State, p. 125.

(٦٤) قرطاجنة: بلد قديم من نواحى إفريقيا،
انظر : ياقوت: معجم البلدان، حـ٧، ص٥٢.

(65) Brooks : op. Cit., Vol. ii, p. 410.
Oman: op. Cit., p. 179.
فتحى عثمان: المرجع السابق، حـ٢، ص٧٦.

(66) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.
Lewis (A.R) : Naval Power and Trade in the mediteranean A.D 500-1100 (New Jersey, 1951), pp. 84-5.
Franzius : op. Cit., p. 139.
Brehier : op. Cit., p. 70.
Vasiliev : Hist. Of the Byzantine Empire, p. 194.
زبيدة عطا: الترك فى العصور الوسطى، ص ١٧.

(٦٧) التبس الأمر على محرر مادة خزر بدائرة المعارف اليهودية، حيث ذكر أن جستنيان الثانى تزوج شقيقة خاقان الخزر واسمها ايرين، وايرين فى الحقيقة هى الزوجة الخزرية التى تزوجها الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥م)، انظر: Rosenthal: Art. Chazar., Vol. iv, p

زواجها من جستنيان الثانى، وليس هناك دليل على أنها كانت مسيحية قبل زواجها بل على الأرجح أنها عمدت واعتنقت المسيحية عند زواجها أو عند عودة زوجها إلى العرش، وقد اختار لها جستنيان الثانى هذا الاسم الذى كانت تتسمى به زوجة جستنيان الأول[٦٨]، وتشير بعض الروايات إلى أن اسم هذا الخاقان كان بوزير Busir[٦٩].

على أن جستنيان بعد وقت وجيز من زواجه من ثيودورا استأذن الخاقان، واتجه إلى فاناجوريا Phanagoria (طامان الحالية Taman) ومكث فيها هو وزوجته[٧٠]. ويبدو أن القلق قد استبد بإمبراطور القسطنطينية تيبريوس آبسيماروس من جراء تحركات جستنيان، لذا بادر بإرسال سفارة إلى خاقان الخزر وطلب بإلحاح، أن يسلمه حستنيان حيا أو ميتا، ووعده بمغريات كثيرة، فاستجاب الخاقان لطلبات آبسيماروس الملحة، ووعده بأن يستجيب لطلبه[٧١] ويبدو أن الخاقان لم يكن راغبا فى تعريض علاقته بالإمبراطورية البيزنطية للخطر، خاصة وأن علاقته بالمسلمين، فى ذلك الوقت كانت متوترة، أما بخصوص المغريات التى عرضها تيبريوس على الخاقان فيبدوا أنها لم تكن دافعا قويا، للإطاحة بزوج شقيقته إذا ما قورنت بالدافع الأول.

وفى ذلك الوقت كان الخاقان يدبر الخطط لتنفيذ ما وعد به، حيث أرسل إلى جستنيان حراسا لحمايته مدعيا أن هناك من يتآمرون عليه، وفى نفس الوقت كلف اثنين من رجاله وهم الخزريان باباتزس Papatzes وبالجيتزس Balgitzes

---

(68) Dunlop : op. Cit., pp. 171 - 172.
Head: op. Cit., p. 48.

(69) Koestler: op. Cit., p.32.

(70) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.
Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.
Gibbon: op. Cit., Vol. 1,p.166.

(71) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.
Ostrogorski: op. Cit., p. 125.
Gibbon: op. Cit., p.149.

كلف اثنين عـن رجاله وهـم الخزريـان باباتزس Papatzes وبالجيتزس Balgitzes حاكم البسفور، وأمرهـم أن يقضيا علـى جستنيان عنـد تلقـي الأمر[٧٢] غـير أن ثيـودورا زوجته وقفت علي ذلك وعلمـت مـن خـادم والدهـا الخاقـان، فسارعت بكشف هـذه المؤامرة لزوجها في الحال، وعندما علم جستنيان بذلك، طلب مقابلة أحـد الأثنـين، وكان في حاشيته ومن المقربين إليه، وبعد أن أبعد الحرس واصبحا وحيديـن، أنقض عليه وخنقه وفعل نفس الشيء مع حـاكم البسفور، وقتله أيضـا، ثم أعـاد ثيودورا إلى والدها[٧٣] والحقيقة أن ما بدر من جستنيان قد أدهش معاصريه، فهذا الموقف إن دل على شيء فإنما يدل على الجرأة الرعناء.

وبعد أن أعـاد جستنيان ثيـودورا إلى الخـزر، اتخـذ طريقه إلى خرسـون فـي قارب من قوارب الصيد وجده بالصدفـة، فاستقله وعـبر نهر أسـادوم Asadom ونـزل في سيمبولم Symbolumb بـالقرب مـن خرسـون[٧٤]. ووصـل جستنيان إلى خرسـون بعـد مشـقة وعنـاء، ومـن هنـاك أرسـل أحـد رجالـه ويدعـى استيفانوس إلى تربـل Terbel[٧٥] ملك البلغار وطلب منه مساعدته فـي العودة إلى السلطة، ووعـده بـأموال ومغريات كثيرة وبتزويجـه مـن أختـه، فلمـا علـم ملـك البلغار اسـتجاب لكـل طلبـات جستنيان واستقبله بأعظم الحفـاوة، وعندئـذ اتجـه إلى العاصمـة القسطنطينية بكـل مـا لدية من مسلحين، يصاحبه تربل على رأس جيش من البلغار والسلاف وحاصرها لمدة

---

(72) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.
Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.
Brooks: op. Cit., vol,ii, p.411.

(73) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.
Koestler: op. Cit., p. 32.

(74) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571-2.

(٧٥) مات أوسباروخ سنة ٧٠١ بعد مرور ثماني وخمسون عاما على انفصاله من إخوته، وقد خلفـه الملك تربل من بيت دولو **Dulo**، وربما كان تربل ابنه أو حفيده. أنظر:

Runciman : Hist. Of the First Bulgarian Empire, p. 30.

ثلاث أيام، بعد أن عسكر بالقرب من بلاخرناى Blacherni، واستقبله الشعب بالسب والإهانات والخزى والعار، لكنه في النهاية استطاع أن يدخل القسطنطينية ويسترد عرشه[٧٦].

وهكذا استرد جستنيان عرشه وعزل تيبريوس الذى كان يحاول الفرار إلى آسيا وأرسل فى طلب ليونتيوس من ديره وأمر بالطواف بهما حول المدينة مصفدين بالأغلال ثم أقام حفلا فى الإستاد، وأحضرهما فجعل أحدهما على يمينه والآخر على يساره، وجعل جسديهما الممدودين موضعا لقدمه، وبعد هذا الاستعراض العجيب أمر بقطع رأسيهما فى المسرح[77] وهكذا انتقم جستنيان أشد انتقام من منافسيه ونكل بهما.

ومن الطبيعى ألا ينسى جستنيان روح الغدر والخيانة التى لقيها من خاقان الخزر، لذا فإنه فى سنة ٦٩٨م أرسل أسطولا كبيرا إلى بلاد الخزر لإحضار زوجته، ولكن الأسطول غرق بكل من عليه من الرجال[٧٨] فلما بلغ خاقان الخزر ذلك كتب إلى جستنيان كتابا يقول فيه: "يا ناقص الرأى ألم يكن الواجب عليك أن توجه إلى

---

(76) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 943.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 572.
Michel Le Syrien: op. Cit., T.ii, p. 478.
Grousset : L'Empire Des Steppes, p. 232.
Brehier : Vie et Mart de Byzance, p. 70.
Diehl: Histore De L'Empire Eyzantine, p. 63.
Halphen: Le Barnares, p. 174.
Lewis : op. Cit., p. 63.
Runciman: op. Cit., pp. 30-31.
Koestler: op. Cit., pp. 32-33.
Gibbon: op. Cit., Vol. ii, pp. 166-167.
Glubb: The Empire of the Arabs, p. 149.

(77) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 943.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 574.
Oman: op. Cit., p. 179.

(78) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 575.
Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 943.

بمن تثق به حتى أوجه إليك بزوجتك وولدك الذى ولد لك منها، وكان ذلك أصلح من قتل هؤلاء الخلق كلهم الذين غرقوا، أو لعلك ظننت أنى لم أكن أوجه بها إليك إلا بحرب أو قتال أو أبخل عليك، أو أمنعك منها، فإن كنت تريدها وولدها فأرسل فنسلمها"(٧٩).وبادر الخاقان بإرسال أخته إلى زوجها معززة مكرمة، وأرسل معها حاجبه ثيوفيلاكتوس Theophylactos وابنه نيبريوس فتوج كليهما بتاج الملك وجلسا معه على العرش(٨٠)، وبذلك يكون خاقان الخزر قد ابدى رغبة صادقة فى نسيان ما فعله مع الإمبراطور من قبل من ناحية، وفتح صفحة جديدة فى العلاقات بين مملكته وبيزنطة من ناحية أخرى.

وهكذا تولى جستنيان العرش للمرة الثانية (٧٠٥-٧١١م) ونظرا لما تميز به حكمه القديم من استبداد خلال فترة اعتلائه للعرش فى المرة الأولى (٦٨٥-٦٩٥م) فقد قابله أهالى الإمبراطورية بالكراهية والعداء، ويقال أنه كان يخفى التشويه(٨١). الذى حدث له بارتداء أنف صناعية، كما كانت زوجته ثيودورا الخزرية أول إمبراطورة بيزنطية يعود أصلها إلى هذه القبيلة البربرية التى تقع فيما وراء تخوم الإمبراطورية كما كانت بزواجها من الإمبراطور جستنيان الثانى محطمة للتقاليد البيزنطية(٨٢).

---

(٧٩) محبوب المنبجى: كتاب العنوان، المنشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين.

Patrologia Oriental., Vol. viii, pp. 497-8.

(80) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 575.

Dunlop : op. Cit., pp. 172-3.

زبيدة عطا : المرجع السابق، ص١٧.

(٨١) قدمت العملات الخاصة بهذا الإمبراطور الشكل الباهى لوجهة الرفيع وذقنه البارز الشهير، ومن الجدير بالإشارة هنا أن العملات الخاصة بفترة اعتلائه الثانية لم تظهر أى تلميح أو إيماء عن تشويه أنفه. وذلك لأن رسم تشويه الإمبراطور على العملات، لم يكن يتفق مع مثاليات ومبادىء الفن البيزنطى. انظر: Head: Imperial Byzantine Portraits, p.49.

(82) Ibid: p. 48.

ولكن يبدو - كما سنرى - أن جستنيان كان ناقما على أهالى شبه جزيرة القرم، خاصة أهالى مدينة خرسون وهى المدينة التى نفى فيها ومدينة البسفور، ولم يكن راغبا فى نسيان الماضى خاصة ما عاناه من تجربة الإذلال التى عاشها أثناء نفيه، ففى سنة ٧١٠م قرر الانتقام من أهل خرسون فجمع سفنا من كل صنف ولوازمها ومعدات أعدها لهذا الغرض، كما جمع إعانات وضرائب خاصة من جميع أهالى العاصمة[٨٣] وأعد أسطولا ضخما يحمل نحو مائة ألف من الرجال، وكانوا من العسكريين والمدنيين والفلاحين وأصحاب المهن الأخرى وآخرون من رتبة الشيوخ، وجعل هؤلاء جميعا تحت قيادة البطريرك أستيفانوس (الملقب اسمكتس Asmictus)[٨٤] وأمره أن يضع السيف فى جميع سكان خرسون والبسفور والمناطق المجاورة، كما أرسل معه اثنين من كبار القادة وهما الياس Elias الذى طلب جستنيان تنصيبه حاكما على خرسون بعد خلع حاكمها. والثانى هو المدعو باردانس Bardanes الأرمينى الذى كان منفيا هناك من قبل وأعاده جستنيان إلى العاصمة[٨٥].

والواقع أن جستنيان كان راغبا فى تحقيق أهداف أخرى من هذه الحملة لا تستطيع المصادر المتاحة بين أيدينا أن تلم بها إلماما كافيا. إذ ليس من المعقول أن يرسل جستنيان مثل هذه الحملة الضخمة لمجرد الإنتقام من سكان تلك المناطق وخلع حاكم خرسون وتنصيب حاكم آخر، فهذه الأمور كلها كان يمكن أن تتحقق بقوة أصغر من ذلك بكثير، وقد أثارت هذه الحملة الضخمة دهشة المؤرخين وجعلتهم يتساءلون: هل كان هناك تهديد خطير فى ذلك الوقت من جانب الخزر؟ أم أراد جستنيان استرجاع الممتلكات البيزنطية التى استولى عليها الخزر؟ أم أنه

---

(83) Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 412.

(84) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 946.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 578.

(85) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 946.

كان يخشى أن يمد الخزر نفوذهم إلى مناطق تهدد الإمبراطورية، أم أنه أراد أن يضع الخزر في وضعهم وحجمهم الطبيعي ولو اضطر لخوض حرب ضدهم[٨٦].

من المعروف أن بيزنطة منذ زمن بعيد قد أظهرت اهتمامها بالشواطئ الشمالية للبحر الأسود ومارست نوعا من السيادة على ثغر خرسون الاستراتيجي الواقع في القرم، خاصة أن تلك المنطقة تتميز بأهمية اقتصادية وسياسية ودينية جديرة بالاعتبار[٨٧]، وفي فترة سابقة تمكن الأتراك من تطويق مدينة البسفور والاستيلاء عليها، غير أن بيزنطة تمكنت من استردادها مرة أخرى سنة ٥٩٠م[٨٨]، وفي نفس العام وضعت بيزنطة سياسة صداقة ثابتة مع دولة الخزر التركية، وظلت هذه السياسة حجر الزاوية في سياسة بيزنطة[٨٩]، ومن جهة أخرى فإن جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) عمل دائما هو وخلفاؤه على تحصين مدينتي خرسون والبسفور للمحافظة عليهما ضد هجمات الخزر وكانت هاتين المدينتين على جانب كبير من الأهمية والرخاء باعتبارهما محطات نهائية لتجارة الفراء من جهة ونهايات لطرق تجارة الحرير الآتية من الشمال من جهة أخرى[٩٠].

مما سبق يتضح لنا أن النزاع القديم على خرسون والقرم بين بيزنطة والخزر، يرجع إلى أهمية تلك المنطقة، ويبدو أن الظروف التي مرت بها بيزنطة في هذه الفترة زادت من نفوذ الخزر، وفي هذا الصدد أشارت الروايات البيزنطية إلى الوجود الخزري والموظفين الخزريين الذين يمثلون الخاقان في فاناجوريا التابعة

---

(86) Dunlop: op. Cit., p. 174.

(87) Hussey (J.M): The Byzantine World (New York, 1961), p. 41.

والترجمة العربية: هسي: العالم البيزنطي، ص ١٥١.

ترجمة : رأفت عبد الحميد.

(88) Barthold: Four studies on the Hist. Of central Asia, Vol. 3, p.86.

(89) Lewis: op. Cit., p.33.

(90) Ibid: p. 42.

لاملاك بيزنطة والبسفور، كما كان للخزر حاكم فى خرسون يسمى تودون Tudun(٩١)، ولا شك أن مملكة الخزر أرسلت ذلك الحاكم بعد خروج جستنيان الثانى من تلك المدينة وعودته مرة أخرى للعرش، ربما فى سنة ٧٠٤م، وبهذا الإجراء زاد نفوذ الخزر فى تلك المنطقة، ووقعت فى أيديهم أملاك بيزنطة، كما أن الأحوال السيئة التى مرت بها بيزنطة فى الفترة الأخيرة تركت لهم الحبل على الغارب لمد نفوذهم إلى أبعد مما كانوا يأملون.

ولهذا فإن من المؤكد أن حملة جستنيان الثانى على شبه جزيرة القرم لم تكن هدفها الجوهرى الانتقام من سكانها فقط - كما ذكرت المصادر المتأخرة التى بين أيدينا - ولكنها كانت تهدف فى المرتبة الأولى إلى استعادة الممتلكات البيزنطية التى استولى عليها الخزر من ناحية، وتأمين الممتلكات البيزنطية التى كانت مهدده بالضياع(٩٢).

وكيفما كان الأمر فبعد أن تلقت الحملة أوامرها كما ذكرنا آنفا انطلقت بقيادة ستيفانوس إلى تلك المناطق، ونجحت القوات الحربية البيزنطية فى الاستيلاء على خرسون دون مقاومة، كما نجحت فى أسر التودون الحاكم الخزرى وزويلس Zoilus قاضى المدينة وحوالى ثلاثين آخرين من أعيانهم، وتم إرسالهم مكبلين بالأغلال مع زوجاتهم وأبنائهم، وقد أمر جستنيان بربط أمراء خرسون على عروق خشبية وسياخ ثم شويهم. كما أن زعماء آخرين من مدن مجاورة بلغ عددهم نحو عشرين تم وضعهم فى أجولة وربطها بحجارة ثقيلة وألقى بهم فى البحر(٩٣).

---

(91) Theophanis : op. Cit., Vol. I, p. 578.

ذكر نيقفورس أن اسم هذا الحاكم الخزرى دونس Duns انظر :

Nicephorius : op. Cit., Tomus. C, p. 946.

(92) Dunlop: op. Cit., p. 174.

(93) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 946-7.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 578-9.
Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 413.

وكان أن أصدرت الأوامر للحملة بالعودة فورا إلى بيزنطة محملة بالأسرى، ولا توجد أسباب دفعت جستنيان إلى إصدار أمره بعودة الحملة على وجه السرعة سوى أنه استاء من ستيفانوس حيث إنه أبقى العديد من الشبان على قيد الحياة ولم يتعرض لهم بالقسوة. وعلى الرغم من أن الوقت كان غير مناسب للإبحار بهذا العدد الكبير من الأسرى والرجال، إلا أن قادة الحملة لم يكن أمامهم إلا الطاعة للإمبراطور،فما كادوا يبحرون حتى صادفتهم عاصفة هائلة حطمت معظم سفن الأسطول، وراح ضحيتها ثلاث وسبعين ألفا من الأنفس - طبقا لما ورد فى المصادر - وطفت جثثهم على المياه فى المنطقة الممتدة بين أماستريد Amastride، وهرقليا، وحينما علم جستنيان بذلك لم يأسف، بل شعر بفرح عظيم! وشرع فى اعداد أسطول آخر ليسوى خرسون بالأرض[٩٤].

أما بالنسبة لأهالى خرسون وبعد الكارثة والمأساة التى ألمت بهم وبرجال الحملة وأهالى البلاد المجاورة لشبه جزيرة القرم، قرر هؤلاء حينما علموا عزم جستنيان الثانى إرسال حملة أخرى. قرروا الاحتماء بحصونهم، وتقوية دفاعاتهم وعزموا على المقاومة، وأرسلوا وفدا إلى الخزر طالبين النجدة وتحالفوا ضد الإمبراطور جستنيان الثانى وأعلنوا الثورة، وتبعهم الجيش والأسطول على رأسهم رجلى الإمبراطور اللذين أرسلهما وهما الياس وباردانس[٩٥]ولا شك أن ما دفع قادة الحملة إلى هذا التصرف يرجع إلى ما أبداه جستنيان الثانى من تبلد تجاه الكارثة التى ألمت برجال الحملة.

Oman: op. Cit., p. 180.

(94) Nicephorius : Breviarium Historicum De Rebus Gestis Post Imperium Mauricii., in Patrologia Craec, Tomus. C, p. 947.

(95) Theophanis : Chronographia, in Corpus Scriptorum Histariae Byzantinae, Vol. I, p. 579.

Nicephorius : op. cit., Tomus. C, p. 947.

Ostrogorski: op. Cit., p. 127.

وحينما وصلت هذه الأخبار إلى العاصمة، قرر جستنيان تغيير موقفه وبادر بإرسال بعثة على رأسها البطريرك جريجوريوس ويوحنا والي المدينة وبعض الأمراء الآخرين ونحو ثلاثمائة رجل وكلفهم بمهمة إعادة حاكم الخزر التودون وزويلس لمنصبهما، والعودة بالياس وباردانس، والناجين الباقين على قيد الحياة من رجاله(٩٦).ولا شك أن تغير موقف جستنيان إزاء الخزر إنما يرجع بالضرورة إلى إداركه خطورة الموقف، وأن الصدام مع خاقان الخزر فى تلك الظروف أصبح وشيكا، وإن حدث سوف يعود على الإمبراطورية بأوخم العواقب، كما أن موافقته على إعادة الحاكم الخزرى إلى منصبه إنما هو ترجمة لمحاولة إعادة العلاقات الطيبة مع الخزر واعتذار مقنع من جستنيان للخزر ورغبة أكيدة فى كسب ود وعطف الخاقان، أما فيما يختص بمهمة إعادة الياس وباردانس إلى الإمبراطورية إنما يرجع إلى سخط الإمبراطور الشديد عليهما حينما قررا طرح طاعته وأعلنا مناوأته والثورة عليه مع أهل شبه جزيرة القرم.

وعندما وصلت البعثة إلى مدينة خرسون، رفض أهالى تلك المدينة الاستماع إليها، ثم ما لبث الأهالى أن فتحوا الأبواب وسمحوا بدخول جريجوريوس ويوحنا وأغلقوا الأبواب ولقي الاثنين حتفهم، فى حين أرسلوا الباقين وكانوا نحو ثلاثمائة إلى خاقان الخزر ومعهم حاكم الخزر على خرسون التودون ومعه زويلس، ولكن حاكم الخزر مات أثناء الطريق. ولما وصل الباقون إلى الخاقان اقام حفلا جنائزيا للتودون، وقتل الثلاثمائة انتقاما لأجله(٩٧).

(96) Nicephorius : op. cit., Tomus. C, p. 947.
Theophanis: op. cit., Vol. I, p. 580.
Dunlop: op. Cit., p. 175.

(97) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.
Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 580.
Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 413.

وبعد قتل سفراء جستنيان الثانى، خطت الثورة فى شبه جزيرة القرم خطوة أخرى على جانب كبير من الخطورة، إذ لم يكتفى المتمردون من رجال البعثة البيزنطية بالثورة على جستنيان الثانى وتوجيه لعناتهم إليه، بل قرروا المناداة بإمبراطور موال لهم من بينهم، ووقع اختيارهم على باردانس الأرمينى الأصل وبايعوه إمبراطورا واتخذ لقب فيليبكوس Philippicus (٧١١-٧١٣م) فى ظل حماية الخزر[٩٨].

ونتيجة لذلك اشتد سخط جستنيان الثانى بعد هذه الخطوة وأمعن فى الانتقام من أسرة قائده الياس فى بيزنطة، حيث أخذ أطفاله الرضع من أمهم وعذبهم عذابا شديدا وقتلهم، ثم جاء بأحد الطهاة وكان من الهنود المشوهة أعضاء جسمه وألزم زوجة الياس بالزواج منه[٩٩]، وتشير بعض الروايات إلي أن جستنيان أمره بالاعتداء عليها. كما ارتكب جستنيان عددا من الجرائم ضد العديد من الأبرياء فى العاصمة وشرع فى تجهيز حملة ضخمة زودها بكل أدوات التدمير والحصار وجعلها تحت قيادة البطريرك ماروس Maurus. وأمره أن يدمر خرسون عن آخرها، وإنهاء النفوذ الخزرى فى شبه جزيرة القرم، وفعلا عبرت الحملة البحر الأسود واستولت على قلعة سونا جروس وحاصرت خرسون سنة ٧١٠م وأخذت تقذف أبراجها ودفاعاتها الرئيسية إلا أن عنف المقاومة ووصول نجدة خزرية إلى المدينة أوقف أعمال التدمير[١٠٠].

---

(98) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.
Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 580.
Head: op. Cit., p. 52.
Brehier: op. Cit., p. 71.
Gibbon: op. Cit;.Vol. ii, p. 167.

(99) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.
Dunlop: op. Cit., p. 176.

(100) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581.
Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 413.
Obolensky: op. Cit., p. 171.

=

وفى القتال الذى دار بين أهالى خرسون والخزر وبين الحملة البيزنطية الأخيرة التى أرسلها جستنيان الثانى لتأديب أهالى خرسون، أحس باردانس فيليبكوس الثائر على الإمبراطور البيزنطى بحرج موقفه، فانسحب هاربا إلى بلاد الخزر[١٠١] غير أن الأوضاع ما لبثت أن صارت فى اتجاه آخر فقد أحس البطريرك ماروس بعجزه عن مواصلة حصار المدينة والاستيلاء عليها نظرا لوصول النجدة الخزرية التى أنقذتها من هلاك محقق، فى الوقت الذى لا يستطيع العودة إلى سيده الإمبراطور خائبا خشية أن يناله العقاب والتنكيل ، ولذلك قام ماروس بخطوة على جانب كبير من الأهمية إذ قرر التصالح مع أهل خرسون وشاركهم فى الخروج على طاعة جستنيان ولم يكتف بذلك، بل اعترف هو وجنوده بفيليبكوس إمبراطورا[١٠٢].

بعد ذلك تقدم القائد البيزنطى ماروس وجيشه إلى خاقان الخزر وأعرب عن ترحيبه بالإمبراطور الجديد فيليبكوس وطلب من خاقان الخزر أن يرافقه فيليبكوس إلى العاصمة ليتسلم العرش البيزنطى، إلا أن الخاقان رفض تسليم ضيفه إلى مواطنيه إلا بعد أن يتعهدوا بعدم اغتياله، ويؤدوا يمينا بأن لا يمس بسوء، ويدفعوا مبلغا من المال[١٠٣]. ضمانا لسلامته ولم يجد البيزنطيون غضاضة فى ذلك فبادروا بدفع المبلغ المطلوب وتسلموا الإمبراطور الجديد وجرى استقباله استقبالا حافلا من قبل رعاياه[١٠٤].

= Dunlop: op. Cit., p. 176.

(101) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.
Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581.
Rosenthal: Art. Chazar, Vol. iv, p.5.

(102) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581.
Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 947.
Head: op. Cit., p. 52.

(١٠٣) يذكر نيقغورس أن خاقان الخزر تسلم منهم مائة درهم ذهبية، بينما ذكر نظيره اليونانى ثيوفانيس أن الخاقان أخذ درهما عن كل رجل.

(104) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581-582. =

ويبدو أن خبر تلك الأحداث وصل سريعا إلى جستنيان، فطلب المساعدة مرة أخرى من تربل ملك البلغار، ولكن الوقت قد فات حيث تمكن فيليبكوس من الوثوب إلى القسطنطينية دون أدنى مقاومة. بينما كان جستنيان خارجها وقطع القائد البيزنطى ماروس رأس تيبريوس الصغير - ابن جستنيان - وعلقه على أحد البوابات المركزية فى المدينة، وأرسل الياس للقبض على جستنيان على رأس قوة صغيرة، وتمكن الياس من القبض عليه وقطع رأسه بعد أن تخلى عنه جنوده وأرسلها إلى فيليبكوس الذى أرسلها بدوره إلى روما وفيينا إمعانا فى التشفى منه.[١٠٥] وبذلك تكون العقوبة التى جرى اتخاذها فى القرن السابع وهى عقوبة جدع الأنف Rhinotmetus، لم تعد لها أهمية، ولم يجر تنفيذها مستقبلا على الملوك المغتصبين أو المخلوعين[١٠٦]. وبذلك تكون أسرة هرقل قد انتهت، كما انتهت حلقة هامة من حلقات الصراع بين البيزنطيين والخزر.

والحقيقة أن البعض يعتبر أن قسوة جستنيان وعنفه فى الانتقام من خرسون قد رمت بالممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة القرم فى أيدى الخزر[١٠٧]. غير أنه ينبغى بألا ننسى، أن خاقان الخزر كان يلعب دورا كبيرا على مسرح الأحداث بشبه جزيرة القرم. كما أن سلطته كانت آخذة فى الازدياد شيئا فشيئا، وليس أدل على ذلك من أن الخاقان حينما تخلى عن جستنيان الثانى جعل سقوطه أمرا مؤكدا فى حين أن فيليبكوس لم يكن يستطيع البقاء دون معاونته. وليس من المبالغة القول أنه

= Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 947.
Dunlop: The History of the Jewish Khazars, p. 176.
Brooks: The Successors of Heraclius to 717in Cambridge Medieval History,Vol.ii, p. 413.

(105) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 947-950.
Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 583.

(106) Ostrogorski: op. Cit., p. 126.
Head: op. Cit., p. 53.

(107) Obolensky: The Byzantine Commonwelth, p. 171.

كان بوسع خاقان الخزر فى تلك الحقبة أن يرفع حاكما جديدا فى بيزنطة، ويمنح البيزنطيين إمبراطورا جديدا، بعد أن أصبح للخزر فى سنة ٧١١م (٩٢هـ) وجود فعلى على سواحل البحر الأسود، وكان نفوذهم قد تطرق إلى هذه الجهات قبل ذلك بعقود عديدة(١٠٨).

ولم تكن العلاقات البيزنطية الخزرية آنذاك قاصرة على النواحى السياسية فحسب، بل تعدت ذلك بكثير لا سيما فيما يختص بالنواحى الدينية. وكانت بيزنطة ترقب ما يجرى بدولة الخزر من تغييرات دينية، خاصة أن فترة القرنين السابع والثامن الميلاديين، كانت فترة تنافس بين الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام للانتشار بين الخزر، ويبدوا أن مملكة الخزر كانت تفضل اليهودية من فترة سابقة، لذا فقد بادر جستنيان الثانى سنة ٦٩٢م بعقد مجمع ترولان الدينى Trullan لمعالجة قضية اليهودية، وصدر عن هذا المجمع بيان يدعو إلى استئصال شأفة اليهودية(١٠٩). وقد كان ذلك صدى لما يجرى بدولة الخزر من انتشار اليهودية، وسنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد.

- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ليو الثالث الأسيورى:

كانت هجمات العرب قد زادت على القسطنطينية، وكان على عرش الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت الإمبراطور ليو الثالث الأسيورى (٧١٧-٧٤١م) الذى تميز بشخصيته القوية وكفاءته العسكرية، وكان المسلمون يفكرون فى الاستيلاء على القسطنطينية، حيث كان لذلك ضرورة سياسية وحربية، ونجح المسلمون سنة ٧١٧م (٩٩هـ) فى حصارها بقيادة مسلمة بين عبد الملك لمدة سنة

(108) Dunlop: op. Cit., p. 174.
(109) Ibid: p. 177.

كاملة، ارتدوا بعدها سنة ٧١٨م دون أن يحققوا غرضهم، بفضل مهارة الإمبراطور ليو ومناعة العاصمة وظروف أخرى حالت دون سقوطها(١١٠).

وفى تلك الأثناء تجدد الصدام بين الخزر وجيوش الخلافة الأموية، وهو الصدام الذى أسهبت فى ذكره المصادر العربية، وعرف باسم الحرب العربية الخزرية الثانية، وعلى الرغم من الهزيمة التى حاقت بخاقان الخزر فى هذه الحرب، إلا أن الجيوش الإسلامية لم تستطع التوغل فى أراضى الخزر، وبعد سنوات من ذلك الصدام أقيم تحالف بين البيزنطيين والخزر، كان فى صورة زواج، حيث أقدم الإمبراطور ليو على اختيار أميرة خزرية زوجة لابنه قسطنطين وزوجه بها سنة ٧٣٢م (١١٤هـ)، مقيما بذلك حلفا مع الخزر ضد المسلمين، وكانت هذه الأميرة ابنه خاقان الخزر(١١١) واسمها شيشاك Chichak، وجرى تعميدها عقب زواجها، وأطلق عليها ايرين Iren حيث لم تكن مسيحية، ويذكر ثيوفانيس أن هذه الأميرة قد تعلمت الرسالة المقدسة، وعرفت بالصلاح والتقوى(١١٢) ولا بد أنه يقصد بالرسائل المقدسة التوراة العبرية التى يعتقد أنها تعلمتها فى بلاد الخزر(١١٣).

على أن المسلمين لم يلبثوا أن واصلوا حروبهم فى آسيا الصغرى، ولكن الإمبراطور ليو الثالث نجح فى إنزال هزيمة برية بالجيوش الإسلامية، التى حاولت

---

(١١٠) السيد الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ١٨٨.

(111) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 966.
Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 630.
Hussy: op. Cit., p. 28.
Brehier: Vie et Mort de Byzance, p. 76.
Vasilive: History of the Byzantine Empire, Vol. ii, p. 338.
Bernard: A History of Russia, p. 41.
Franzius: hist. Of the Bazantine Empire, p. 14.
Koestler : The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage, p. 14.
Sinor: Art. , Khazar in the New Ency. Britanica, Vol. v, p. 788.

(112) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 631.

(113) Dunlop : op. Cit., p. 177.

غزو آسيا الصغرى سنة ٧٤١م (١٢٢هـ)، وقد ساعدت ليو الأيسورى على تحقيق هذا الانتصار المساعدة الكبيرة التى تلقاها من مملكة الخزر[١١٤] وبذلك يكون الإمبراطور ليو الأيسورى قد حصد ثمرة تحالفه مع الخزر.

ولقد ذكر المؤرخ اليونانى زوناروس[١١٥] Zonaros عن الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٨٥م) الذى تولى عرش الإمبراطورية خلفا لوالده (بأنه لم يكن مسيحيا ولا هيلينيا (وثنيا) ولا يهوديا خالصا ولكنه كان مزيجا من الإلحاد وعدم التقوى، "ويذكر أيضا زوناروس أن قسطنطين قد تأثر بأفكار زوجته الخزرية، فأصبح يهوديا إلى حد ما". ولعل كل هذه الدلائل تشير إلى وجود اليهودية بين الخزر فى وقت زواج قسطنطين من تلك الأميرة الخررية.

وقد أحدثت الأميرة الخزرية زوجة قسطنطين فى البلاط البيزنطى زيا جديدا، حينما قدمت ردائها العالمى الذى كان يطلق عليه تزيتزاكيون Tzitzakion[١١٦]. وثمة رمز حي لوضع ونفوذ الخزر في الإمبراطورية البيزنطية تمثل في الإمبراطور ليو الرابع، ثمرة زواج ايرين من قسطنطين وقد لقب بليو الخزرى نسبة إلى أمه[١١٧] التى ورث منها الرفعة والأدب والاعتدال[١١٨] على أن ايرين ابنه خاقان الخزر قد توفيت، وظل قسطنطين ثلاثة أعوام دون زواج، وحاول بعض الدهاة أن يعزلوه، وأشاروا عليه على سبيل التجامل أن يتزوج، فقال لهم وهو عارف

---

(١١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، ص ١١٤-١١٥.

(115) Epitomae Histariarum, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, 1797), T. 3, p. 265.

(116) Costantine Porphyregenitus: De Cerimoniis Aulae Byazntinae., in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonnae, 1829), Vol. I, p.22.

(117) Runciman : Byzantine Civilization, p. 44.

والترجمة العربية: رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٤٣.

ترجمة : عبد العزيز جاويد

بغدرهم "أن شريعة الروم غير خافية عنى، واعتقد أن الملك خليق بأن لا تستعبده الشهوة، ومع هذا فإنى ممتثل مشورتكم إن رأيتم ذلك فرضا واجبا بشرط أن تنادوا بابنى إمبراطورا"[119] وفعلا كان الإمبراطور القادم هو ليو الخزرى الذى حكم الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٧٧٥ إلى ٧٨٠م.

ولكن الشيء الذى يدعو إلى الدهشة ما وجدناه فى إحدى مؤلفات المؤرخ البيزنطى قسطنطين بورفيروجينيتوس، الذى يتحدث عن أحد الأباطرة البيزنطيين ويدعى ليو الذى تزوج بأمرأة من الخزر، وفى مكان آخر كرر ما ذكره آنفا حيث تحدث عن إمبراطور يدعى ليو خالف تعاليم الرب والكنيسة حين عقد تحالف مع خاقان الخزر وتزوج ابنته[120] والحقيقة أن ما أورده ليس صحيحا، حيث لا يوجد إمبراطور باسم ليو تزوج من أميرة خزرية، ولكن هناك ليو الثالث الذى زوج ابنه قسطنطين الخامس من تلك الأميرة المذكورة، وهناك أيضا ليو الرابع المعروف باسم ليو الخزرى نسبة إلى والدته الخزرية الأصل، وليست زوجته، أما ليو الثالث الأيسورى فقد تزوج من امرأة أثينية. وخلاصة القول أنه ليس هناك شك فى أن قسطنطين الخامس هو الذى تزوج أميرة خزرية، أنجبت له ليو الرابع الذى عرف بالخزرى نسبة إلى والدته. وقد أوقعت هذه الروايات الغير دقيقة المؤرخ الشهير جيبون فى الخطأ

---

(118) Rosenthal: op. Cit., Vol. iv, p. 5.

(119) Bar Hebraeus : The Chronography of Gregory Abul Farai (trans by Budge). p; 113.

والترجمة العربية: ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص٨.

ترجمة : اسحق أرملة.

(120) De Administrando Imperio, in Corpus Scriptarum Gistoriae Byzantinae, p. 83-87.
and trans. By Junkins. p. 69-73.

والترجمة العربية لمحمود سعيد عمران: إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ٦٧-٧٠.

فيما يختص بزواج أحد الأباطرة البيزنطيين من "زوجة بربرية" حيث ذكر أنه ليو، وأحيانا ذكر أنه قسطنطين الرابع (الذى لابد وأن يكون الخامس)[١٢١].

وعلى أية حال، فقد ظلت العلاقات البيزنطية الخزرية بقية القرن الثامن تتسم بالمودة وحسن الجوار، حيث لم تشر المصادر إلى ما يعكر صفو العلاقات بين الطرفين. ويبدو أن انشغال الخزر بحروبهم ضد المسلمين كان العامل الأكبر فى بقاء جسور الصلات بينهم قوية، فضلا عن حرص الطرفين على أن يسود الوئام بينهما أمام عدو مشترك.

ومما يذكر أن القرم والبسفور وخرسون كانت ملجأ للرهبان والمضطهدين فى الإمبراطورية البيزنطية، كما أن قوط القرم كانوا خاضعين لسلطان الخزر، وفى النصف الثانى من القرن الثامن نظم أسقفهم القديس يوحنا St. John أبرز وأشهر أيقونى ثورة فاشلة ضد الخزر انتهت بحبسه، ثم هرب عن طريق البحر إلى أماستريا Amastris حيث مات هناك. ولقد استولى الخزر على العاصمة القوطية دوروس فى فترة تعود إلى ما قبل سنة ٧٨٧م بقليل[١٢٢] إلا أن الخزر لم يحتفظو طويلا بها، فبعد سنوات قليلة وقعت تلك العاصمة فى أيدى البيزنطيين[١٢٣].

وتشير الروايات التاريخية أيضا إلى واحدة من المرات القليلة التى وقف فيها الخزر موقف العدو وليس الصديق تجاه الإمبراطورية البيزنطية، كما كانوا طوال الفترة الأخيرة لا سيما قرب أواخر القرن الثامن الميلادى حيث كان الخزر حلفاء للأبخاذ وكان أحد ملوكهم ويدعى ليو الثانى قد تزوج من أميرة خزرية، واستطاع الأبخاذ الاستقلال عن بيزنطة بمساعدة الخزر حيث قدموا لهم العون والتأييد[١٢٤].

---

(121) Gibbon : op. Cit., Vol. ii, p. 534.
Dunlop : op. Cit., p. 178, n. 34.

(122) Obolensky: op. Cit., p. 174.
Bury: op. Cit., p. 409.

(123) Dunlop: op. Cit., p. 183.

(124) Barthold: Art. , Abkhaz, in Ency. of Islam, Vol. i. =

ولكن السلام ظل بين البيزنطيين والخزر، ذلك أن المبدأ الأول الذى ارتكزت عليه سياسة الإمبراطورية كان يقوم على تدعيم السلام مع الخزر، وكان هذا هو النتيجة المباشرة لموقع إمبراطورية الخزر الجغرافى الفريد بين الدنيبير والقوقاز. حيث كانت تقترب من تخوم البلغار والمسلمين(١٢٥). وعلى الرغم من ذلك فإن نذر الحرب بين البيزنطيين والخزر كانت قائمة، لأن روح العصر كان يغلب عليه المصالح الخاصة وليست علاقات المودة والتفاهم، لذا فإن المؤرخ البيزنطى قسطنطين بورفيروجينتوس، يلخص لنا الدبلوماسية البيزنطية فى كبح جماح الخزر إذا ما تطلب الأمر، حيث يذكر أن الأتراك الغز يستطيعون مهاجمة الخزر لأنهم مجاورون لهم، ويستطيع أيضا الآلان آن يلحقوا بالخزر الدمار، إذا ما فكروا فى الهجوم على أملاك الدولة البيزنطية(١٢٦) ويؤكد ذلك أن هناك وثيقة بالعبرية تفيد بهجوم شنه الآلان على بلاد الخزر بتحريض من البيزنطيين(١٢٧).

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس:

ويبدو أن السلام كان يخيم على العلاقات البيزنطية الخزرية حيث تشير الروايات البيزنطية عن سفارة أرسلها خاقان الخزر سنة ٨٣٣م (٢١٨هـ) إلى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) يطلب المساعدة لتشييد قلعة ساركل Sarkel الخزريةولبى الإمبراطور نداءهم وأرسل إليهم مهندسين وأرباب حرف مهرة على رأسهم السباثاروكانديدات Spatharocandidate وبتروناس كاماتيروس Camaterus Patronas الذى أشرف على بنائها على نهر

= Shirin Akiner : Islamic people of the Soviet Union, (London, 1983), p. 221.

(125) Bury: op. Cit., p. 414.

(126) Constantine Porephyrogentus: op. Cit., p. 80 – and trans by Junkins, pp. 63-5.

(127) Koestler: op. Cit., pp. 76-77.

الدون[١٢٨]. ويبدو أن هذا الطلب الخزرى من الإمبراطور البيزنطية كان طلبا استراتيجيا بحتا، ولكن الشيء الجديد بالملاحظة أنه ليس من المعروف بالضبط العدو الرئيسي الذى أقيمت من أجله هذه القلعة التي من شأنها صده وإيقافه، ويختلف المؤرخون المحدثون في تحديد العدو الرئيسي، فبعضهم يجعل ذلك العدو أولئك القادمون الجدد على مسرح الأحداث، أعني بذلك قراصنة الشمال الذين أطلق عليهم الروس، والبعض الآخر يشير إلى أنها أقيمت للدفاع ضد البجناك (البشناق) حيث خشي الإمبراطور البيزنطي على أمن التجارة البيزنطية في تلك المنطقة، والبعض يرى أنها أقيمت للدفاع ضد المجر. ومهما يكن من أمر، فإن الاختلاف بين المؤرخين حول السبب الذى من أجله أقيمت قلعة ساركل، فليس من المبالغة إذا قلنا إن تلك القلعة أقيمت لصد خطر هذه الشعوب جميعا.

استمرت العلاقات البيزنطية الخزرية قائمة، إلا أن ظهور الروس كان يشكل خطرا جسيما على الإمبراطورية البيزنطية والخزر معا، وكانت قوة الخزر قد بدأ يعتريها الضعف، ولقد قام الأمير الروسي سفياتوسلاف Svyatoslav (٩٦٢-٩٧٢م) سنة ٩٦٥م بحملة على الخزر وتمكن من هزيمتهم والاستيلاء على قلعة ساركل

---

(128) Constantinus Porephyrogenitus: op. Cit., p. 177.
And trans by Junkins, pp. 183-5.
Cedrenus : op. Cit., Vol. ii, p. 528.
Mavor : An Economic History of Russia, (London, 1925), Vol. I, p. 14.
Art. Khazar, in Chambers's Ency. (London, 1973), Vol. vii.
Art. Khazar, in Harmswarth Ency. (London, 1906), Vol. vi.
Brutzkus: op. Cit., p. 109.
Bury : A History of the Eastern Roman Empire, p. 416.
Greusset: L'Empire Des stepps, p. 236.
Ostrogorski: History of the Byzantine state, p. 184-185.
Macarthey : The Magyars in the ninth Century, p. 74.
Rosenthal : Art., Chazar in Jewish Ency., Vol. iv, p.5.
Klaproth : Memorie sur les Khazar, T. 3, in Jouranal Asiatique, p. 159.

الخزرية[129]. وأغلب المؤرخين أشاروا إلى أن هذه الحملة كان فيها نهاية الخزر، والحقيقة أن تحطيم ساركل كان إيذانا بنهاية الخزر، وبدخولنا في القرن الحادى عشر تتغير المصالح والأهداف حيث كان التحالف البيزنطى الروسى ضد الخزر والذى تمثل فى الأسطول الذى أرسله الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) سنة ١٠١٦م إلى بلاد الخزر يعضده أسطول روسى، وكان على رأس هذا الأسطول القائد البيزنطى سفنكوس Sfengos، وتمكن الفريقان من السيطرة على إقليم خزريا والقبض على جورجيوس Georgios خان الخزر[130] والحقيقة أن هذه الحملة جاءت نهاية لاستقلال الخزر بعد أن فقدت معظم أملاكها فأخذت تختفى رويدا رويدا من صفحات التاريخ.

ولم نسمع بعد ذلك إلا بإشارات بسيطة عن مملكة الخزر، حيث كانوا جيران لا مارة طموطرخان، وتدخلوا فى الفتن التى حدثت فى تلك الإمارة سنة ١٠٨٣م[131]. كما أن المصادر الإسلامية لم تذكر شيئا عن الخزر واضمحلالهم، باستثناء ابن الأثير الذى ذكرهم فى حوادث سنة ٤٢١هـ(١٠٣٠م) حين أغار القائد فضلون الكردى والى كنجة على الخزر الذين كمنوا له وباغتوه فى طريق رجوعه وقتلوه[132]. وإن كان البعض يذكر أن الإغارة على الخزر من ناحية كنجة أمرا بعيد

---

(129) Machenzie & Curran : op. Cit., p. 33.
Summer : op. Cit., p. 35.
Weinryb (B. P.) : The Jews of Poland, (Philadelphia, 1973), p.21.
Hodgson (G. S): The Venture of Islam, (Chicago, 1974), p. 414.
Abnour: Histore Abregee Des Peuples De la Russie (Paris, 1909)p.29.
The Times Atlas of World History, p. 114.
Art. Khazars, in the standard Jewsh Ency. (Jrusalem, 1958).
Art. Khazar, in the Ency. Americana (1829), Vol. 16.

(130) Cedrenus: op. Cit., Vol. ii, p. 464.
Grousset: L'Empire des steppes, p. 237.
Art. Chazar, in Chamber's Ency. (1923), Vol.3.

(131) Dunlop: op. Cit., p. 252.

(132) الكامل فى التاريخ، حـ٧، ص ٣٥١.

الاحتمال لأسباب جغرافية، والأرجح أن الخزر قد ورد ذكرهم في هذا الموضع خطأ والمقصود هم أهل الكرج أو الأبخاز(١٣٣). وبدخلونا في القرن الثالث عشر تجف موارد مصادرنا، ولم نسمع شيئا عن الخزر، وإن كان هناك بقية من بقايا الخزر، فقد اختفوا بظهور المغول واكتساحهم آسيا وأوربا وإقامتهم لأكبر إمبراطورية بدوية رآها العالم والتي امتدت من الصين إلى هنغاريا.

---

(133) Barthold & Golden: Art. Khazar, in Ency. of Islam.

الفصل الثالث

مملكة الخزر

وعلاقتها بالمسلمين فى القرنين السابع والثامن الميلادى

- علاقة الخزر بالمسلمين فى صدر الإسلام.
- علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة الأموية.
- علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة العباسية.

انتهت الحروب بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية بضعفهما وإنهاك قواهما على أيدى جيوش كل منهما. وفى الصلح الذى تم بين القوتين سنة ٦٢٨م، انتهت مرحلة من الصراع المرير بين الشرق والغرب.

وفى ذلك الحين - أى فى أوائل القرن السابع الميلادى - وقعت فى شبه الجزيرة العربية أحداث كان لها أهميتها العالمية وآثارها البعيدة، إذ ظهر محمد ﷺ نبى الإسلام فى مكة، يدعوا الناس إلى وحدانية الله.

ولقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة سنة ٦٢٢م، فوجد أحزابا غير متجانسة، فعمل على توحيدها ووضع أسس وقواعد الدولة العربية الجديدة، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم اتخذ النبى للدين الإسلامى مسجدا للصلاة ووضع نظاما للحياة الاجتماعية فى المدينة، ثم شرع الجهاد فى سبيل الله عندما وقف منه المكيون موقفا مضادا.

وكان لتشريع الجهاد أثر كبير بالنسبة للمسلمين بالمدينة، فقد أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل. ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية، عليهم أن يجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب. ولتحقيق هذا الهدف السامى خاضوا غمار كثير من المعارك الحربية بقيادة النبى ﷺ، وهى ما عرفت بالغزوات.

ولقد نجح الإسلام فى شبه الجزيرة العربية فى أن يجمع القبائل العربية فى صعيد واحد، حيث ألف بين قلوبهم وقضى على العصبية الجاهلية، وأنهى حالة الفوضى والتفكك السياسى، كما نجح فى القضاء على النزاع القبلى، فزالت الحزازات القديمة، وأصبح للمسلمين فى شبه الجزيرة العربية حكومة واحدة يدينون لها بالطاعة والخضوع، ويدينون بدين واحد. شعاره لا إله إلا الله محمد رسول الله،

بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين، وبذلك قامت فى بلاد العرب حكومة مركزية قوية فى إيمانها وشخصيتها، وأصبحت القبائل العربية ترى فى الإسلام رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها.

ولما لم تكن الرسالة المحمدية موجهة للعرب وحدهم لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ليهدى الناس كافة عامة إلى دين الحق كما جاء فى قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[1] وكما قال تعالى: "إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكره وأصيلا"[2]، فقد كان الرسول ﷺ بعد أن اطمأن لانتشار الإسلام داخل شبه الجزيرة العربية، أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق هذا الدين الحنيف.

لذا فإنه فى سنة ٦٢٨م (٧هـ)بادر بإرسال كتب بأيدى سفراء ورسل إلى البلاد المجاورة. ولكن بعض هذه الأمم لم تعن بالرسالة الموجهة إليهم. ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبى ﷺ إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضا وامتهانا، مما دفع النبى إلى أن يعد العدة للغزو والجهاد. ومن ثم بدات موجة الفتوح العربية.

ولم يتوقع البيزنطيون أو الفرس أن تخرج من شبه الجزيرة العربية جيوش فتية تهدد كيانهم وتبتلع أجزاء واسعة من العالم. وقد خرجت تلك الجيوش لنشر الإسلام والدفاع عن كيانه وتأمينه من أخطار الشعوب التى تحيط به.

على أن موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكبير إلا عقب وفاة الرسول ﷺ سنة ٦٣٢م (١١هـ). وكان أبو بكر الصديق (٦٣٢-٦٣٤م/١١-١٣هـ)خليفة رسول

---

(١) القرآن الكريم: سورة سبأ، آية ٢٨.

(٢) القرآن الكريم: سورة الفتح، آية ٨-٩.

الله قد بدأ عهده بمشكلة كبرى كادت تعصف بحكومته وتتسبب فى انهيار الوحدة العربية والتى تمثلت فى حركة الردة، ولكن المسلمين نجحوا فى قمع هذه الحركة والقضاء عليها قضاءا مبرما، وبسط المسلمون نفوذهم على سائر شبه الجزيرة العربية، واسترجعوا وحدتهم السياسية والدينية، واستعادت الدولة العربية الإسلامية قوتها التى تصدعت بعد وفاة الرسول ﷺ.

وبعد أن تم القضاء على حركة الردة، كان من الطبيعى أن يستشعر المسلمون كيانهم وقوتهم، فبدأوا يتطلعون إلى العالم المحيط بهم خارج نطاق شبه الجزيرة العربية، بغية نشر الإسلام ورفع رايته، ولقد بدأ الخليفة أبو بكر الصديق بالفعل فى توجيه أنظار المسلمين إلى الفتح الخارجى حيث وجه الجيوش الإسلامية إلى كل من العراق والشام لتخليصها من يد الفرس والروم.

وبينما كانت الجيوش الإسلامية تخوض أشرس المعارك مع إمبراطوريتى الفرس والروم خشى الخليفة أبو بكر الصديق أن يختلف المسلمون لو تركهم بلا خلافة كما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ، ولهذا أوصى بانتخاب عمر بن الخطاب خليفة له بعد استشارة وموافقة كبار الصحابة.

علاقة الخزر بالمسلمين فى صدر الإسلام:

وفى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م/ ١٣-٢٣هـ) استمرت الفتوحات الإسلامية العظيمة خارج شبه الجزيرة العربية، واتسعت الدولة العربية الإسلامية بعد الانتصارات الحاسمة التى حققتها الجيوش العربية الإسلامية على الفرس والروم.

وفى عهد الخليفة عمر بن الخطاب أيضا وجه المسلمون أنظارهم إلى بلاد القوقاز، وكان بكير بن عبد الله الليثى أول من وصل إلى دربند الخزر وذلك فى سنة

٦٤١م (٢١هـ)، حيث أفلح فى فتح العديد من المدن والحصون بباب البواب، وأصطلح مع أهل دربند على مال يدفعونه للمسلمين[٣].

وفى سنة ٦٤٢م (٢٢هـ) أمر الخليفة عمر بن الخطاب سراقة بن عمرو وكان يدعى ذا النور بالمسير على رأس جيش من المسلمين إلى بلاد الباب – المعروفة بالدربند –، وجعل عل مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وكان يدعى أيضا ذا النور وجعل على أحد مجنبتيه حذيفة بن سعيد الغفارى، وعلى الأخرى بكير بن عبد الله الليثى الذى كان قد سبقهم إلى الباب، وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلى، وتقدموا بناء على أوامر الخليفة إلى الباب[٤].

ولما وطئت أقدام عبد الرحمن بن ربيعه الباهلى أراضى الباب، طلب شهربراز ملك هذه البلاد مقابلة عبد الرحمن وقال له: "إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة، لا ينسبون إلى أحساب، وليس ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان، ولست من القبج[٥]فى شىء، ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى، فأنا اليوم منكم ويدى مع ايديكم وصغوى (ميلى) معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية

---

[٣] حمد الله قزوينى: تايخ كذيذة، حـ١، ص١٨٠.

[٤] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص ١٥٥.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ٣، ص ١٤.

ابن الكثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٥.

دحلان: الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية، حـ١، ص١٠٧.

Dunlop: The History of the Jewish khazars, p. 47.

[٥] القبج: يقال القبق والقبج والقبجق، وهو عبارة عن جبل متصل بباب الأبواب وبلاد الـــــلان، وهو آخر حدود أرمينيا وكان له نحو اثنان وسبعون لسان، لا يعرف كل إنسان لغة صاحبه إلا بترجمان: انظر ياقوت: معجم البلدان، حـ٧، ص٢٧.

فتوهنونا لعدوكم". وقرر القادة بعد أن عبر شهربراز عما يكنه من سخط وكراهية الأمم القاطنة حوله، وعن نياته الحسنة تجاه المسلمين إعفائه من الجزية التى كان يرى فيها ما يشعره بالذلة بعد موافقة الخليفة على أن يعاون المسلمين[٦].

وفيما بعد جهز سراقة بن عمرو أربعة جيوش استهدف من ورائها فتح البلاد المحيطة بأرمينيا وهى اللان وتفليس وموقان[٧]، ولما فتحها كتب إلى عمر بن الخطاب يبشره بالفتح. وفى غضون ذلك مات سراقة دون أن يهنأ بفتوحه. وخلفه عبد الرحمن بن ربيعه الباهلى، ولما علم الخليفة أقره على ذلك وأمره بغزو الترك[٨].

وكان أول احتكاك فعلى بين المسلمين والخزر، عندما خرج عبد الرحمن بن ربيعة فى سنة ٦٤٢م (٢٢هـ) على راس المسلمين تنفيذا لأوامر الخليفة، فقطع الباب وقابله هناك شهربراز حيث قال له: "ما تريد أن تصنع؟ أريد بلنجر، قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب. قال: لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم، وتالله إن معنا لأقوام لو يأذن لنا أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الروم. قال وما هم؟ قال أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا فى هذا الأمر بنية كانوا أصحاب حياء وتكرم فى الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائما لهم،

---

[٦] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص١٥٦.
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٣، ص ١٤.
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ١٩. ص٢٦٨.

[٧] موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى، فأكثر أهلها منهم.
انظر – ياقوت: معجم البلدان، حـ٨، ص١٩٩.

[٨] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص١٥٧-١٥٨.
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ١٩، ص٢٦٩.
ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٥.
دحلان : الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٠٨.

ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم." وتمكن المسلمون بقيادة عبد الرحمن بن ربيعه من الوصول إلى بلنجر وغزوها حتى بلغت خيلهم مدينة البيضاء[٩] على بعد مائتى فرسخ من بلنجر، وعاد السلمون دون أن يقتل منهم أحدا[١٠]. ومما يجدر ذكره أن المسعودى[١١] قد ذكر أن بلنجر هى العاصمة الأولى للخزر.

وقد استمر عبد الرحمن بن ربيعه فى قيادة العمليات الحربية الموجهة لبلاد الخزر، وبدأ القيام بسلسلة طويلة من الحملات شنها على الخزر والترك أدت إلى فرارهم إلى المناطق الشمالية من بلاد الخزر، ذلك أنهم أجبروا على التخلى عن مواقعهم، ولم يستطيعوا المقاومة والتصدى للجيوش الإسلامية، حتى قالوا: "ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت" وعاد عبد الرحمن مظفرا ومحملا بالغنائم[١٢].

---

(٩) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.
انظر ، ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص٣٣٦.

(١٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص١٥٨.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ٣، ص ١٤-١٥.
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ١٩، ص٢٦٩ -٢٧٠.
ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٦.
دحلان : الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٠٨.
Dunlop: op. Cit., pp.49-50.

(١١) التنبيه والأشراف، ص ٦٣.

(١٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص١٥٨.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ٣، ص ١٥.
ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٦.

وفي شبه الجزيرة العربية وبعد وفاة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٤م (٢٣هـ) تولى الخلافة عثمان بن عفان(٦٤٤-٦٥٦م/ ٢٣-٣٥هـ)، وقد عمل الخليفة الراشد على توطيد نفوذ العرب في كثير من البلاد التي تم فتحها، كما لم تنقطع سلسلة الفتوح التي بدأها المسلمون من قبل، بل تقدمت الجيوش في عهده شرقا إلى فارس وغربا في المغرب وجنوبا إلى النوبة وشمالا إلى أرمينيا.

وفي بلاد القوقاز كان عبد الرحمن بن ربيعه يواصل شن الهجمات على مدينة بلنجر الخزرية، ولم يترك الخزر ينعمون بالاستقرار لحظة، وكانت هجمات المسلمين تزلزل وجودهم، وكتب إليه الخليفة عثمان وهو على الباب يأمره بعدم التوغل بجيش المسلمين ويبدو أن الخليفة خشي على المسلمين، وكره أن يخاطر عبد الرحمن بن ربيعه بالمسلمين في منطقة لا يعرف طرقها ومسالكها، إلا أن ذلك لم يجعل عبد الرحمن يعرض عن غايته، ففي سنة ٦٥٢/ (٣٢هـ) تقدم على رأس جيشه حتى وصل بلنجر، وقام بحصارها ونصب عليها المجانيق والعرادات وقضى على كل من تعرض للمسلمين من الخزر. وكان قد شاع بين الخزر أن المسلمين قوم لا يقتلون على أساس أن المسلمين قد غزوهم من قبل فلم يقتل منهم أحد، ولهذا ظنوا أنهم لا يموتون وقالوا: " كنا أمة لا يقرن لنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها"[١٣].

---

[١٣] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص ٣٠٤-٣٠٥.
وقد ذكر ابن أعثم، أن قادة هذه الحملة سلمان بن ربيعه وليس عبد الرحمن بن ربيعه، أنظر:
ابن أعثم : كتاب الفتوح، حـ٢، ص١١١-١١٤.
كما ذكر أيضا البلاذرى، أن قائد هذه الحملة سلمان بن ربيعة ولم يذكر شيئا بشأن عبد الرحمن بن ربيعه. انظر:
البلاذرى : فتوح البلدان، ص٢٠٦.
فى حين أن ياقوت لم يستطع أن يقرر من هو قائد هذه الحملة هل هو سلمان بن ربيعه أم أخيه عبد الرحمن بن ربيعه.
ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص٢٧٨.

ويروى أن خاقان الخزر حينما سأل عن عجز ثلاثمائه ألف خزرى من هزيمة عشرة آلاف مسلم قال: "أنه قد بلغني عن هؤلاء القوم أنهم نزلوا من السماء وأن السلاح لا يعمل فيهم" وكان المسلمون قد تجمعوا عند أحد الأنهار لكى ينظموا صفوفهم استعدادا لهجوم على الخزر، وأقبل عليهم رجل خزرى يتجسس على جيش المسلمين، ووقع بصره على أحد المسلمين يغتسل وأحب أن يجرب السلاح أيعمل فيه أم لا، فرماه بسهم أرداه قتيلا فى الحال، فأحتز رأسه وجرده من ثيابه وجاء به أمام خاقان الخزر، وأقنعه بإمكان هزيمة المسلمين[١٤]. ولا شك أن الذى دفع الخزر إلى الاعتقاد بعد التغلب على المسلمين هو قوة المسلمين وعقيدتهم الراسخة التى تشكل لديهم الأرادة القتالية التى لا تقهر، عقيدة الجهاد فى سبيل الله للدفاع عن الدين وإعلاء كلمة الله.

وكان أن جمع خاقان الخزر قواته للقيام بحملة انتقامية من المسلمين، وتم اللقاء بين قواته وقوات المسلمين ونشب القتال بين الفريقين، وبلغ القتال أشده، فاختلت صفوف المسلمين وانهارت مقاومتهم وتشتت شملهم، وقتل عبد الرحمن بن ربيعه، وانهزم المسلمون وسقط عدد كبير منهم صرعى. ولم يستطع من بقى من المسلمين مواصلة القتال فانسحبوا من ميدان القتال، وتفرقوا فرقتين، فرقة اتجهت نحو الباب حيث التقوا بسلمان بن ربيعه الذى سيره سعيد بن العاص ليمد يد العون للمسلمين بناء على أوامر الخليفة عثمان، وفرقة اتجهت ناحية جيلان[١٥] وجرجان[١٦] وكان بها سلمان الفارسى وأبو هريرة[١٧].

---

[١٤] ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٢، ص ١١٣-١١٤.

[١٥] جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان.
انظر : ياقوت : معجم البلدان، حـ٣، ص٧٥.

[١٦] جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.
انظر : ياقوت : معجم البلدان، حـ٣، ص١٩٤.

[١٧] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص٣٠٤-٣٠٥. =

وقد بلغ عدد من قتل فى تلك الواقعة أربعة آلاف مسلم، وفى ذلك يقول ابن جمانه الباهلى:

وإن لنا قبرين قبر بلنجر ... وقبر بصين استان يالك من قبر
فذاك الذى بالصين عمت فتوحه ... وهذا الذى يسقى به سبل القطر[18]

ويذكر ياقوت الحموى[19] أن الخزر لما قتلوا عبد الرحمن بن ربيعه وأصحابه كانوا ينظرون فى كل ليلة نورا على مصارعهم، فأخذوا جسد عبد الرحمن ووضعوه فى تابوت، "فهم يستسقون به إذا أصابهم القحط ويستنصرون به"،أما الذى بالصين فهو قتيبة بن مسلم الباهلى.

وبعد تلك الهزيمة القاسية التى نزلت بالمسلمين أخذ سلمان بن ربيعة أخو عبد الرحمن الراية، وحينما علم الخليفة عثمان بما حل بالمسلمين، أقلقه ذلك فبادر بإرسال مدد للمسلمين، وكان على رأسهم حبيب بن مسلمة[20].

ولا شك أن الهزيمة التى لحقت بعبد الرحمن بن ربيعه وأدت إلى مقتله ترجع إلى أنه خاطر بقواته دون أن يستعد الاستعداد الكافى، وقد سبق أن رأينا أن

= ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ٣، ص ٦٦.

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ١٩. ص٢٧٠.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٦.

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٤، ص١٣٩.

Becker (C.H): The Expansion of the Saracense., in Cambridge Medieval History., (Cambridge,1980) Vol. ii, p.353.

Koestler : The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage., p.27.

(18) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٢٠٦.

(19) ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص٢٧٨.

(20) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص٣٠٥.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٠٩.

الخليفة عثمان بن عفان أشار عليه بعدم التوغل فى بلاد الخزر قبل أن تصله الإمدادات العسكرية.

ومهما يكن من أمر، فإن الصراع الذى خاضه المسلمون مع الخزر فى منطقة القوقاز والذى انتهى بهزيمتهم ومقتل قائدهم وفشلهم فى الاستيلاء على بلنجر التى هاجموها مرارا، يعتبر نهاية أول احتكاك فعلى بين المسلمين والخزر(٢١).

وعلى الرغم من انتصار الخزر إلا أن المسلمين أرغموهم على الهجرة من الدربند سنة ٦٦١م (٤١هـ) ونقل مركزا إمبراطوريتهم نحو الشمال(٢٢) ويشير المسعودى إلى أن الخزر انتقلوا من سمندر عاصمتهم التى افتتحها المسلمون إلى مدينة آتل(٢٣). ويرجع السبب فى ذلك إلى إحساس الخزر بخطورة المد الإسلامى الأمر الذى دفعهم إلى البحث عن مكان أكثر أمنا، ولم يكن يتسنى ذلك إلا بالانتقال شمالا.

وقد عرفت الحروب السابقة التى دارت بين المسلمين والخزر عند المؤرخين المحدثين بالحرب العربية الخزرية الأولى (٦٤٢-٦٥٢م/ ٢٢-٣٢هـ) وهى تعتبر حلقة هامة من حلقات الصراع بين مملكة الخزر والخلافة الإسلامية.

وفى الفترة التالية خيم السلام على القوقاز ما يقرب من ثلاثين عاما، لم يحدث فيها احتكاك بين المسلمين والخزر، حيث صمتت المصادر الإسلامية عن الإشارة إلى ذلك، ولم نسمع بحملة قام بها المسلمون ضد الخزر، ويرجع السبب فى ذلك إلى الاضطرابات التى شغلت الخلافة الإسلامية بعد وفاة الخليفة عثمان بن عفان ٦٥٦م (٣٥هـ)، إذ حولت أفكار الفاتحين بعيدا عن تلك البلاد.

---

(21) Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p.945.

(22) Sinor: Art. Khazar in the New Ency. Britt, Vol. v, 788.

(٢٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص ١٥٣.

علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة الأموية:

لقد حدثت فتنة فى أواخر عهد عثمان ومات بسببها ثالث الخلفاء الراشدين، ولم تخمد نار الفتنة فى عهد الخليفة الراشد على بن أبى طالب الذى تولى الخلافة سنة ٦٥٦م (٣٥هـ) وفى النزاع الذى دار بين على معاوية بن أبى سفيان حول الخلافة، انتهى الأمر بقيام الدولة الأموية سنة ٦٦١م (٤١هـ). وصار معاوية خليفة للمسلمين (٦٦١-٦٨٠م/ ٤١-٦٠هـ) واتخذ دمشق مقرا له. وفى عهده استؤنفت الفتوحات الإسلامية. ولكنها لم تكن موجهة إلى بلاد القوقاز، بل عاود المسلمون مهاجمة القسطنطينية موطن قوة الدولة البيزنطية.

وهنا نلاحظ أن العلاقات البيزنطية الخزرية فى ذلك الوقت كان يغلب عليها المودة وحسن الجوار، ففى عهد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م) بدأ معاوية يوجه أقوى الضربات للإمبراطورية البيزنطية، حيث انطلق فى سنة ٦٧٣م (٥٣هـ) أسطول ضخم وجيش كبير من بلاد الشام ومصر وحاصر القسطنطينية عدة سنوات (٦٧٣-٦٧٩// ٥٣-٥٩هـ)، ولم ينقذها من السقوط فى أيدى المسلمين سوى النار الإغريقية التى اخترعها المهندس السورى الأصل كالينقوس Callinicus والتى أنزلت بالمسلمين خسائر جمة[٢٤]. وكان هذا الانتصار الذى حققه البيزنطيون على المسلمين أهمية كبيرة وآثارًا بعيدة المدى، فقد انتشر

---

(24) Lewis : Naval power and Trade in the Mediteranean AD 500-1100.? P.16.
Ostrogorski: History of the Byzantine state., p. 111.
Vasiliev : A History of the Byzantine Empire., Vol. I, p. 214.
Oman : The Byzantine Empire., pp. 170-171.
Diehl: Historie De L'Empire Byzantine., p. 53.
Vasiliev: Histoire De L'Empire Byzantine, T. 1, p. 283.
سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى. ص ١٣٣.

خبر انتصار قسطنطين فى جميع أنحاء العالم وأرسل خاقان الآفار ورؤساء القبائل الصقلبية فى شبه جزيرة البلقان سفرائهم إلى القسطنطينية وطلبوا إقامة علاقات مودة وسلام بعد أن أعلنوا ولائهم للإمبراطور البيزنطى[٢٥] كما أتى أيضا رسل من الفرنجة البعيدين والخزر لتهنئة الإمبراطور قسطنطين على هذا الانتصار الذين اعتبروه قد أنقذ العالم المسيحى فى الشرق من العرب[٢٦].

ومن جهة أخرى، فقد عمل معاوية على أن تنحصر الخلافة فى بنى أمية، لذا فإنه حمل الناس على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة، وبهذا تحولت الدولة من مبدأ الشورى إلى مبدأ الملكية الوراثية. وبعد وفاة معاوية سنة ٦٨٠م (٦٠هـ) تولى يزيد الخلافة (٦٨٠-٦٨٣م/٦٠-٦٤هـ) وانقسم المسلمون على أنفسهم لمعارضتهم فكرة التوريث، وما لبثت تلك المعارضة أن انقلبت إلى مقاومة وثورة، وقاد الثورة الحسين بن على،ثم عبد الله بن الزبير. وكان طبيعيا ألا يوجه المسلمون أنظارهم إلى الفتح الخارجى فى بلاد القوقاز.

ولم تستقر الأمور للأمويين إلا فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م/٦٥-٨٦هـ) الذى استطاع التخلص من عبد الله بن الزبير سنة ٦٩٤ (٧٣هـ). وفى السنوات الأولى من عهده تمكن الخزر من غزو أراضى جورجيا وأرمينيا وألبانيا، فى الوقت الذى كان الجزء الجنوبى من القوقاز واقع تحت سيطرة المسلمين، وتمكن الخزر من إيقاع الهزيمة بأهل جورجيا وقتل أميرهم، كما تمكنوا من قتل جريجور ماميكونيان Grigor Mamikonian أمير أرمينيا دون أن يصادفوا أية مقاومة[٢٧] الأمر الذى سبب للمسلمين صعوبات جمة فى أرمينيا والقوقاز[٢٨] ولا شك

---

(25) Vasiliev : A History of the Byzantine Empire., Vol. I, p. 215.
Ostrogorski: op. Cit., p. 112.

(26) Oman : The Byzantine Empire., pp. 170-171.

والترجمة العربية أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٤.

(27) Dunlop: The History of the Jewish Khazars., pp. 59-60. =

أن الدولة البيزنطية قد استفادت من الغزوات التى قام بها الخزر ضد أرمينيا. فهم الذين كانوا يحرضون الخزر ضد المسلمين فى أرمينيا، كما كانوا يحرضون البربر وغيرهم فى إفريقيا والشام ضد المسلمين.

ونتيجة لذلك فقد قام عبد الملك بن مروان بتولية أخيه محمد بن مروان الجزيرة وبلاد أرمينيا وأذربيجان، فأعد محمد بن مروان جيشا قوامه عشرة آلاف من أهل الشام، وعهد به إلى عبيد الله بن أبى عدى، أحد قواده، وكلفه بقتال الخزر فى أرمينيا. وبالفعل اشتبك المسلمون فى أرمينيا، وفى هذه المرة كان الهجوم عنيفا قويا من جانب الخزر، فقد فيه المسلمون الكثير من الأموال والأنفس، وكان لتلك الهزيمة بالغ الأثر على المسلمين[٢٩].

وإزاء تلك الهزيمة قام محمد بن مروان بإعداد جيش آخر أسند قيادته إلى ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك وأمره بالتوجه إلى مدينة الباب لقتال الخزر، وكان بها أكثر من ثمانين ألف من الخزر، وحاول المسلمون اقتحام المدينة بعد قتال استمر عدة أيام إلا أن محاولتهم باءت بالفشل لحصانة المدينة، ويروى أن أحد رجال الخزر الخائف على نفسه وأهله بعد أن أسلم دل المسلمين على موضع تمكن المسلمين من خلاله النفاذ إلى المدينة، ودار قتال عنيف انتهى إلى هزيمة ساحقة للخزر وفرارهم خارج المدينة التى سقطت فى يد المسلمين. على أن تلك المدينة لم تلبث أن وقعت فيما بعد مرة أخرى فى أيدى الخزر بعد أن تركها المسلمون عائدين إلى أرمينيا محملين بالغنائم[٣٠].

= Art. Caliphat, in New Ency. Britt., Vol.3, p. 699.

(28) Ostrogorsky: op. Cit., p. 139.

(٢٩) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٦، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٣٠) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٦، ص ٢٩٥-٢٩٧.

وفى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م/ ٨٦-٩٦هـ) لم تنقطع سلسلة الغارات التى كان أخوه مسلمة بن عبد الملك يشنها على الخزر حيث غزاهم فى سنة ٧٠٧م (٨٩هـ) حتى بلغ الدربند وتمكن من فتح العديد من الحصون والمدائن[٣١]. وتكرر ذلك مرة أخرى سنة ٧٠٩م (٩١هـ)[٣٢].

وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠/ ٩٩ - ١٠١هـ) أغار الخزر على أذربيجان سنة ٧١٧م (٩٩هـ) وأسفر ذلك عن مقتل كثير من المسلمين، فبادر الخليفة بإرسال حاتم بن النعمان الباهلى لصد الخزر، فتمكن من هزيمتهم والعودة بخمسين أسيرا[٣٢].

---

[٣١] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٦، ص٤٤١.

Dunlop : op. Cit., p. 60.

[٣٢] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٦، ص ٤٥٤.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ ٤، ص ١١٩.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ ٩، ص٨٩.

الذهبى : دولة الإسلام، حـ١، ص ٦٣.

[٣٢] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٦، ص ٤٥٤.

Dunlop : op. Cit., p. 60-61.

فى إحدى المناسبات جاء ذكر أحد هؤلاء الأسرى الخزريون الذين اندرجوا فى الدولة الإسلامية وهو إسحاق بن كنداجيق فى إحدى قصائد البحترى، يمدحه حين توج وقلد السيفين قائلا:

شرف تزيد بالعراق إلى الذى عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا

وإسحاق بن كنداجيق وقيل كنداج اصله من بلاد الخزر، وهو من أشهر القواد الذين اعتمدت عليهم الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠-٨٩٢م/ ٢٥٦-٢٧٩هـ).

انظر البحترى: ديوان البحترى، حـ٢، ص ٩٧٨.

وفى الوقت الذى كان المسلمون يقاتلون الخزر فى بلاد القوقاز، كانوا أيضا يحاربون البيزنطيين، ففى سنة ٧١٧م (٩٩هـ) فرضوا على القسطنطينية الحصار[٣٣] وكان ذلك سببا فى إيجاد نوع من التقارب بين البيزنطيين والخزر لمواجهة عدو مشترك وهو المسلمون.

وعلى عهد الخليفة يزيد الثانى بن عبد الملك (٧٢٠-٧٢٤/١٠١-١٠٥هـ) قام المسلمون بقيادة ثبيت النهرانى بغزو بلاد الخزر وأرمينيا، ودار قتال مرير انتهى بهزيمة ساحقة للقوات الإسلامية واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه، وعادت فلول المسلمين متسترة حتى أقبلت الخليفة بالشام الذى أحزنه ما حل بهم، ووبخهم على هزيمتهم، وعاتب النهرانى على تقصيره وهزيمته أمام الخزر، فقال النهرانى: "والله يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء أعداء الله، وقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى، وضاربت حتى انكسر سيفى، غير أن الله عز وجل يعمل ما يشاء ويحكم ما يريد"[٣٤].

---

(33) Lewis: op. Cit., p.66.
Ostrogorski : op. Cit., p. 138.
Vasiliev: op. Cit., vol. I,p.236.

(٣٤) ابن الأعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٢٨-٢٩.
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص١٨٦.
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١، ص٣٨١.
ابن خلدون: العبر وديوانل المبتدأ والخبر، حـ٥، ص١٨٠.
Shaban (M.A): Islamic History (London, 1984), Vol. I, p. 144.
جدير بالملاحظة أن كلا من ابن الأثير والنويرى وابن خلدون، قد ذكروا فى تلك الواقعة السابقة أن القفجاق ساعدوا الخزر فى الانتصار على المسلمين، ويبدو أن القفجاق جاء ذكرهم خطأ فى هذا الموضع وذلك أن القفجاق هم الكومان، أحد العناصر التركية التى نزحت من أواسط آسيا واقامت فى سهوب روسيا الجنوبية بعد البجناك والغز، ولم يظهروا إلا بعد القرن لعاشر الميلادى وقد عرفوا فى اللغة اليونانية باسم Koumanoi, Komanoi وفى اللاتينية Cumani, Comani وأطلق عليهم المجريون اسم Kun، بينما اشتهروا فى الحوليات الروسية باسم بولفتسى Polovtsy انظر:
Art. Cumans, in the New Ency. Britt., Vol . iii, p. 289.
Buss: Art. Cumans, in Lexicon Universal Ency., Vol. 5, p. 386.

والواقع أن المسلمين لم يألوا جهدا فى محاربة الخزر والوقوف أمامهم بشجاعة بغية نشر الدين الإسلامى فى بلادهم. وقد نبهت تلك الهزائم المسلمين إلى شدة خطر الخزر وقوة بأسهم.

ونتيجة للهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى عهد يزيد الثانى بن عبد الملك طمع الخزر فى البلاد الإسلامية، الأمر الذى جعل الخليفة يولى الجراح بن عبد الله الحكمى على أرمينيا، ويأمره بقتال الخزر(٣٥). وأمده الخليفة بجيش ضخم فتقدم متوغلا حتى وصل إلى مدينة برذعة(٣٦) ثم عبر نهر الكر(٣٧) وهناك علم الجراح أن بعض من دانوا له بالطاعة من أهل تلك الجبال هو أربيس بن بسباس ملك بلاد الكر قد كاتب ملك الخزر يخبره بتحركات المسلمين، فأمر الجراح مناديه أن ينادى "أن الأمير مقيم ها هنا ثلاثة أيام فاستكثروا من الزاد والعلف والحطب وما تحتاجون إليه". فكتب أربيس إلى ملك الخزر بذلك وأشار عليه بألا يبرح موضعه، فلما جن الليل تحرك الجراح بجيش المسلمين متسترا تحت جنح الظلام، وتوجه إلى مدينة الباب حيث تجمع الخزر، وحينما وصل جيش المسلمين، لن تقع عيونهم على الخزر، إذ رحلوا عنها، فبث الجراح سراياه فى البلاد والمناطق المجاورة فظفر بالغنائم(٣٨).

---

(٣٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٠٨.

اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، حـ٢، ص ٣١٣.

دحلان : الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص ١٧١.

(٣٦) برذعة : بلد فى أقصى أذربيجان. انظر ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص١١٩.

(٣٧) الكر: نهر بين أرمينيا وأران يشق مدينة تفليس وبينه وبين برذعة فرسخان.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٧، ص ٢٣٧.

(٣٨) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٢٩-٣١.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ١٨٦-١٨٧.

النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١، ص٣٨٢-٣٨٣.

=

وبعد ذلك عسكر الجراح بجيشه على مقربة من الران[٣٩]، وعلمت الخزر بذلك فحشدت جموعا ضخمة تولى قيادتها نارستيك بن خاقان الخزر، وتقاتل الفريقان قتالا عنيفا أسفر عن هزيمة ساحقة للخزر، وفرت فلولهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون، وفي طريقهم أذعنت لهم كل مدينة وحصن بالطاعة[٤٠].

ووصل المسلمون إلى بلنجر أقوى حصون الخزر والتى حصنوها تحصينا جيدا، حيث شدوا ما يزيد على ثلاثمائة عجلة[٤١] بعضها على بعض حول حصنهم، وكانت تلك العجل أشد خطرًا على المسلمين، حيث حاصروها دون جدوى، فوهب نفر من المسلمين أنفسهم وتعاهدوا على الموت، وتقدموا نحو تلك العجل، ووابل من سهام الخزر ترشقهم من فوق السور، حتى إذا اقتربوا من العجل تمكنوا من قطع الحبال التى تشدها، فانحدرت وتبعها سائر العجل، ودخل الجانبان فى قتال مرير أحرز المسلمون خلاله انتصارا رائعا على الخزر وسقط الحصن فى أيديهم وجميع ما فيه من غنائم[٤٢].

= دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٧١.

(٣٩) الران: الران وأران واحد وهى ولاية واسعة من نواحى أرمينية، انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٤، ص٢١٣.

(٤٠) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٣١.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ١٨٧.

(٤١) عجلة: بالتحريك، التى يجرها الثور، والجمع عجل وأعجال.

انظر: ابن منظور: لسان العرب، حـ٤، ص٢٨٢٣.

كما كان لملك الخزر عجلة حربية يطلقون عليها الخداده، انظر: ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٦٧.

(٤٢) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٣١.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٧١.

ويستفاد من الأرقام التى أوردها المؤرخون عن كميات الغنائم التى وزعت بعد انتصار المسلمين على الخزر وهى ثلاثمائة دينار لكل فارس فى جيش كان قوامه بضعة وثلاثون ألفا من المسلمين، أن مدينة بلنجر كانت فى وقت سقوطها فى يد المسلمين بلدا واسع الثروة[٤٣].

على أنه بعد هروب فلول الخزر أعاد الجراح إلى صاحب بلنجر أهله وماله وحصنه وكان الجراح يرمى من وراء ذلك اتخاذه عينا للمسلمين يخبرهم بتحركات الخزر والشعوب القاطنة فى تلك المنطقة، ثم توجه بجيش المسلمين إلى حصن الوبندر[٤٤]، فأذعنوا له بالطاعة. ومما يجدر ذكره أن صاحب بلنجر رغب فى مكافأة الجراح على فعله الجميل، فأخبره بأن الخزر حشدت للمسلمين حشودا لا طاقة لهم بها يعاونهم أهل تلك الجبال الذين عزموا على محاربة المسلمين. فعاد الجراح إلى رستان شكى[٤٥]. ومن هناك كتب إلى الخليفة يزيد يخبره بما فتح الله عليه، ويسأله المدد، غير أن الأخبار جاءت بوفاة الخليفة سنة ٧٢٤م (١٠٥هـ)، وتولية أخيه هشام

---

(٤٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ١٨٧.
النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١، ص٣٨٣.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٥، ١٨١.
دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٧١.

(٤٤) من المحتمل أن يكون هذا الحصن هو حصن تابع لشعب البلغار،
انظر : الفصل الأول الكتاب.

(٤٥) شكى : عند ابن الأثير رستاق ملى.
– انظر : الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص١٨٧.
شكى : "بفتح وتشديد ثانيه.. ولاية بأرمينيا"
– انظر ياقوت: معجم البلدان/ حـ٥، ص٢٨٦.

بن عبد الملك الخلافة (٧٢٤-٧٤٣م/ ١٠٥-١٢٥هـ) الذى أقر الجراح على عمله ووعده بإنقاذ جيش لمحاربة الخزر[٤٦].

وفى تلك الأثناء فرغ الجراح من أمر اللان حيث نجح فى سنة ٧٢٤م (١٠٥هـ) فى شن هجوم كبير عليهم، استطاع من خلاله فتح حصون وبقاع متسعة حتى تعدى بلنجر[٤٧].

غير أن الخليفة فى تلك الظروف المواتية للجيوش الإسلامية عزل الجراح عن أرمينيا وأذربيجان سنة ٧٢٦م ((١٠٧هـ) وولى أخاه مسلمة بن عبد الملك[٤٨]. وينبغى ألا نغفل أن هذه الولاية الثانية لمسلمة التى استمرت فى السنوات (٧٢٦-٧٢٩م/١٠٧-١١١هـ)، أما الولاية الأولى فقد كانت بين سنتى (٧٠٥-٧٢٤م/ ٩١-١٠٤هـ).

على أن الخزر فى سنة ٧٢٧م (١٠٨هـ) ساروا إلى أذربيجان بقيادة خاقان الخزر فحاصر بعض مدنها. ولكن الحارث بن عمرو الطائى أحد قواد المسلمين استطاع أن يهزمهم بعد قتال شديد وطاردهم، كما استطاع المسلمون هزيمتهم مرة أخرى، بعد أن عادوا مرة أخرى على رأسهم ابن الخاقان[٤٩].

---

(٤٦) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٣٤-٣٥.
النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ح٢١، ص٣٨٣.
حمد الله قزوينى: تاريخ كذيذة، حـ١، ص٢٨١.

(٤٧) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص٢١.
ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٩، ص ٢٥٩.
دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٧٢.

(٤٨) الذهبى : دول الإسلام ، حـ١، ص٧٥.

(٤٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص١٩٩.
Dunlop : The History of the Jewish Khazars, p. 67.

وفى سنة ٧٢٨م (١١٠هـ) اشتبك مسلمة مع جموع الخزر عند باب اللان، وبعد قتال طويل استمر ما يقرب من شهر انتصر المسلمون عليهم انتصارا كبيرا وانصرف الفريقان نظرا لسقوط مطر شديد(٥٠).

وفى العام التالى (٧٢٩م/١١١هـ) اجتاح الخزر أراضى أذربيجان إلا أن الحارث بن عمرو الطائى تمكن من صدهم وهزيمتهم، وفى العام ذاته عزل هشام أخاه مسلمة بن عبد الملك وأعاد الجراح بن عبد الله الحكمى لحكم أرمينيا بعد غياب عدة سنوات(٥١).

وكان أن زحف الجراح بجيشه حتى وصل إلى بلاد الخزر من ناحية تفليس، وتمكن من فتح مدينة البيضاء، ثم انصرف عنها محملا بالغنائم(٥٢)وكان لذلك رد فعله على الخزر حيث بعث ملكهم إلى البلاد التى تذعن له بالطاعة ليعاونوه ضد المسلمين، وجمع جيشا قوامه ثلاثمائة ألف واسند قيادته لابنه نارستيك، فأخذت

---

(٥٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص٥٤.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٢٠٥.

ذكر المنبجى، أنه فى السنة الخامسة لهشام (٧٢٨م/١١٠هـ) غزا مسلمة الخزر فهزموه وقتلوا أكثر أصحابه، الأمر الذى يتعارض مع ما سبق

انظر : كتاب العنوان، المنشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين.

Patrologia Oriental., Vol. viii., p. 507.

(٥١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص٦٧.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٢٠٧.

Dunlop : op. Cit., , p. 68.

(٥٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٢٠٧.

فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية/ حـ٢، ص١٠١.

جيوش الخزر تحرق وتنهب وتقتل كل من قابلهم من المسلمين، ويبدو أن الجراح شعر بحرج موقفه فكتب إلى الخليفة يسأله العدد، ولكن الخليفة تأخر في إرساله[٥٣].

وتقابل المسلمون والخزر بمرج أردبيل ودار قتال عنيف أسفر عن هزيمة قاسية للمسلمين واستشهاد الجراح ومن معه من المسلمين[٥٤] واستولى الخزر على ولايات الران وأذربيجان وتوغلوا في الأراضي الإسلامية[٥٥] حتى قاربوا المواصل "وعظم الخطب على المسلمين"[٥٦].

والواقع أن مقتل الجراح ومن معه من المسلمين كان له بالغ التأثير في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك وخاف على البلاد الخاضعة للمسلمين من هجمات الخزر، وأخذ يستشير أصحابه في هذا الأمر، فأشار عليه أحدهم قائلا: "والله يا أمير لمؤمنين إن دعاءك أياي للمشورة أعظم عندى بما فعلت الخزر بالمسلمين" واستقر الخليفة في النهاية على اختيار سعيد بن عمرو الحرشي لخبرته في قتال الترك في خراسان وعهد له بمهمة قيادة الجيش لقتال الخزر[٥٧].

---

(٥٣) ابن الأعثم: كتاب الفتوح ، حـ٨، ص ٣٨-٤٠.

(٥٤) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٢٠٨.

اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، حـ٢، ص٣١٣.

الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص٧٠.

Glubb: The Empire of the Arabs, p. 183.
Pritsak: Art. Khazar, in Dictionary of the Middle Ages, Vol. 7, p.241.
Shaban: op. Cit., Vol. I,p.144.
Koestler: op. Cit., p. 29.

(٥٥) حمد الله قزوينى: تاريخ كذيذة، حـ١، ص٢٨١.

(٥٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٤، ص٢٠٧.

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٥. ص١٩٠-١٩١.

الذهبي: دول الإسلام، حـ١، ص ٧٧-٧٨.

(٥٧) ابن الأعثم: كتاب الفتوح ، حـ٨، ص ٤٢-٤٤.

وتقدم الحرشي فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها لمحاربة الخزر حتى وصل إلى مدينة أرزن[٥٨]. حيث لقي عندها ممن نجى من فلول الجراح المنهزمة. وتقدم ونجح في فتح خلاط[٥٩] على الرغم من تحصينها المحكم، وتابع سيره وتمكن من فتح حصون وقلاع عديدة حتى وصل إلى برذعة[٦٠] في ذلك الوقت كان نارستيك بن خاقان الخزر بأذربيجان يقوم بأعمال السلب والنهب، فشرع الحرشي في السير إليه حتى وصل إلى البيلقان[٦١] حيث قابله أحد طراخنة الخزر وابنتين له فجردهما من ثيابهما وأمرهما أن تسقياه الخمر عريانتين، وطلب من الحرشي إنقاذهما، فاستجاب إلى طلبه وأنقذهما[٦٢]، مما يدل على أن المسلمين كانوا أمناء على الأرواح حريصين على أعراض أهل البلاد المفتوحة.

علم الحرشي أن الخزر تحاصر مدينة ورثان[٦٣]. فأرسل إليهم من يحملهم على الدفاع والصمود ضد الخزر ويخبرهم بقرب وصوله، ولما وصل المسلمون إلى تلك المدينة، انسحب الخزر بعد أن وصلتهم أخبار بتحركات المسلمين[٦٤].

حمد الله قزويني: تاريخ كذيذة، حـ١، ص٢٨١-٢٨٢.

(٥٨) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينيا.
انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ١، ص١٩٠.

(٥٩) خلاط: هي قصبة أرمينيا الوسطى.
انظر ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص٣٤٠.

(٦٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،حـ٤، ص٤٥٣.

(٦١) البيلقان: مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب.
انظر ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص٣٤٠.

(٦٢) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٤٦-٤٧.

(٦٣) ورثان : بلد آخر حدود أذربيجان، وبين ورثان وبيلقان سبع فراسخ.،
انظر: ياقوت : معجم البلدان، حـ٨، ص٤١٣.

(٦٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٥، ص١٩١.
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ٢١، ص ٤١٥-٤١٦.

ثم سار الحرشي بجيش المسلمين قاصدا أردبيل وعسكر عند حصن باجروان[٦٥]، وأتى إليه فارس مجهول لم تبين المصادر هويته واسمه إلا أنه عبد من عباد الله، وكان عينا للمسلمين دلهم على مكان احتشاد الخزر، وبناء على ذلك سار الحرشي ليلا بجيش المسلمين وفاجأ الخزر بهجوم ساحق، نجح المسلمون من خلاله في إنقاذ خمسة آلاف من المسلمين "أسارى وسبايا"[٦٦]. كما نجح الحرشي في إنقاذ كثير من أموال المسلمين وأولاد الجراح وحرمه بعد أن دخل في صراع مع الخزر على نهر الميمذ[٦٧]. وكان ذلك الفارس المجهول قد دله على مكان الخزر[٦٨].

والحقيقة أن غارات المسلمين على الخزر صادفها النجاح وكانت بالغة التأثير، وعجز الخزر عن ردها إلى أن انتبه الخزر لهذا الوضع، فأخذ نارستيك بن خاقان الخزر يحشد قواته من نواحي أذربيجان لقتال المسلمين، فالتقى الفريقان بأرض برزند[٦٩]، ودار قتال مرير كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا شجاعة الحرشي الذي أخذ يستنهض جنوده حتى تم النصر، وطاردهم المسلمون حتى نهر الرس[٧٠].

---

[٦٥] باجروان: مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان.

انظر: ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص٢٤.

[٦٦] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٤، ص٢٠٨.

دحلان : الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٧٣.

[٦٧] الميذ: اسم جبل، قال الأديبي : وفي الفتوح أن ميمذ مدينة بأذربيجان أو أران.

انظر: ياقوت : معجم البلدان، حـ٨، ص٢٢٧.

[٦٨] ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٤٦-٤٧.

[٦٩] برزند: بلد من نواحي تفليس من أعمال جرزان من أرمينية.

انظر: ياقوت : معجم البلدان، حـ٢، ص١٢٤.

[٧٠] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٤، ص٢٠٨.

وحدثت آخر واقعة بين الخزر والحرشي عند نهر البيلقان، وتذكر المصادر أن قوام جيشهم في تلك المرة كان مائة وتسعين ألف، وأسفرت المعركة عن انتصار المسلمين وهزيمة قاسية للخزر، وكان ممن غرق أكثر ممن قتل من الخزر، ثم كتب الحرشي أخبار انتصاره إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فكتب الخليفة إليه يشكره ويأمره بالعودة وولى أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينيا وأذربيجان[٧١] والحقيقة أن الحرشي يعتبر واحدا من القادة المسلمين العظماء الذين ابلوا بلاءا حسنا في مواجهة الخزر.

على أن مسلمة بعد أن وصل ليتسلم مهام منصبه لام الحرشي على قتاله الخزر قبل قدومه، وكان قد أرسل إليه كتابا في هذا الصدد، فبين الحرشي له أن كتابه لم يرد إلا بعد أن هزم الله الخزر، ولكن مسلمة غضب فقيده وسحبه إلى سجن برذعة، وعلم الخليفة هشام بما حدث، فغضب من أخيه وأمر على الفور بإخراجه[٧٢]. ولا شك أن ما حدث للحرشي لا يتكافأ مع ما قدمه من خدمات في محاربة الخزر.

وبعد أن تولى مسلمة مهام عمله تقدم على رأس جيش من المسلمين متوجا إلى خزريا، وكان الوقت شتاءا شديد البرد كثير المطر والثلج، حتى وصل إلى الباب في آثارهم ثم استخلف عنه أميرا هناك[٧٣]. وفي سنة ٧٣١م (١١٣هـ) قام مسلمة بنشر

(٧١) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٥٥-٥٧.

النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١، ص٤١٧.

(٧٢) البلاذرى : فتوح البلدان، ص٢٠٨-٢٠٩.

ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٥٨-٥٩.

(٧٣) الطبرى : تاريخ لرسل والملوك، حـ٧، ص٧١.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٢٠٨.

Dunlop: op. Cit., p. 76.

الجيوش الإسلامية في بلاد الخزر، وتمكنت تلك الجيوش من فتح مدائن وحصون كما قتل ابن الخاقان ودانت للمسلمين مناطق فيما وراء بلنجر(٧٤).

والواقع أن الخزر لم يقفوا مكتوفى الأيدى، إذ تمكنوا من حشد جيوش ضخمة من الأمم القاطنة والمذعنة بالطاعة لهم. ووجد مسلمة أن جيشه لا طاقة بهم، فأمر بإيقاد النار، ثم تركوا خيامهم مضروبة في موضعها، "فقدم مسلمة الضعفاء وآخر الشجعان" حتى وصلوا إلى مدينة الباب، منهكين مجهدين(٧٥).

بعد ذلك خندق مسلمة عند باب واق بالقرب من الباب وحصن المسلمون أنفسهم من ملوك الجبال، وأقبلت الخزر في جيوش ضخمة، والتحم الفريقان في قتال شديد، وابلى المسلمون وعلى رأسهم مروان بن محمد - وهو الخليفة الأموى فيما بعد - بلاءا حسنا حيث أتى وأصحابه على كراديس(٧٦) الخزر، وتمكن من قتل كثير منهم. وفي أثناء القتال أتى إلى مسلمة أحد عيونه ودله على مكان الخاقان، فأختار مسلمة ومروان، ثبيت النهراني، أحد أبطال المسلمين للنيل منه على رأس

---

(٧٤) الطبرى : تاريخ لرسل والملوك، حـ٧، ص٧١.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٩، ص٣٤٢.

حمد الله قزوينى: تاريخ كذيذة، حـ١، ص٢٨٢.

Glubb: op. Cit., p. 183.

ذكر ابن قتيبه أن مسلمة تقابل سنة ٧٣١م (١١٣هـ) مع خاقان ملك الترك فقتله وبنى الباب، أنظر: كتاب المعارف، ص٣٦٥.

(٧٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٢١٤.

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١. ص٤٢١.

Theophanis: chronographia in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Vol., I, p. 626.

(٧٦) كراديس: ومفردها كردوس، وهو القطعة العظيمة من الخيل ويقال كردوس القائد خيله أى جعل الجيش على شكل كتائب، انظر

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٣، ص ٣٩٦، حاشية ٤.

ألف رجل، ووثب المسلمون على الخزر ودار قتال رهيب، انتهى بانتصار المسلمين وهروب الخاقان الذى كان على عجلة حربية يقال لها "الجدادة"، وجمع مسلمة الغنائم ثم وصل بالمسلمين إلى الباب(٧٧).

وكان بمدينة الباب قلعة بها ألف بيت من الخزر، فحاول مسلمة اقتحامها دون فائدة فلجأ إلى وسيلة أخرى حيث ذبح الأبقار والأغنام وألقى بها فى عين الماء التابعة للقلعة وجرى الدم مع الماء إلى صهاريجهم، ثم قطع الماء. فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى "دود وانتن وفسد" ولما جن الليل ولوا هاربين، وأسكن مسلمة المسلمين فى تلك القلعة(٧٨).

على أن الخزر تمكنوا من استرداد المناطق التى وقعت تحت سيطرة المسلمين، الأمر الذى دفع مروان بن محمد إلى إعداد جيش من المسلمين قوامه أربعون ألفا وتوجه به إلى بلاد الخزر فقتل منهم وسبى النساء حتى وصل إلى مدينة الباب، وكان ذلك فى وقت الشتاء وسميت تلك الغزوة بغزوة الطين لكثرة الأمطار والوحل(٧٩).

وفى سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) ولى الخليفة هشام، مروان بن محمد على أرمينيا وأذربيجان والجزيرة وذلك بعد عودة مسلمة إلى الشام(٨٠) وفى نفس العام وفى أثناء الصدام الذى كان يجرى بين المسلمين والخزر، أقام الخزر والبيزنطيون حلفا

---

(٧٧) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٦٢-٦٨.

(٧٨) البلاذرى : فتوح البلدان، ص٢٠٩.

(٧٩) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٦٩-٧٠.

Dunlop : op. Cit., p. 80.

(٨٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص٩٠.

Grousset: Hist. De Amenie des Origines., p. 316.
Glubb: op. Cit., p. 201.
Shaban: op. Cit., Vol. i., p. 144.

سياسيا كان فى صورة زواج سياسى حيث اقدم الإمبراطور ليو الأيسورى (٧١٧-٧٤١م) على اختيار أميرة خزرية لابنه قسطنطين (الخامس)[٨١] مقيما بذلك حلفا مع الخزر ضد المسلمين. وكان البيزنطيين والخزر بعد أن توحدت وتلاقت أهدافهم يأملون فى وقف خطر الجيوش الإسلامية والقضاء عليها بشتى السبل.

وعلى أية حال سار مروان إلى أرمينيا على رأس جيش ضخم قوامه مائة وعشرون ألف لمحاربة الخزر، فأظهر أنه عازم على غزو اللان ثم توجه إليهم. وبعث ملك الخزر برسول يسأله الهدنة، فرفض مروان وأعلن الحرب على الخزر، فاستشار الخاقان أصحابه الذين أشاروا عليه بأن يتأخر إلى أقصى بلاده خشية إن لقيه على حاله هزمه وظفر به، فقبل رأيهم، وتوغل مروان فى بلاد الخزر، فغنم وأقام عدة أيام[٨٢].

وفى سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) غزا مروان أرمينيا ثم بلاد اللان حتى وصل إلى سمندر وانضم إليه جيش بلغ عدده مائة وخمسين ألف على رأسهم أسيد بن زافر السلمى وتوغل مروان فى بلادهم حتى وصل إلى مدينتهم البيضاء التى لاذ منها

---

(81) **Bury : History of the Eastern Roman Empire, p. 407.**
Ostrogrski: op. Cit., p. 139.

انظر الفصل الثانى من الكتاب.

(٨٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٢١٦.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٥، ص١٩٦.
النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١، ص٤٢٢-٤٢٣.

الخاقان بالفرار[٨٣] ثم أغار مروان على صقالبة كانوا بأرض الخزر فسبى الكثير منهم[٨٤].

وبعد ذلك علم مروان أن خاقان الخزر وجه إليه طرخانا من طراخنته يدعى هزار طرخان فى أربعين ألفا، فأمر مروان أحد رجاله وهو الكوثر بن أسود العنبرى بعبور نهر الصقالبة ليلا ليوافيه مروان فى الصباح، ويقاتلا الخزر معا، وعند الفجر قابل الكوثر مجموعة يتصيدون، فقتلهم جميعا، ثم تقدم وتقاتل مع الخزر فسقط منهم عشرة آلاف وأسر سبعة آلاف، وهرب الباقون إلى الأودية والجبال، ثم علم الكوثر من الأسرى الخزر أنه قتل هزار طرخان حيث كان على رأس جماعة الصيد التى قابلها المسلمون كما أن مروان دخل فى صراع كبير مع الخزر وعاد ورؤوس الخزر على أسنة الرماح[٨٥] حيث تمكن من السيطرة على صحراء الخزر وجميع قلاع وجبال دربند من ناحية أذربيجان، وأصبح شعار الإسلام واضحا فى تلك الممالك[٨٦].

ومما يجدر ذكره أن الهزيمة التى منى بها الخزر على يد المسلمين بقيادة مروان بن محمد كانت سببا فى إسلام الخاقان[٨٧] وفى هذا الصدد يقول

---

(٨٣) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٧١.
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص٧١.
النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢١، ص٤٢٦.
الذهبى : دول الإسلام، حـ١، ص٨١-٨٢.
Obolensky: The Byzantine Commonwelth., p. 172.
Glubb: op. Cit., p. 201.
Shaban: op. Cit., Vol. i., p. 147.

(٨٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢١١.

(٨٥) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٧٢-٧٣.

(٨٦) حمد الله قزوينى: تاريخ كذيده، حـ١، ص٢٨٢.

(87) Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p.946.
Hudud Al Alam., p. 201.
Bury : op. Cit., p.407.
Glubb: op. Cit., p. 201.

البلاذرى[88] ولما بلغ عظيم الخزر كثرة من وطىء به مروان بلاده من الرجال، وما هم عليه فى عدتهم وقوتهم نخب ذلك قلبه وملأه رعبا، فلما دنا منه أرسل إليه رسولا يدعوه للإسلام أو الحرب فقال قد قبلت الإسلام، فأرسل إلى من يعرضه على. ففعل، فأظهر الإسلام وودع مروان على أن أقره فى مملكته وسار مروان معه بخلق من الخزر فأنزلهم ما بين السمور والشابران[89] فى سهل اللكز[90].

كما أورد ابن أعثم الكوفى[91] خبر إسلام الخاقان تفصيليا، فذكر أن الهزائم المتوالية التى لحقت بالخزر كانت سببا فى جزع الخاقان، فأرسل إلى مروان بن محمد يسأله عن مطالبه، فعرض عليه مروان الإسلام أو قتله وأخذ ملكه. فقبل الخاقان الإسلام وأرسل مروان رسولين هما نوح بن السائب الأسدى وعبد الرحمن الخولانى يعرضان عليه الإسلام، فطلب منهم أن يحلا له الخمر والميتة، فرفضا ذلك، وبينا له أنه ليس من شأنهم وليس فى الإسلام أن يحل الحرام أو يحرم الحلال وأوضحا له ما تقره الشريعة الإسلامية. فأسلم الخاقان ومعه عدد من أهل بيته وبلده.

وتذكر المصادر الإسلامية دخول الخزر فى الإسلام فى مناسبات أخرى وبين أحداث عهود أخرى، فالمقدسى يشير إلى أنهم أسلموا نتيجة للغزوات التى قام بها المأمون من الجرجانية[92]، وليس المقصود هنا الخليفة العباسى المأمون (٨١٣-٨٣٣م/ ١٩٨-٢١٨هـ) بل هو الأمير مأمون بن محمد والى جرجانية الذى أصبح

---

(88) فتوح البلدان، ص٢١٠.

(89) شابران: مدينة من أعمال أران استحدثها أنوشروان.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٥، ص٢٠٥.

(90) اللكز : بليدة خلف الدربند تتاخم خزران.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٧، ص٣٣٧.

(91) كتاب الفتوح، حـ٨، ص٧٣-٧٤.

(92) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص٣٦١.

فيما بعد سنة ٩٩٥م (٣٨٥هـ) واليا على خوارزم[٩٣] ومن جهة أخرى فإن ابن الأثير[٩٤] قد أكد خبر اعتناقهم للإسلام حينما أصبحوا مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم أمام هجمات أحد الأقوام التركية بمساعدة أهل خوارزم المسلمين، وذلك قرب منتصف القرن الرابع الهجرى سنة ٩٦٥م (٣٥٤هـ). ويقصد هنا بأحد الأقوام التركية حملة سيفياتوسلاف الروسى على الخزر[٩٥].

والحقيقة أن البعض يعتبر أن دخول الخزر فى الإسلام كما صورتها المصادر الإسلامية كانت تعتمد على شائعات غير صحيحة لأن الخزر ظلوا على دينهم الذى اعتنقه الخاقان والطبقة الأرستقراطية فى القرن الثامن الميلادى وهو الدين اليهودى[٩٦]. والواقع أن اليهودية ظلت ديانة رسمية للخزر حتى انقراض دولتهم، بعد أن فشلت كل من الديانة المسيحية والإسلامية فى شق طريقهما بنجاح كالديانة اليهودية فى بلاد الخزر.

وفى خلال الفترة التى قضاها مروان بن محمد فى منطقة القوقاز وهى بين سنتى ٧٣٢م (١١٤هـ) و٧٤١م (١٢٣هـ) استطاع أن يغزو بلاد السرير وأهل تومان وأرض زريكران وحمزين وسدان واللكز وشروان وغيرها من البلاد الواقعة فى تلك البقاع[٩٧] وبانتهاء حكم مروان فى تلك البقاع تنتهى حلقة هامة من حلقات الصراع

---

(93) Barthold & Golden: Art. Khazar, in Ency. of Islam.

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص٦٣.

(٩٤) الكامل فى التاريخ، جـ٧، ص١٥.

(٩٥) انظر الفصل الثانى من الكتاب.

(٩٦) بارتولد: المرجع السابق، ص٦٣.

(٩٧) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢١٠-٢١١

ابن أعثم: كتاب الفتوح/ جـ٨، ص ٧٥-٨٢.

بين المسلمين والخزر وهى التى اصطلح المؤرخون المحدثون بتسميتها بالحرب العربية الخزرية الثانية (٧٢٢-٧٣٧م/ ١٠٣-١١٩هـ).

ولا شك أن المسلمين أسدوا خدمة لأرمينيا، فقد وضعوا على عاتقهم حمايتها من الخزر[٩٨] ونجحوا فى تقليم أظافر الخزر فى تلك الفترة، حتى أن أحد المؤرخين المحدثين كان يشبههم فى اغاراتهم على أرمينيا والخزر بأنهم "كانوا خفاف كالحية الطائرة"[٩٩].

ولكن بعد انتصار المسلمين على الخزر سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) لم نسمع شيئا بعد ذلك، فما إن حلت الفترة التى تلت الحرب العربية الخزرية الثانية حتى كان الحافز على الجهاد عند المسلمين قد تراخى وهزت الفتن دعائم الخلافة وارتد المسلمون عبر القوقاز من غير أن يثبتوا أقدامهم فى الشمال، فى حين اشتد بأس الخزر وازدادت قوتهم عما كانت[١٠٠]وتشير بعض المراجع إلى تلك الأحداث بالقول: "إن تلك الأزمات التى تورط فيها المسلمون، أنقذت الخزر، ولو قدر لمروان بن محمد السيطرة على الأقاليم الخزرية بثبات لأصبح تاريخ أوربا الشرقية مختلفا تماما عما نعرفه"[١٠١] والشىء الجدير بالملاحظة أن كثير من المؤرخين المحدثين يحاولون فى كتاباتهم الربط بين ما قام به شارل مارتل ملك الفرنجة ضد قوات المسلمين الزاحفة عبر البرانس - حيث انتصر سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) عليهم فى موقعة تور-بواتييه (بلاط الشهداء) - وبين ما قام به الخزر فى أقصى أطراف أوربا الشرقية، ويذهبون إلى القول أنه فى الوقت الذى كان فيه فرنجة شارل مارتل قد تمكنوا من إيقاف مد الغزو الإسلامى على ساحة تور فى فرنسا، فإنه فى نفس الوقت تقريبا تمكن الخزر فى الشرق من إيقاف المد الإسلامى وصمدوا ضدهم باعتبارهم حماة

(98) Grousset: Hist. De Armenie des origines A 1071., p. 315.
(99) Ibid. p. 296
(100) Koestler: op. Cit., p. 14.
(101) Art. Khazar, in Ency, Judaica, Vol., x, p. 946.

النصرانية فى هذه الجهات، إذ لم يكن التهديد لأوربا من جهة الشرق بأقل خطورة من الغرب[١٠٢].

ومنذ عهد الخليفة هشام بن عبد الملك حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ) صمتت المصادر الإسلامية عن ذكر أى جديد فيما بين المسلمين والخزر، ويبدو أن الفتن والصراعات التى وقعت بين الأمويين والتى انتهت بتولى العباسيين مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية، قد شغل المسلمين عن توجيه أنظارهم ناحية الخزر، والحق أن الأحوال السياسية فى الدولة الأموية منذ بداية القرن الثانى لهجرى قد ساءت من جراء ثورات الخوارج والشيعة، فضلا عن ظهور العصبية القبلية بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك ظهورا واضحا، ولقد نجح العباسيون فى نشر دعوتهم فى الوقت الذى ضعف فيه الأمويين، وأنهك فيه العلويون أنفسهم بالثورات، وانتهى حكم البيت الأموى بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ). وقامت الدولة العباسية التى كان أول خلفائها أبو العباس عبد الله الملقب بأبى عبد السفاح (٧٥٠-٧٥٤م/ ١٣٢-١٣٦هـ).

- علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة العباسية:

من المعروف أن رقعة الدولة الإسلامية لم تتسع فى العصر العباسى حيث إنهم ورثوا دولة إسلامية شاسعة الحدود، امتدت من حدود الصين شرقا حتى جبال البرانس والمحيط الأطلنطى غربا. ومن البحر العربى والصحراء الكبرى جنوبا حتى جبال طوروس وبحر قزوين (الخزر) شمالا. ولم يكن اهتمام العباسيين هو التوسع وزيادة رقعة الدولة بل كان جل اهتمامهم هو الحفاظ على حدود تلك الدولة وتأمينها.

---

(102) Dunlop: op. Cit., pp. Ix-x.
Obolonsky : op. Citt., p. 172.
Koestler: op. Cit., p. 35.

ومن المعروف أن العباسيين اتخذوا بغداد في العراق عاصمة لدولتهم وتركوا دمشق عاصمة الأمويين ببلاد الشام، وبذلك تكون المنطقة القريبة من الخزر قد فقدت جزءا من الاهتمام والعناية التي كانت لها قبل سقوط الأمويين، فالأمويين باتخاذهم دمشق عاصمة لهم كانوا قريبين من آسيا الصغرى وبالتالي من الخزر وكان ذلك سببا في زيادة الضغط الإسلامي على الخزر أما العباسيون باتخاذهم بغداد عاصمة لدولتهم فقد جعل مركزهم أكثر بعدا عن أراضي الخزر، ومن ثم قل الضغط الإسلامي على حدود هذه الدولة.

لذا فإن العلاقات بين المسلمين والخزر في عهد العباسيين سوف تأخذ شكلا آخر، فقد ولي الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (٧٥٤-٧٧٥م/ ١٣٦-١٥٨هـ) أسيد بن زافر السلمي أرمينيا وأمره بالتحالف مع الخزر والزواج منهم[١٠٣] وقد دفع الخليفة إلى ذلك عدة عوامل أهمها خوفه على أرمينيا والمسلمين من خطر الخزر، فاستجاب له وأرسل يزيد إلى خاقان الخزر واسمه تعاطر، فخطب ابنته وكانت تدعى الخاتون، وزفت إليه من بلادها تحمل معها مظاهر العظمة والأبهة، وبقت معه سنتين وأربعة أشهر وولدت منه ولدين، ثم ماتت هي وولداها فحزن عليها يزيد[١٠٤]. ويبدو أن التحالف الذي سعى إليه المسلمون كان ردا على التحالف الذي عقده الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث (٧١٧-٧٤١م) مع الخزر بتزويج ابنه قسطنطين من أميرة خزرية سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) مقيما بذلك حلفا مع الخزر ضد المسلمين.

---

(١٠٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢١١.

(١٠٤) ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ٨، ص ٢٢٩-٢٣٠.

ذكر البلاذري خبر وفاة هذه الأميرة قائلا: "وولدت منه أبنا فمات وماتت في نفاسها"

انظر : فتوح البلدان، ص٢١١.

على أن موت الخاتون كان سببا فى انتفاض الخزر ضد المسلمين، فقاموا بشن هجوم كبير على القوات الإسلامية بقيادة رأس طرخان، انتهى بهزيمة المسلمين الذى كان يقودهم يزيد بن أسيد السلمي - كما أن الجيش الذى وجهه الخليفة العباسى وعدده عشرون ألفا لصد الخزر بقيادة جبريل بن يحيى قد منى بهزيمة ساحقة(١٠٤).

وفى سنة ٧٦٢م (١٤٥هـ) قام الخزر وبعض العناصر التركية بشن هجوم كبير من ناحية الباب والأبواب على المسلمين، وتمكنوا من قتل عدد كبير من المسلمين بأرمينيا(١٠٥)حيث بلغ عددهم خمسين ألف نفس(١٠٦).

---

(١٠٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، حـ٢، ص٣٧١-٣٧٢.
ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٢٣١-٢٣٣.
ذكر اليعقوبى: "أن تلك الواقعة حدثت سنة ٧٥٨م (١٤١هـ)، كما أن الطبرى: يتحدث عن تلك الواقعة سنة ٧٦٤م (١٤٧هـ)، وذكر أن استرخان الخوارزمى فى جمع من الترك (الخزر) أغار على المسلمين فى أرمينيا وأسر كثير من المسلمين وأهل الذمة حتى دخلوا مدينة تفليس، انظر: تاريخ الرسل والملوك، حـ٨، ص٧.

Hudud Al Alam, p. 451.

والحقيقة أن ما ذكره الطبرى بشأن القائد الخوارزمى يتعارض مع ما ذكره المسعودى من أن بعض المسلمين من أهل خوارزم كانوا جنودا مرتزقة فى خدمة الخزر وكانوا يحصلون عند التحاقهم بالخدمة على حق الحياد إذا دخل الخزر فى حرب مع المسلمين.
انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، حـ١، ص١٣٥.
كما يربط المؤرخ الأرمينى ليفوند **Levond** بين غزو الخزر لبلاد الكرج وأرمينيا (سنة ٧٦٤م/ ١٤٧هـ) وبين وفاة الأميرة الخزرية، وذكر أن رج ترخان كان قائدا لهذه الحملة.

Barthold & Golden: Art. Khazar, in Ency. of Ialam.

Dunlop: op. Cit., p. 180.

(١٠٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص١٤٩.
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٥، ص٢٠.
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢٢، ص٩٢.
ابن كثير: البداية والنهاية، حـ١٠، ص٩٦.

(106) Bar Hebraeus: Syriac chronicle., p. 114.

المنبجى: كتاب العنوان، المنشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين. =

كان من الطبيعي أن يشتد بأس الخزر في تلك الفترة ويستفحل أمرهم لأن العباسيين لم يحاكوا الأمويين في فتوحاتهم في القوقاز، حتى الحروب والمعارك التي كانت تقوم بينهم وبين البيزنطيين، مما كان يدفع العباسيون إلى شن الغارات لرد العدوان فقط ولإجبارهم على احترام المعاهدات واستمرار دفع الجزية.

وهنا نلاحظ أن الغارات المتواصلة التي وجهها الخليفة العباسي المنصور ضد البيزنطيين لم تحقق النجاح الذي أصابته في عهد الأمويين، فضلا عن ذلك فإن الحملات التي وجهها المنصور ضد الأتراك الخزر في بلاد القبق (القوقاز) لم تؤد إلى توسع ملحوظ(١٠٧).

وفي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م/ ١٧٠-١٩٣هـ)، قام الخزر بهجوم كبير على أرمينيا، وتمكنوا من هزيمة المسلمين هزيمة قاسية. وكان على رأس المسلمين سعيد بن سلم الباهلي الذي وليه الرشيد على أرمينيا، وكان "ملك الخزر قد زحف في خلق عظيم فأغار على المسلمين، فقتل وسبى خلقا عظيما

= Patrologia Oriental., Vol viii, pp. 543-4.

(١٠٧)Brocklman (C) : History of the Ialsmic People, (London, 1979), p. 111.

وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان"[108]، الأمر الذى دفع الخليفة إلى إرسال خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد الشيبانى فأخرجوا الخزر بعد عناء شديد"[109].

وتوضح المصادر بواعث تلك الغارة التى شنها الخزر على المسلمين حيث يذكر اليعقوبى[110] وابن أعثم[111] أن الباعث عليها هو قيام سعيد بن سلم بقتل النجم بن هاشم صاحب الباب والأبواب، فأرسل ابنه حيون بن النجم إلى ملك الخزر بهدايا وطلب منه أن يصير إليه بجيشه حتى يغنمه من بلاد الإسلام. ويشترك معهم فى ذكر هذا الباعث كل من الطبرى[112] وابن الأثير[113] والنويرى[114] وابن العبرى[115] الذين يذكرون "أن الخزر انتهكوا أمرا عظيما لم يسمع فى الإسلام بمثله"، إلا أنهم يزيدون على ذلك بذكر باعث آخر لتلك الغارة بالإضافة إلى الباعث الذى ذكرناه

---

(108) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، حـ٢، ص٤٢٧-٤٢٨.

ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٢٥٦-٢٥٩.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ١٠، ص١٨٣.

الذهبى : دول الإسلام: حـ١، ص١١٧.

فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، ح٢، ص١٦٤.

Shaban: op. Cit., (Combridge, 1981), Vol. 2, p.34.
Glubb: op. Cit., p. 275.
Dunlop: op. Cit., p. 184.
Bury: op. Ciy., p. 408.

(109) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٥، ص١٠٧-١٠٨.

(110) تاريخ اليعقوبى: حـ٢، ص٤٢٧.

(111) كتاب الفتوح: حـ٨، ص٢٥٧-٢٥٨.

(112) تاريخ الرسل والملوك، حـ٨، ص٢٧٠.

(113) الكامل فى التاريخ، حـ٥، ص ١٠٧-١٠٨.

(114) نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ٢٢، ص١٣٣.

(115) تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٣.

آنفا وهو فشل المحاولة التى رمت إلى تحالف الدولتين بزواج الفضل بن يحيى البرمكى من أبنه ملك الخزر حيث حملت بنت خاقان الخزر سنة ٧٩٨م (١٨٢هـ) إلى الفضل فماتت ببرذعة، فرجع من جاء معها إلى أبيها، فأخبروه أنها قتلت غيلة وفى العام التالى كانت غارة الخزر على المسلمين.

ومهما يكن من أمر فإن ذلك كله كان فى مصلحة الإمبراطورية البيزنطية التى كانت بعيدة النظر حينما أقامت تحالفا مع الخزر. بعد ذلك لم نسمع عن أية علاقات بين المسلمين والخزر إلا فى الرحلة الشهيرة التى قام بها سلام الترجمان إلى الأصقاع الشمالية، وقد رواها الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون[١١٦]. وكان الدافع لهذه الرحلة دافعا خياليا بحتا، إذ يروى أن الخليفة العباسى الواثق بالله (٨٤٢-٨٤٧م/٢٢٧-٢٣٢هـ)، قد تراءى له فى المنام كأنما انفتح السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين، الذى يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج. فأرعبه هذا المنام، فأمر سلاما بأن يرحل ليتفقد السد، ولعل الشائعات قد سببت هذا الحلم المزعج، عن تحرك القبائل التركية فى أواسط آسيا، والحقيقة أننا لسنا هنا بصدد عرض الرحلة وتفاصيلها ولكن ما يهمنا أن سلاما فى خط سيره – مر على بلاد الخزر وأقام عند ملك الخزر يوما وليلة، حتى وجه معه خمسة أدلاء ليكملوا رحلتهم.

ومن عجيب ما طالعناه عند القزوينى[١١٧]ما ذكره أبو حامد الأندلسى فى "كتاب العجائب" عن سلام الترجمان أنه قال: "أقمت عند ملك الخزر أياما، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جدا وجذبوها بالحبال، فانفتحت أذن السمكة

---

[١١٦] ابن خرد ذابة: المسالك والممالك، ص١٦٢-١٦٥.

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. ص٣٦١-٣٦٤.

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب. ص٢٧٠-٢٧٨.

[١١٧] عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص١١٢.

وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجوها إلى البر. وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها، وتصيح، وقد خلق الله تعالى فى وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتها كأنه إزار مشدود على وسطها، فامسكوها حتى ماتت".

وقد تساءل حسين فوزى فى كتابه "حديث السندباد القديم[١١٨] عن تفسير ما رأى سلام الترجمان عند ملك الخزر وكتب فى هذا الصدد يقول: "أيكون الملك قد عرض على خليفة المسلمين منظرا تمثيليا من نوع "البانتوميم" احتفاء به واحتفالا بقدومه، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة؟ أو أن ملك الخزر كان ماجنا مهزارا لا يرى عيبا أن يسخر من ضيفه فيدخل عليه منظر الغانية التى تخرج من أذن سمكة عظيمة جدا فيبتلع سلام المنظر والغانية والسمكة الكبيرة؟".

ونستشف من تلك القصة الخيالية أن يكون سلاما قد نقل إلى الخليفة الروايات والمشاهدات المحلية التى سمعها فى الأماكن التى زارها، وربما يكون حديث تلك السمكة مشهورا عند عامة الناس فى بلاد الخزر، فسمعها سلام ونسبها إلى مشاهداته الخاصة لاعتقاده فى صحة هذه القصص التي حكيت له. وعلى أية حال فإن رحلة سلام واقعة تاريخية لا شك فيها، وقد اهتم بها العلماء اهتماما واسعا وهى إن دلت على شيء، فإنها تدل على أنها كانت دليلا على أن الخزر كانوا على صلات بالخلفاء المسلمين فى تلك الحقبة.

---

(١١٨) ص ١٣٥.

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية بمملكة الخزر

- التنظيم السياسى.
- القضاء.
- الجيش.
- اللغــــة.
- المجتمع.
- النشاط الاقتصادى.
- الديانـــــة.

اختلف الباحثون فى تاريخ دولة الخزر، على الرغم من قلة الدراسات فى هذا الموضوع فمنهم من عرفها بالمملكة، وغيرهم عرفها بالإمبراطورية أو الدولة القبيلة، ومنهم من وضع اسم الخزر فى صدر دراسته دون تحديدها بشكل معين. ومرجع ذلك إلى أن الأحداث التاريخية المتوفرة عن الخزر وتركيبتهم الاجتماعية والسياسية تطورت من فترة إلى أخرى على مراحل تاريخهم، ولم يأخذ شكلا محددا بصورة نهائية. وعندما تكاملت البنية الاجتماعية لشعب الخزر أخذت شكل الدولة بعد أن كانت مجموعة قبائل متفرقة، وأصبح للخزر مملكة نعمت بنعمة الاستقرار، على عكس بعض الشعوب الأوربية فى العصور الوسطى التى كانت صاحبة تجوال وترحال. ومع بداية القرن السابع الميلادى أو قبل ذلك بقليل عاش الخزر أزهى عصورهم حيث تغيرت أحوالهم وتحولوا إلى شعب حضارى، امتهن حرفة التجارة واعتنق الديانة اليهودية، وكان لهم تنظيمهم السياسى المنفرد وجيشهم وقضائهم ولغتهم ومجتمعهم المتميز.

ومن ثم فنحن نقرأ فى مادة خزر[1] Chazar بدائرة المعارف اليهودية عبارة تقول "لقد نعم الخزر بجميع امتيازات الأمم المتحضرة، تشريع متقن، حكومة متسامحة، تجارة منتعشة، وجيش مدرب على أهبة الاستعداد فى الوقت الذى ران فيه التعصب والجهل والفوضى على أوربا الغربية. كان يحق لمملكة الخزر أن تفاخر بحكومتها العادلة الواسعة الأفق.

التنظيم السياسى:

قام التنظيم السياسى الخزرى أساسا على الملكية أو الخاقانية وقد بسط لنا الرحالة والجغرافيون هذا الأمر، فابن فضلان[٢] يقول فى هذا الشأن:"فأما ملك الخزر، واسمه خاقان، فإنه لا يظهر إلا كل أربعة أشهر متنزها، ويقال له خاقان الكبير

---

(1) Rosenthal: The Jewish Ency., Vol.. iv, p.2.

(٢) رسالة ابن فضلان، ص١٦٩.

ويقال لخليفته خاقان به وهو الذى يقود الجيوش ويسوسها ويدبر امر المملكه ويقوم بها ويظهر ويغزو وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه"

اما ابن رسته" فيقول "ان للخزر ملك يقال له ايشا والملك الاعظم انما هو خزر خاقان وليس له من طاعة الخزر الا الاسم. ومدار الامر على ايشا. اذ كان فى القيادة والجيوش بالموضع الذى لا يبالى معه باحد فوقه ورئيسهم الاعظم على دين اليهودية وكذلك أيشا ومن يميل ميله من القواد والعظماء"

ويذكر المسعودى[٤] قائلا:"وليس أخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان. وذلك أن للخزر ملكا يقال له خاقان، ورسمه أن يكون فى يدى ملك آخر هو وغيره فخاقان فى جوف قصر، لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة، ولا الخروج من مسكنه، معه حرمه لا يأمر ولا ينهى، ولا يدبر من أمر المملكة شيئا".

أما الأصطخرى[٥] وابن حوقل[٦] فيقولان فى هذا الصدد: "وأما سياستهم وأمر المملكة بهم فإن عظيمهم يسمى خاقان خزر، وهو أجل من ملك الخزر إلا أن ملك الخزر هو الذى يقيمه" وفى موضع آخر يذكران "ملك الخزر يسمى بلسانهم بك ويسمى أيضا باك".[٧]

---

[٣] الأعلاق النفيسة، ص١٣٩

Macarthy: The Magyars in the Ninth Century, p.198.

[٤] مروج الذهب ومعادن الجوهر. حـ١، ص١٣٦

[٥] المسالك والممالك ، ص ١٣١

[٦] المسالك والممالك ، ص ٢٨٣

صورة الأرض. ص ٣٩٠

[٧] الأصطخرى : المسالك والممالك . ص ١٢٩

ابن حوقل المسالك والممالك . ص ٢٧٨

صورة الأرض ص ٣٩٠

ياقوت معجم البلدان حـ٣ ص٤٣٣

القزوينى آثار البلاد وأخبار العباد ص٥٨٥

أما الكرديزى[٨] فيقول: "أن للخزر ملك عظيم يسمى الشاد، كما أن لهم عظيما آخر يسمى خاقان الخزر، وليس له إلا الاسم فقط، أما مدار شغل الولاية والحشم فهو على الشاد، وليس هناك إنسان أعظم منه مطلقا".

وعند تقليب هذه الروايات على وجوهها نخلص منها إلى وجود شخصين في مملكة الخزر يقومان بأعباء الحكم[٩] الأول الخاقان والثانى نائبه، ويتضح من تلك الروايات أيضا أن نائبه كان صاحب السلطة العليا والفعلية فى البلاد، وكانت له مقاليد التصرف المطلقة في كل ما يتعلق بالمملكة، كما كانت له السيادة والمهابة.

على أن هناك بعض الملاحظات على تلك الروايات السابقة، إذ نجد المصادر السابقة تختلف فيما بينهما بشأن لقب ملك الخزر ونائبه، فعلى سبيل المثال يطلق ابن فضلان على ملك الخزر لقب خاقان الكبير وعلى نائبه خاقان بك، فى حين أن المسعودى يطلق عليه خاقان وعلى نائبه ملك، والأصطخرى يطلق عليه خاقان خزر وعلى نائبه ملك الخزر كما يطلق عليه بك أو باك، أما ابن رسته فيطلق عليه خزر خاقان وعلى نائبه ايشا، والكرديزى يطلق عليه خاقان الخزر وعلى نائبه الشاد.

ويبدو أن كلمة شاد[١٠] ليست تركية الأصل وهى إلى حد كبير وردت على الخزر من الخارج، فهذه الكلمة على ما يبدو هى الصورة القديمة لكلمة شاه الفارسية التى تعنى الملك، وحرفت عندما استخدمها الخزر إلى هذا الشكل.

---

(٨) زين الأخبار، حـ٢، ص٤٦٣.

(9) Macarthy: op. Cit., pp. 197-9.
Hudud Al Alam., p. 451.
Koestler: op. Cit., p. 54.

(١٠) شاد : "هو لقب أعضاء أسرة الخان الذين يرأسون القبائل".
انظر، بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى. ص٨.

ولكن الشيء المفروغ منه أن الحكم بمملكة الخزر كان يتقاسمه شخصان (عاهلان) وإن لم نلمس ذلك أو نجد دلالة واضحة عن ازدواجية الحكم في استعراضنا للحروب الطويلة التى دارت بين الخزر والمسلمين.

على أن ظاهرة الشخصين اللذين يقومان بأعباء الحكم بمملكة الخزر أو العاهلين نلمسها بشكل واضح بين الشعوب التركية الأخرى كالقراخانية Qarakhanids وكذلك نجد لها نظائر فى اسبرطة الإغريقية قديما واليابان فى العصور الوسطى أيضا كان هناك فى الحكم الشوجن Shogun والميكادو Mikada[١١] والحقيقة أن وجود شخصين على رأس الحكم بمملكة الخزر يدفعنا إلى القول أنه ربما كان للخزر عقلية تفرق بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية.

أما عن العلاقة بين ملك الخزر ونائبه وعن مراسم الخاقان فقد كان هذا النائب "يدخل فى كل يوم إلى خاقان الكبير متواضعا يظهر الإخبات[١٢] والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافيا وبيده حطب، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود، جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلف هذا أيضا رجل يقال له جاوشيغر"[١٣]كما أن هذا الملك (الخاقان) يعظم ويسجد له كل من يدخل عليه "ولا يصل إليه أحد إلا نفر يسير مثل الملك (نائبه) ومن فى طبقته ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثه، فإذا دخل عليه تمرغ فى التراب وسجد وقام من بعد، حتى يأذن له بالتقرب، وإذا حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان، فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيما له".[١٤] وكان

---

(11) Art, Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 946.
Rosenthal: Art. Chazar, in the Jewish Ency., vol. iv, p..4.
Bury: A History of the Eastern Roman Empire, p. 404.
Koestler: op. Cit., 54.

(١٢) الإخبات : الخشوع والتواضع، "أخبت إلى ربه أى اطمأن إليه وفيه خبته أى تواضع"، انظر ابن منظور: لسان العرب، حـ٢، ص١٠٨٧.

(١٣) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص١٦٩-١٧٠.

(١٤) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٣١.

منصب الخاقان مقصورا على أهل بيت بأعيانهم من قديم الزمان.[15] ولم تكن تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهودية.[16] وكانت مدة حكم ملكهم أربعون عام، إذا جاوزها يوما واحدا قتلته الرعية وخاصته، وقالوا "هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه".[17] أي أن الفترة المحددة لحكم الخاقان هي السبيل الوحيد لإقصائه وليست صيحة الشعب واستيائه.

أما عن مراسم تنصيب الخاقان بمملكة الخزر فيذكر المسعودى[18] قائلا: "ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته، ومعه في حيزه فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبه، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم أو فاجأهم أمر من الأمور، نفرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر، فقالوا له :قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاءمنا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله، فربما سلمه إليهم فقتلوه، وربما تولى هو قتله، وربما رق له فدافع عنه، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه ......" ويعقب المسعودى بأن ذلك رسم الخزر في ذلك الوقت، ولا يدرى أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث.

والخزر "إذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاءوا به فيخنقوه بحريره حتى إذا قارب أن ينقطع نفسه قالوا له: كم تشتهي مدة الملك، فيقول كذا وكذا سنة، فإن مات دونها وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة"[19] والحقيقة أن تلك الصورة الخاصة

---

(15) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، حـ١، ص١٣٦.

(16) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٣١.

(17) ابن فضلان: رسالة بن فضلان، ص ١٧٢.

القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٥.

(18) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص ١٣٦.

(19) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٣١.

ابن حوقل: المسالك والممالك ، ص ٢٨٣-٢٨٤.

صورة الأرض، ص ٣٩٥.

باحتفالات تنصيب الخاقان عند الخزر وما يصاحبها من طقوس غريبة تثير الغرابة والدهشة، ولا ندرى هل تحرى المؤرخون المسلمون الدقة في عرضهم لهذا الموضوع أم أن هذا الموضوع يعتبر في حكم العادى إذا نظرنا إليه بروح العصور الوسطى ولم ننظر إليه بروح العصر الحاضر.

أما مراسم دفن الملك فقد كانت أغرب مما سبق حيث إن "رسم الملك الأكبر إذا مات يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتا، ويحفر له في كل بيت منها قبر. وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل، وتفرش فيه، وتطرح النورة[٢٠] فوق ذلك، وتحت الدار نهر، والنهر كبير يجرى ويجعلون القبر فوق ذلك النهر، ويقولون: "حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام". وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت، ويسمى قبره الجنة. ويقولون: "قد دخل الجنة". وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب".[٢١] وإذا مات ودفن لم يمر أحد بقبره إلا ترجل وسجد له، ولا يركب حتى يغيب عن قبره.[٢٢] ويبدو أن الملك كان يعامل معاملة الإله من حيث القدسية والطاعة العمياء من قبل رعاياه. ويؤكد ذلك أنه بلغ من طاعتهم لملكهم أن أحدهم ربما وجب عليه القتل - ويكون من كبرائهم - وكان الملك لا يريد قتله على الملأ، فيأمره أن يقتل نفسه، فيذهب إلى منزله ويقوم بقتل نفسه[٢٣].

=الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٦٣.

[٢٠] النورة : من الحجر الذى يحرق ويسوى منه الكلس ويحلق به شعر العانة.
انظر ابن منظور : لسان العرب، جـ٦، ص٤٥٧٣.

[٢١] ابن فضلان : رسالة ابن فضلان، ص ١٧٠-١٧١.

[٢٢] ابن حوقل: المسالك والممالك ، ص ١٣١.
صورة الأرض، ص ٣٩٥.

[٢٣] الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٣١.

ولقد تشكك المؤرخ المحدث بيورى فى أقوال الجغرافيين المسلمين فى القصص العجيبة التى أوردوها والمصادر التى اعتمدوا عليها[٢٤] والحقيقة أن ما يؤخذ على المؤرخين المسلمين المعنيين بالخزر أنهم ركزوا اهتمامهم على الأشياء الغريبة العجيبة فقط دون غيرها، ومن المحتمل أنه لو صحت تلك العادات عند الخزر فإنها ربما تولدت عندهم من ماضيهم القبلى الذى كانت تكتنفه الهمجية.

وفى الرسالة التى بعث بها الملك يوسف ملك الخزر - فى القرن العاشر الميلادى إلى حسداى وزير خارجية الخليفة الأموى بالأندلس عبد الرحمن الثالث (٩١١-٩٦١م/ ٣٠٠-٣٥٠هـ) والذى تعرض فيه لنواحى كثيرة بمملكة الخزر. نجدها خالية تماما مما عرضته المصادر الإسلامية الأمر الذى يدفعنا إلى القول أن المراسيم والعادات والتقاليد التى لازمت الخزر فى فجر ظهورهم قد نالتها يد التغير والتبديل بعد اعتناقهم الديانة اليهودية.

ولا تدل المصادر المتاحة لدينا على أن اختيار الخزر لملوكهم كان عن طريق الانتخاب الشعبى أو إعلان الموافقة على ما اختاره زعمائهم أو عن طريق العنف والغدر والاغتيال. والمطلع على الخطاب الذى أرسله الملك يوسف إلى حسداى يجد أنه أورد قائمة بأسماء الملوك الذين سبقوه، وقد بدأ بذكر الملك عبديه Obadiah الذى خلفه ابنه هيزيكياه Hezekiah الذى خلفه ابنه مانشه Manasseh وقد خلف مانشه هانوكاه Hanukkah أخو عبديه، وقد خلف هانوكاه أخاه إسحاق Isaac، وقد خلف إسحاق ابنه موسى Moses (أو مانشه الثانى) والأخير خلف ابنه نيسى Nisi الذى خلف ابنه آرون الثانى Aron II. ثم الملك يوسف Joseph كان نفسه ابن الملك آرون، وارتقى العرش طبقا للقانون الخزرى الذى يعتبره خليفة والده[٢٥] وبذلك يتضح أن طريقه الوصول إلى العرش فى مملكة الخزر كان عن طريق النظام الوراثى.

---

(24) A History of the Eastern Roman Empire, p. 405.

(25) Rosenthal : Art. Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p. 2.
Koestler : op. Cit., p. 74.

وكيفما كان الأمر فقد كشفت تلك المعلومات عن أسلوب اختيار الخزر لملوكهم والمراسيم المختلفة التى كانت تجرى فى بلاطهم. ويتضح ذلك فيما أورده المؤرخ والإمبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيروجينيتوس[٢٦] فقد ذكر أن خاقان الخزر كان يتمتع بمكانه طيبه فى البلاط البيزنطى وكانت الرسائل الدبلوماسية التى كان يرسلها البلاط الإمبراطورى إلى خاقان الخزر تحمل سمات الاحترام والتقدير. فالرسائل التى كان يبعث بها البلاط البيزنطى إلى حكام مصر وسردينيا وسالرنو وكابوا ونابولى وروما والبلغار وغيرهم، كانت ترسل مختومة ومذهبة بختم يساوى عمله ذهبية واحدة (صولدى)، أما الرسائل التى كانت ترسل إلى خاقان الخزر، فقد كانت ترسل مختومة ومذهبة بختم يساوى ثلاثة صولدى Trisoldai، الأمر الذى يدل - كما سبق القول - على أن خاقان الخزر كان يتمتع بمكانة رفيعة فى البلاط البيزنطى.

القضاء:

من المتعارف عليه أن السلطة القضائية تكون منفصلة عن السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية. والقضاء لا يحكم وفقا لرأى الحاكم، وإنما يحكم وفقا لنظام أو شريعة معينة يستند إليها.

ويوضح لنا المسعودى[٢٧] الوضع القضائى فى مملكة الخزر قائلا: "ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة، اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية، وهى قضايا عقلية فإذا ورد عليهم مالا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام".

(26) De Cerimoiis Aulae Byzantinae, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, 1829), Vol. I, p. 590.

(٢٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، حـ١، ص١٣٥.

ويتضح مما سبق أن النظم القضائية للأديان المختلفة في هذه المملكة كانت كل منها منفصلة عن الأخرى. فكان المسلمون يحكمون بين الناس على أساس أحكام القرآن الكريم والنصارى على أساس أحكام الإنجيل، والخزر الذين تهودوا على أساس أحكام التوراة ويتضح أيضا من عدد القضاة وتوزيعهم أن أصحاب الديانات الوثنية هم أقل الفرق بالمملكة، كما أن تصريف شئون العدالة في تلك المجتمعات كان يتم بصورة عادلة أمام محاكم عادلة. وكان لأى مواطن خزرى الحق في أن يرفع دعوى على خصمه، ومن هنا كان على الخصم أن يمثل أمام المحكمة التي تخصه من المسلمين أو النصارى أو اليهود أو الوثنيين، ويجرى الاقتصاص منه. ومما يدل على صحة ما أورده المسعودى أننا لم نسمع عن أى اضطهاد دينى قام به الخزر ضد أصحاب الديانات السماوية، بل كانت مملكة الخزر في الحقيقة مأوى وملجأ للمضطهدين دينيا من اليهود، كما ظهرت جليا العدالة في توزيع القضاة على طبقات المجتمع الخزرى والشىء الملاحظ هنا أن قضايا النزاع التي كانت تنشب بين مسلم وآخر غير مسلم كانت تحال إلى المحاكم الإسلامية ليجرى الفصل فيها وفقا للشريعة الإسلامية فمثلا إذا جرى قيام دعوى قضائية بين مواطن مسلم ومواطن نصرانى أو مواطن يهودى وآخر من هاتين الطائفتين فإن ذلك يحال إلى المحاكم الإسلامية وحدها.

وإلى جانب ذلك فقد كان لملك الخزر دور قضائى، فقد نهض بمهمة الاستماع إلى الدعاوى القضائية والفصل في المنازعات، ويقول الأصطخرى[٢٨]: "وللملك سبعة[٢٩] من الحكام (القضاة) من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل

---

[٢٨] المسالك والممالك، ص ١٢٩.

ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٢٧٩.

: صورة الأرض، ص ٣٩٠.

[٢٩] ذكر ياقوت، نفس هذا المقطع بالنص، إلا أنه ذكر أن للملك تسعة من الحكام وليس سبعة، ويبدو أن الصواب سبعة لاتفاق المسعودى والاصطخرى وابن حوقل على هذا الرقم. =

الأوثان، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه، وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء - وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجرى من الأمر، وينتهون إليه، فيرد عليهم أمره ويمضونه".

ومما يبعث على الدهشة ما أورده ابن حوقل[٣٠] عن الأحكام القضائية بقوله: "وما جرى فى أحكام الملك من أشياء كالخرافة ومنها ما حكاه المعتضد، وقد ذكر بين يديه فازدراه ذاكره فقال المعتضد كلا إنه لمروى عن النبى ﷺ أنه قال "الله جل اسمه لم يول رجلا قوما إلا وأيده بضرب من التسديد وإن كان كافرا". ومن ظريف ذلك أن رجلا من أهل خزران كان له ولد قد تصرف فى التجارة ومهر فى الأخذ والعطاء، فأخرجه إلى بلغار الداخل ولم يزل يجهز عليه التجارة، وتبنى بعد إخراج ابنه عنه عبدا كان له فخرجه وبصره فحسنت بصيرته فيما ندبه له من التجارة حتى دعاه بالنبوة لقربه من طاعته وقلبه وطالت غيبة الابن، ومقام الغلام فى خدمة الأب إلى أن هلك الرجل وأقبل الابن على الجهاز ولم يعلم بموت أبيه، والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عرضا مما يرد إليه، وكاتب الابن الغلام لينفذ إليه الجهاز على رسمه فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما بيده ويقبض منه ما لأبيه عنده، فورد على الابن ما أسرع به إلى مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة فى ذلك، والحجاج بالبينات، فكان إذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافيا من الحجة، جاء الآخر من الشبه بما وقف حاله وأكثر أحكامهم مبنى على مثل ذلك".

ويستمر ابن حوقل[٣١] قائلا: "وطال بهما التنازع حولا كاملا، إذ طالت الخصومة وصار الأمر فى التشاجر والمنازعة إلى حال الوقوف أتلى الملك بين

= انظر : معجم البلدان حـ٣، ص٤٣٣.

[٣٠] صورة الأرض، ص٣٩١.

المسالك والممالك، ص٢٧٩

[٣١] صورة الأرض، ص٣٩١-٣٩٢

الخصمين، فجلس لهم وأحضر جميع الحكام وأهل البلد وأعادا دعواهما منذ ابتداء الخصومة، فلم ير الملك لأحدهما على الآخر سبيلا لتكافؤ البينات عنده. فقال الملك للابن أتعرف قبر أبيك على الحقيقة، فقال عرفته ولم أشهد دفنه فأحقه. فقال للغلام المدعى أنت تعرف قبر أبيك فقال نعم أنا توليت دفنه، فقال على منه برمة إن وجدتموها، فأتى الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه الباليه. وجيء بها إليه. فقال للغلام المدعى بنوة التاجر أفصد نفسك ففصد، ثم أمر فألقى دمه على العظم فتسرب الدم عنه ولم يعلق بشيىء منه، وفصد الابن وطرح دمه على ذلك العظم فنشفه وعلق به. فأدب الغلام وعزره ودفعه وماله إلى الابن".

والحقيقة أن تلك القصة رغم ما يكتنفها من مبالغة إلا أنها تبين أن الخزر احتفظوا بعادات بدائية تخلفت عندهم من ماضيهم القبلي.وهذه الطريقة التى اتبعها الملك يمكن أن نطلق عليها طريقة التحكيم الإلهى، وهى وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أو مجرما. وهى أيضا ممزوجة بالطقوس الدينية، لأن مسئولية إثبات دليل البراءة أو الذنب ترجع عندئذ إلى الإله. ولا شك أنهم كانوا يلجأون إلى تلك الطريقة بعد استنفاذ جميع الوسائل الدالة على إدانة المتهم أو إخفاقة فى إثبات دليل براءته ومهما يكن من أمر فإن رواية ابن حوقل تحملنا على الاعتقاد بأن حكم الملك كان ساريا على الطبقات المختلفة التى شكلت المجتمع الخزرى. وتوضح أيضا أنه كان من واجبات الملك الخزرى الفصل فى المنازعات والخصومات، وأن أحكامه كانت ملزمة واجبة النفاذ، لا تقبل المعارضة أو المداولة أو الطعن فى الحكم أو الاستئناف العالى، وربما مرجع ذلك إلى أن المفاهيم الأخيرة لم تكن سائدة ومعروفة فى ذلك الوقت.

على أن المصادر المتاحة بين أيدينا عجزت عن إمدادنا بالمزيد من المعلومات المتعلقة بالقوانين المختلفة المختصة بكيفية معالجة القضايا المختلفة

المتعلقة بالاعتداءات والوراثة أو تقسيم الملكية أو الزواج والطلاق وغيرهما من المسائل الأخرى.

الجيـــــش:

لا شك أن دولة كدولة الخزر تقع فى موقع استراتيجى فى شرق أوربا بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية والعديد من الشعوب القاطنة فى شرق أوربا،كان عليها أن تعمل حسابا لتلك الشعوب. وكان لابد من وجود جيش قوى على أهبة الاستعداد أو يتصف بالكفاية والدراية بفنون الحرب، يحرسها ويقيها.

وسبق القول أن المصادر الإسلامية أوضحت أنه كان على راس مملكة الخزر شخصان أحدهما كان يعامل معاملة القدسية وليس له من الأمر شىء وهو الملك والثانى نائبه الذى كان عليه تدبير المملكة من قيادة الجيش إلى أدنى الأمور بالمملكة، ولكن يبدو أن للخاقان الكبير دور بالنسبة للأمور الخطيرة كإعلان الحرب، "وإذا ركب هذا الملك الكبير ركبت سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد من رعيته إلا خر لوجهه ساجدا له لا يرفع رأسه حتى يحوزه[٣٢]". وبذلك كان الملك الأكبر لا يخرج إلا إذا تعرضت الدولة الخزرية لخطر عظيم من أعدائها.

أما عن التشكيلات والتجهيزات الحربية وأسلوب قتال الخزر فى الحرب، فنجد ذلك فى نص ابن رسته[٣٣] إذ يقول: "وهم يغزون البجناكية فى كل سنة وأيشا (نائب الخاقان) هذا يتولى الخروج بنفسه، ويخرج فى مغازيه بعساكره ولهم جمال ظاهر وإذا خرجوا فى وجه من الوجوه، خرجوا بأسلحة تامة محلاة وأعلام

---

[٣٢] ابن فضلان: رسالة بن فضلان، ص١٧١.
القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٨٥.
ياقوت : معجم البلدان، حـ٣، ص٤٣٥.

[٣٣] الأعلاق النفيسة، ص١٤٠.

طرادات[٣٤] وجواشن[٣٥] محكمة وركوبه فى عشرة آلاف فارس ممن هو مرتبط أجرى عليهم، وفيهم من قد وظف على الأغنياء وإذا خرج لوجه من الوجوه هيئ بين يديه مثل شمسه على صنعة الدف يحتمله فارس يسير به أمامه، فهو يسير وعسكره خلفه يبصرون ضوء تلك الشمس، فإذا غنموا جمعوا تلك الغنائم كلها فى معسكره ثم اختار أيشا منها ما أحب وأخذه لنفسه وأطلق لهم باقى الغنيمة ليقتسموها بينهم".

ويشير الكرديزى[٣٦] إلى الأسلوب القتالى الذى كان يتبعه الخزر قائلا: "وهم يذهبون كل عام إلى ولاية بجناك للغزو، ويجلبون من هناك المال والسبايا. ويأخذ الشاد (نائب الخاقان) خراجه ويوزعه على الجيش ولهم أثناء غزو البرداس (البرطاس) الأعلام والطرادات والجواشن المحكمة والمعارك الضاربة. وحينما يركب ملك الخزر يركب معه عشرة آلاف فارس بعدتهم وآلاتهم، وبعضهم يأخذ الرواتب وبعضهم يأخذ مما يوضع على الأغنياء من أموال وصدقات، وحينما يذهبون إلى الغزو يتركون جيشا كثيفا فى ديارهم حتى يرعوا الأبناء والذخيرة ولهم طلائع تتقدم الجيش كما تتقدم الملك الشموع والنفاطات[٣٧] التى صنعت من الشمع حتى يسير على نورها مع الجيش. وحينما يغنمون غنيمة فإنهم يجتمعون جميعا فى المعسكر ثم يأخذ قائدهم لنفسه كل ما يريد من تلك الغنائم ثم يقسم الباقى بين الجيش. ويأمر قائدهم أن يحمل كل جندى دبوسا له راس حادة مقداره ثلاثة أزرع، وحينما ينزلون يغرسون تلك الدبابيس حولهم، ويعلقون على كل دبوس درعا وبذلك

---

[٣٤] طرادات : جمع طراد وهو الرمح القصير.
انظر ابن منظور : لسان العرب، ص٢٦٥.

[٣٥] جواشن : الجوشن، اسم الحديد الذى يلبس من السلاح (الدرع).
انظر : ابن مظور : لسان العرب، حـ١، ص٦٢٩.

[٣٦] زين الأخبار، حـ٢، ص٤٦٤-٤٦٥.

[٣٧] النفاطات ضرب من السرج يرمى بها بالنفط وهى أدوات تعمل من النحاس يرمى فيها بالنفط والنار، انظر ابن منظور: لسن العرب، حـ٦، ص٤٥٠٦.

يصنعون ما يشبه السور المعسكر، ولو أراد عدو أن يباغتهم ليلا ويقيم معهم معركة فإنه لا يستطيع لأن المعسكر بتلك الدبابيس المدرعة يصير كأنه الحصن".

وإذا تمعنا فيما أورده ابن رسته والكرديزى نجد أن الحرب عند الخزر كانت من التقاليد الراسخة نظرا للظروف الجغرافية المكانية التى كانت فيها مملكتهم، كما يتضح أن ملك الخزر كان هو القائد الأعلى للجيوش الخزرية، فإذا أعلن أوامره لحملة عسكرية على أحد الشعوب القاطنة حول الخزر كالبجناكية أو ضد المسلمين، وجب على الجميع الإنصياع لأوامره كما أنهم على ما يبدو لم يعرفوا مبدأ الشورى فى تصريف الأمور العسكرية وبعبارة أخرى لم يكن الملك يأخذ برأى كبار قادته العسكريين.

ولا شك أن جيش الخزر قد واكب مبتكرات زمانه فى المعدات وفنون الحرب. إذ يتضح مما أورده ابن رسته والكرديزى من أنهم فى حروبهم كانوا يخرجون بأسلحة تامة وأثناء حروبهم مع المسلمين كانوا يستخدمون بعض العجلات الحربية وكان ملكهم يستخدم إحدى هذه العجل والتى كانوا يطلقون عليها اسم الجدادة وقد فرشت له بأنواع الفرش وقد عليت بقبة من الديباج وعلى رأس القبة رمانة من ذهب.(٣٨)

أما عن أعطيات الجند فيبدو أنها كانت تعتمد اعتمادا كليا على الغنيمة وكان الملك أو قائد الكتيبة يتقاضى أكبر قدر بينما يتقاضى من هم دونه باقى تلك الغنيمة، كما أنه كان للخزر أساليب تكتيكية استراتيجية فى الحروب انفردت على ما يبدو به وهو أسلوب الحصار الدفاعى الذى تخلقه حول كتائبها والذى يشبه الحصن ويقيها من قدوم هجمات مفاجئة.

وقد استعان الخزر فى جيوشهم بالجند المرتزقة التى كانت تحمل السلاح وتؤدى الخدمة العسكرية فى صفوف الخزر "وليس فى الملوك من عنده جند مرتزقة

---

(٣٨) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٦٧.

في تلك الجهات غير ملك الخزر"[٣٩] وقد أوضح ذلك جليا في اشتراك أهل خوارزم في جيش الخزر الذين كانوا يحصلون عند التحاقهم على حق الحياد إذا دخل الخزر في حرب ضد بلد إسلامي[٤٠]. كما أن جنود الخزر أنفسهم انخرطوا في صفوف جيوش الإمبراطورية البيزنطية مع العناصر الأوربية والأرمينية والهنغارية التي شاركت في حروب الإمبراطورية.[٤١] وعلى أية حال فإن الجيش الخزري كان يعتمد في حروبه على الجنود النظاميين من الخزر فضلا عن الجند المرتزقة.

أما عن أعداد جيوش الخزر فقد كان للملك جيش يبلغ عدده أثنا عشر ألف رجل وإذا مات منهم رجل أقيم غيره.[٤٢] كما كان للخزر أعداد ضخمة من الجيوش والأقوام المحاربة التي تسكن مدينة طولاس Tulas الخزرية.[٤٣] وقد ذكر كل من الكرديزي وابن رسته أن عدة الجيش عشرة آلاف، والحقيقة أن هذا الرقم لا يتفق مع ما أورده المؤرخون المسلمون في حروب المسلمين مع الخزر التي زاد بعضها عن الثلاثمائه ألف وعلى الرغم من أن العدد الأخير مبالغ فيه إلا أنه بكل تأكيد كان يزيد عن عشر آلاف نظرا لأن الحروب قديما كانت تعتمد على الكثرة العددية. وقد سبق الإشارة في الفصل الثاني الخاص بعلاقة الخزر بالبيزنطيين كيف قدم حاكم الخزر أربعين ألف للإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م)[٤٤] ويمكن أن نطلق على هذه الأرقام التي ذكرتها المصادر الإسلامية أنها قوة مسلحة مرابطة مرافقة للملك فقط.

---

(٣٩) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح،١، ص١٣٦.

ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص٢٥٢.

(٤٠) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح،١، ص١٣٥.

بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص٦٠.

(41) **Kazhdan and Epstein: Change in Byantine Culture in the Eleventh and Twelfth Centuries, (London, 1985), p. 172.**
Franzius : History of the Byzantine Epire, p. 187.

(٤٢) الأصطخري : المسالك والممالك، ص ١٢٩.

(43) **Hudud Al Alam, p. 162.**

(٤٤) انظر الفصل الثاني من الكتاب.

وتجدر الإشارة إلى ما كان يلاقيه المتخاذل في الحرب من عقاب على يد الملك حيث إنه "إذا بعث سرية لم تولد الدبر بوجه ولا سبب. فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها. فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون. وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة".[٤٥]

ومهما يكن من أمر فقد كان للخزر جيش قوى استطاع أن يوقف الزحف الإسلامي على شرق أوربا – كما سبق أن أشرنا- ووقف أمام بيزنطة في فترات عديدة، وكان الجندى الخزرى ندا قويا في ملاقاته مع عدوه. هذا ولم تذكر المصادر المتاحة بين أيدينا أى شئ عن الأسطول الخزرى والدور الذى قام به. ويبدو أن القتال العسكرى البحرى عند الخزر لم يأخذ نفس الأهمية التى أخذها القتال البرى.

اللغـــــة:

تعتبر اللغة أساس الحضارة البشرية، واللغة ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس وانتقال المعلومات والخبرات بين الأفراد. أما بشأن لغة الخزر فيقرر جغرافيو العرب "أن لسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ولا يشاركه لسان فريق من الأمم".[٤٦] أى أنه كان للخزر لغة منفردة لها قواعدها ودلالاتها ونطقها وصيغها

---

[٤٥] ابن فضلان: رسالة بن فضلان، ص ١٧٢.

[٤٦] الأصطخرى : المسالك والممالك، ص١٣٠.

ياقــوت : معجم البلدان، حـ٣، ص٤٣٤.

البكــرى: المسالك والممالك، ص٤٤.

Klaproth : Memoire sur les khazars, in Journal Asiatique, T.3, pp.155-6.

الخاصة بها، وهو ما يتفق على ما يبدو مع ما ذكره المقدسى[٤٧] من أن "لسان الخزر شديد الانغلاق".

ويذهب الأصطخرى[٤٨] أيضا إلى أن "لسان بلغار مثل لسان الخزر وبرطاس" ى أنه كان للخزر والبلغار لغة مشتركة منفردة عن بقية الشعوب.

ومن جهة أخرى فقد تحدث اليهودى إبراهيم بن يعقوب (القرن العاشر الميلادى) وذكر أن الخزر كانوا يتكلمون بلغة الصقالبة (البلغار).[٤٩]

غير أن الكاشغرى[٥٠] يناقض الأصطخرى فيما ذهب إليه من أنه كان للخزر والبلغار لغة مشتركة متميزة على التركية ويجعل لهجات البلغار والسوار والبجناك متدرجة فى مجموع واحد.

على أنه يبدو أن الجغرافيين المسلمين قد أصابوا فيما ذهبوا إليه من أن الاقوام التركية التى تبدأ بالبجناك فى جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين تتكلم بلغات متشابهة فيما عدا البلغار فى حوضى الفولجا والخزر، فإن لغتهما لم تكن تفهم عند سائر الأقوام التركية ولهجة الجوفاش[٥١] الحالية هى بنفس هذا الوضع. ويسمى البلغار والخزر نهر الفولجا (أتيل) وهى كلمة جوفاشية بمعنى نهر. ومن هنا ذهب أصحاب الدراسات التركية إلى أن لغة الجوفاش هى بقايا اللسان القديم

---

(٤٧) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٣٦٨.

(٤٨) المسالك والممالك، ص ١٣١.

(49) Dunlop : The History of the Jewish Khazars, p.230.

(50) Barthold : Art. Turks, in the Ency. of Islam, Vol. vi.

(٥١) يفترض أن لغة الخزر هى لهجة الجوفاش التركية المنتشرة الآن فى الجمهورية السوفيتية بين نهر الفولجا والسورى Sura، ذلك أن الشعب الجوفاش يعود إلى حد كبير بأصوله إلى البلغار الذين تشبه لغتهم لغة الخزر.

انظر: Koestler : op. Cit., p. 21.

للبلغار وربما للخزر[52]. وبذلك تكوين لغة البلغار والخزر منسوبة إلى اللغة التركية القديمة والتى منها الآن الجواش.

ويبدو أن الشعوب الكائنة فى منطقة القوقاز كانت تندرج تحت عائلة لغوية واحدة تعود بأصولها إلى اللغة التركية وهذه العائلة تتشعب إلى العديد من الفروع، هذه الفروع تختلف وتقترب من بعضها البعض طبقا لاختلاف المسافات بينهما وطبقا لألوان الاحتكاكات فيما بينهما. وربما يكون الاختلاف اختلاف لهجات فقط.

أما عن نوعية الكتابة التى مارسها الخزر فيذكر ابن النديم[53] عند حديثه عن الترك ونوع كتاباتهم "أن الخزر تكتب بالعبرانية". والحقيقة أن ذلك صحيح إلى حد بعيد إذ أن مهاجرى اليهود إلى بلاد الخزر قد جلبوا معهم فنونا وحرفا بيزنطية أرفع مما كنا نجده عند الخزر، منها حروف الهجاء العبرية المربعة، وانتشرت هذه الكتابة العبرية فبلغت جيران الخزر من الشعوب االصقلبية.[54] ومن ثم فإن تحول الخزر لليهودية اقترن بتطورات ثقافية جاءت فى ركابه.

وفى الرسالة المتبادلة بالعبرية بين الأندلس وبلاد الخزر ذكر الملك يوسف ملك الخزر أن الخزر تكتب بالعبرية[55].

ولا يهمنا هنا الإحاطة بمفردات اللغة ومعرفة قواعدها ودلالاتها وصيغها ولهجاتها أو أشكالها الصوتية فهذا من شأن علماء اللغة، إلا أن الشىء الذى لم تفصح عنه المصادر المتاحة بين أيدينا هو كيف كان مدى الكفاءة اللغوية (وهى القدرة على استخدام اللغة) والأداء اللغوى (أى تطبيق تلك الكفاءة فى الكلام والاستماع) بين طبقات المجتمع الخزرى المختلفة والجنسيات المستقرة فيه الروسية والإسلامية

---

(52) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص٢٥.

(53) الفهرست، ص٢٩.

(54) Koestler : The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage., p. 62.

(55) The Answer of Joseph., CF., Adler: Jewish Travellers, p. 35.

والبلغارية ومعظم جنسيات العالم تقريبا. هل كان من الميسر التعامل بلغات كل تلك الجنسيات أم اقتصر التعامل فى أرض الخزر بلغة الخزر.

المجتمـــع:

قدر لمملكة الخزر أن تكون مسرحا لأجناس شتى من شعوب متباينة، ولا شك أن تلك الشعوب التى عجت بها أرض الخزر احتوت على نوعيات مختلفة من الناس أسهمت فى بناء المجتمع الخزرى. هذه النوعيات جاءت إلى أرض الخزر مدفوعة بدوافع عديدة كالهجرة والتجارة وربما المغامرة، وبذلك صارت الخزر بحق مجتمعا فريدا فى نوعه.

وكان المجتمع الخزرى يضم مختلف الطوائف الدينية تقريبا من المسلمين ونصارى ويهود وعبدة أوثان ممن يسجد ممن يسجد لبعضهم البعض عند التعظيم[٥٦]. ويلاحظ فى دراسة المجتمع أن الملك كان يقع على رأس المجتمع الخزرى وفى ذلك يذكر ابن فضلان[٥٧] قائلا: "ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه، يأخذها طوعا أو كرها. وله من الجوارى السرارى لفراشه ستون، ما منهن إلا فائقة الجمال. وكل واحدة من الحرائر والسرارى فى قصر مفرد، لها قبة مغشاة بالساج[٥٨] وحول كل قبة مضرب، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها. فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذى يحجبها فيوافى بها فى أسرع من لمح البصر حتى يجعلها فى فراشه. ويقف الخادم على باب قبة الملك، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة". ولا

---

(٥٦) الأصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٢٩.

ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٢٧٨-٢٧٩.

: صورة الأرض، ص ٣٩٠.

(٥٧) رسالة ابن فضلان، ص١٧١.

(٥٨) الساج: شجر يعظم جدا قيل لا ينبت إلا ببلاد الهند وخشبه أسود.

انظر ابن فضلان: رسالة بن فضلان، ص ١٧١، حاشية رقم ٤.

شك أن ما ذكره ابن فضلان يعتبر صوره من صور الحياة التى كان يعيشها ملك الخزر، ويتضح من خلالها كيف تمسك بمظاهر الرفاهية والترف. وبذلك نستشف أن قصور أمراء وعظماء الخزر كانت مأوى لكثير من الجوارى على اختلاف أجناسهن وطباعهن وعاداتهن وتقاليدهن ولغاتهن. ومن جهة أخرى فإن هذا الرقم الذى ذكره ابن فضلان فيما يتعلق بالجوارى والسرارى يعنى أن خاقان الخزر لم يبلغ نفوذه خمس وعشرين مملكة فحسب، بل فاق ذلك بكثير.

ومما يؤكد عادة ملك الخزر فى أخذ بنات الملوك طوعا أو كرها أنه علم بأن ابنة ملك البلغار ذات جمال، فوجه يخطبها، فاحتج عليه ورده، فبعث من أخذها غصبا وهو يهودى، فى حين أنها كانت مسلمة، فماتت عنده، فأرسل يطلب بنتا له أخرى "فساعه اتصل ذلك بملك الصقالبة (البلغار) بادر فزوجها لملك "اسكل"، وهو من تحت يده خيفه أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها[٥٩]". الأمر الذى دفع ملك البلغار إلى طلب العون من الخلافة الإسلامية ضد الخزر[٦٠].

وكان لملك الخزر قصر من آجر فى مدينة أتل وليس لأحد بناء من آجر غيره، ولا يسمح الملك لأحد أن يبنى بالآجر، أما البقية من طبقات الشعب فقد كانت تسكن فى أكواخ طينية أو خيام مصنوعة من اللباد[٦١].

ومن العناصر المختلفة التى كانت بمملكة الخزر المسلمون فقد كانت لهم مساجد وأئمة ومؤذنون وكتاتيب[٦٢].

ومن الأجناس التى حفلت بها أرض الخزر البغار والروس، وفى مدينة أتل الخزرية" يحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى. وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهى فى الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وإن مات منهم أعزب

---

[٥٩] ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص١٤٥.

[٦٠] نفس المصدر السابق، ص ١٤٥.

[٦١] الأصطخرى : المسالك والممالك، ص١٢٩.

[٦٢] ابن رسته : الأعلاق لنفيسة ص ١٤٠.

زوج بعد وفاته. والنساء يرغبن في تحريق أنفسهم لدخولهن عند حرق أنفسهن الجنة".[٦٣]

ومن المؤسف أن الرحالة القدير ابن فضلان قد حيل بينه وبين زيارة عاصمة الخزر خوفا على حياته، ولم نجد بدا من الاعتماد على المعلومات التي أوردها عن البلاد التي زارها والتي كان بعضها خاضعا للخزر وبعضها كان لهم طوائف منتشرة في بلاد الخزر.

ويصور ابن فضلان[٦٤]مظاهر الحياة الاجتماعية للروس، وهي عبارة عن صورة صادقة لمشهد الاحتفال بموت الأمير الذي انضمت إليه زوجته وجواريه في رحلته الأخيرة والتي ذكر المسعودي أنها كانت تجري بالمجتمع الخزري. ولقد فصل ابن فضلان الموت عند الروس تفصيلا بارعا حيث وقف على ذلك بنفسه وشاهده بعينه فقص علينا ما رآه في رسالته حيث يقول: "وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: "من منكم يموت معه؟" فيقول بعضهم: "أنا" فإذا قال ذلك، فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبدا ولو أراد ذلك ما ترك، وأكثر من يفعل هذا الجواري. فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه: "من يموت معه"؟ فقالت إحداهن : "أنا". فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت، حتى أنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له، وإصلاح ما يحتاج إليه. والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية، حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك[٦٥] وغيره، وجعل أيضا حولها مثل الأنابير الكبار من الخشب، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب. وأقبلوا

---

(٦٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر. حـ١، ص١٣٥.

(٦٤) رسالة ابن فضلان، ص١٥٦-١٥٨.

(٦٥) الخدنك: فارسية معربة، الخدنك وقيل الخلنج على وزن سمند وهو شجر يكون في أطراف الهند. وقيل يكثر في جرجان. انظر: ابن فضلان: رسالة ابن فضلان. صـ١٥٧،

يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم، وهو بعد فى قبره لم يخرجوه. ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات والديباج الرومى والمساند الديباج الرومي، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، ففرشت على السرير الفرش التى ذكرنا. وهى وليت خياطته وإصلاحه وهى تقتل الجوارى، ورأيتها جوان بيره[٦٦]، ضخمة مكفهرة".

ويواصل ابن فضلان[٦٧] حديثه قائلا: "فلما وافوا قبره نحو التراب عن الخشب ونحو الخشب، واستخرجوه فى الإزار الذى مات فيه، فرأيته قد أسود لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه فى قبره نبيذا وفاكهة وطنبورا فأخرجوا جميع ذلك، فإذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شيء غير لونه. فألبسوه سراويل ورانا وخفا وقرطقا وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية. وحملوه حتى أدخلوه القبة التى على السفينة وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه. وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه، وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين، وألقوه فى السفينة. ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا، ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما فى السفينة. ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها. ثم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوهما. وطرحوهما فيها. والجارية التى تريد أن تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم، فيجامعها صاحب القبة، ويقول لها: "قولى لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك" فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة وجاءوا بالجارية إلى شيء، قد عملوه مثل ملبن الباب، فوضعت رجليها على أكف الرجال، وأشرقت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها. ثم اصعدوها ثانية ففعلت كفعلها فى المرة

---

[٦٦] جوان بيرة : كلمة فارسية تتركب من كلمتين (جوان وبيرة) أى شابة عجوز، وهى أيضا "جوانبيره" بمعنى ساحرة أو تحترف صناعة السحر وهى إلاهة الموت فى الميثولوجيا.

انظر : رسالة ابن فضلان، ص ١٥٨، حاشية رقم ٦.

[٦٧] رسالة ابن فضلان، ص ١٥٨-١٦٠.

الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة، ففعلت في المرتين. ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به، وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة".

ويستمر ابن فضلان[٦٨] قائلا : "فسألت الترجمان عن فعلها فقال: "قالت في أول مرة أصعدوها هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في الثانية: هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودا، وقالت في المرة الثالثة: هو ذا أرى مولاى قاعدا في الجنة والجنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان، وهو يدعوني فأذهبوا بي إليه فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا عليها، ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها، ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانت تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت. ثم أصعدوها إلى السفينة، ولم يدخلوها إلى القبة. وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب، ودفعوا إليها قدحا نبيذا فغنت عليه وشربته فقال لي الترجمان: "إنها تودع صواحباتها بذلك" ثم دفع إليها قدح آخر، فأخذته وطولت الغناء، والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها. فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة، فأخذت العجوز رأسها أدخلتها القبة، ودخلت معها. وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري، ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية. ثم أضجعوها إلى جانب مولاها. وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلا مخالفا، ودفعته إلى اثنين ليجذباه. وأقبلت معها خنجر عريض النصل، فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعا موضعا وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة، ووجهه إلى الناس والخشبة المشتعلة في يده الواحدة، ويده الأخرى على باب أسته، وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها جنب

---

[٦٨] رسالة ابن فضلان: ص ١٦٠-١٦٣.

مولاها ثم وافى الناس بالخشب والحطب،ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها. فيلقيها في ذلك الخشب. فتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة، والرجل والجارية وجميع ما فيها ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها".

وكان إلي جانب ابن فضلان رجل من الروس فسمعه ابن فضلان يكلم الترجمان الذي كان يصاحبه، فسأله عما قال: فقال "إنه يقول: أنتم يا معشر العرب حمقي" فقلت : "لم ذلك؟" قال: "إنكم تعمدون إلي أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة، فيدخل الجنة من وقته وساعته".[٦٩]

ولا شك أن تلك الطقوس كانت - ولا زالت - من طقوس الهند، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة. وكانت تلك الطقوس تجري في وسط المجتمع الخزري. والحقيقة أن ابن فضلان فصل هذا الموضوع تفصيلا بارعا دقيقا ولا بد أنه غضب من رؤية تلك الجارية يتناولها الفجار الكفرة من أصحاب ذلك الميت في أوضاع يأباها الإسلام والدين والذوق.

ويبدو أن قبور الروس كانت تنتشر بمملكة الخزر والتي يفرش في موضعها خشبة عليها اسم الميت واسم ملك الروس. كما أشار ابن فضلان إلي أن السفينة "صارت والحطب والجارية والمولي رمادا رمددا ثم بنوا علي موضع السفينة، وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيها بالتل المدور، ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خدنك، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس، وانصرفوا"[٧٠]

ويمدنا ابن فضلان[٧١] بصورة أخرى للروس الذين كانوا يشكلون عنصرا أساسيا في المجتمع الخزري حيث يقول عنهم:"الروس يجيئون من بلدهم فيرسون

---

(٦٩) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص١٦٤.

(٧٠) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص١٦٤-١٦٥.

(٧١) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص١٥١-١٥٢.

سفنهم باتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتا كبارا من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكل واحد سرير يجلس عليه ومعهم الجواري الروقة للتجار فينكح الواحد جاريته، ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض وربما يدخل التاجر عليهم ليشترى من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه. ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه. وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة،ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط فيالقصعة، ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي بجانبه ففعل مقل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها".

والحقيقة أن ابن فضلان استنكر أشد الاستنكار وطء الروس جواريهم على الملأ وقضاء حاجاتهم علنا كما تقزز من قذاراتهم حين لقيهم على نهر الفولجا (اتل) في أرض البلغار.

ومن العناصر الجنسية التي كانت تنتشر بأرض الخزر الأتراك الغزية الذى لم يطق الرحالة ابن فضلان والذى تعود على حمامات بغداد الفاخرة قذارة الأتراك ولاحظ. أنهم "لايستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم. وكذلك لا تستر المرأة من بدنها عن أحد من الناس".[٣٢] واورد ابن فضلان كثيرا من الروايات هاله فيها ما شاهده من مصاحبة النساء للرجال وفزع رؤيتهم في عرى مخجل.

---

[٣٢] ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص٩٢.

والحقيقة أن تلك العناصر المختلفة التى كانت تشكل المجتمع الخزرى لم تنحدر إلى مرتبة التبعية المطلقة، لأنهم احتفظوا بحريتهم فى ممارسة شعائرهم وتقاليدهم وقوانينهم ولا حاجة لنا هنا أن نثير الفكرة التى تقفز إلى الذهن عند دراسة مجتمع ما والتى مفادها أن تلك العناصر الغريبة التى تستقر بدولة ما غالبا ما تنزل إن لم يكن للعبودية المحضة فهى إلى حالة شبيهة بها على الأقل.

ومهما يكن من أمر، فإنه من المؤكد أن المجتمع الخزرى كان يسبغ على تلك العناصر والطوائف المهاجرة بشأن التجارة، المعاملة الحسنة. ذلك أنهم لو اتبعوا أسلوبا مخالفا عن ذلك لكسدت تجارتهم التى هى موردهم الرئيسى.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن السمات التى تميز بها المجتمع الخزرى نجد بعض المصادر تذكر أنهم - أى الخزر - يقيمون إلى الشمال من المعمور إلى الأرض وأرضهم باردة رطبة، ومن ثم فإن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعرهم مسترسل يضرب إلى الحمرة فى الغالب، وأجسامهم كبيرة وطبائعهم باردة ومنظرهم عامة كالهمج. [٧٣] بينما تشير المصادر الإسلامية إلى أن الخزر "لا يشبهون الأتراك، وهم سمر يضربون بشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال".[٧٤] وفى حين أن كاتبا أرمينيا أشار إليهم قائلا : "إنهم حشود الخزر المخيفة بوجوههم الوقحة العريضة الجرداء وشعورهم المسترسلة كالنساء[٧٥]" والحقيقة أن هذه الاختلافات وعدم اتفاق المؤرخين على شكل ومظهر معين للخزر يؤكد أن المجتمع الخزرى كان مجتمعا عالميا عج بكثير من الجنسيات.

---

(73) Koestler : op. Cit., p. 19.

(٧٤) الأصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٣١.

ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٢٨٣.

: صورة الأرض، ص٣٩٤.

القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٤.

(75) Koestler : op. Cit., p. 20.

ويبدو أن هناك شعوبا تأثرت بالخزر. ومنهم على سبيل المثال الروس الذين كانوا يعيشون بين المجتمع الخزرى، فعلى الرغم من أساليبهم العنيفة، فإنهم أبدوا رغبة صادقة في التعلم من الشعوب التى قدر لهم أن يحتكوا بها. وشاهد على ذلك اتخاذهم لقب الخاقان من الخزر، وأيضا اتخاذهم شخصين يتوليان أمرهم وهو أمر كان غريبا على الشعب الجرمانى فى الشمال.(٧٦)

ولم تكن علاقة الخزر بالبيزنطيين والمسلمين وغيرهم معارك دموية متصلة، وإنما تخللتها علاقات ودية عديدة أعطت الفرصة للسلام والاختلاط الاجتماعى وكانت هناك مشاريع عديدة للزواج مثل زواج الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥، ٧٠٥-٧١١م) بثيودورا أخت خاقان الخزر التى سبق الإشارة إليها ومشروع زواج الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) الذى تزوج خزرية هى ابنة الخاقان وحملت العروس صداقا له هو رداء فاخر بلغ من إعجاب البلاط البيزنطى أن اتخذوه حلة يرتديها الرجال فى المحافل الرسمية، وكانوا يطلقون عليها تريتزاكيون Tzitzakion وهو الاسم الخزرى التركى المحبب للأميرة ابنة الخاقان والتى كان اسمها أيضا شيشاك أو الزهرة، ثم أطلق عليها إيرين بعد تعميدها(٧٧). ولقد علق المؤرخ البيزنطى قسطنطين بورفيروجينيتوس(٧٨). على هذا المصطلح بالقول "إن هذه الكلمة Tzitzakion كلمة خزرية الأصل وهى اسم حلة

---

(٧٦) من الشيء المؤسف أن نظام الحكم السوفيتى قد جاء بعد ألف عام من الوقائع التاريخية بين الخزر والروس، وسعى إلى طمس كثير من الحقائق التاريخية وإنكار أثر الخزر الثقافى فى الروس وما بلغوه فى هذا الميدان من شأن، والغريب أنهم حملوا الأستاذ أرتامونوف على تغيير رأيه فى وجود هذا الأثر حيث نقدته صحيفة "برافدا" فغير رأيه الذى أبداه فى كتابه الصادر سنة ١٩٣٧م وأنكره فى كتابه الصادر عن تاريخ الخزر سنة ١٩٦٢م وقال: "إن الروس لم يأخذوا شيئا عن الخزر". انظر: Koestler : op. Cit., p. 92-94.

(77) Koestler : op. Cit., p. 48.

(78) De Cerimoniis Aulae Byzantinae, Vol. I, p. 22.

يرتديها الرجال فى الدولة البيزنطية واشتقت من اسم الأميرة الخزرية التى قدمت هذا الرداء".

كما كانت هناك مشاريع زواج قامت بين الخزر والمسلمين مثل زواج الأميرة الخزرية ابنه خاقان الخزر بوالى أرمينية المسلم. وقد قدمت الأميرة الخزرية إلى بلاد الإسلام ومعها عشرة آلاف من أهل بيت من الخزر وأربعة آلاف رمكة[٧٩] بفحولها وألف بغل وبغلة وألف إنسان، وعشرة آلاف جمل خزرى من الجمال الصغار، وألف جمل تركى كل جمل تركى منها بسنامين وعشرون ألف شاه، وعشر عجلات على مثل القباب. لها أبواب مضروبة بصفائح الذهب والفضة ومفروشة بالسمور ومحللة بالديباج وعشرون عجلة فيها أمتعة وآنية من الذهب والفضة وغير ذلك[٨٠]. من كنوز صداقتها.

النشاط الاقتصادى:

تمتعت مملكة الخزر بفترة طويلة من الرخاء الاقتصادى وكانت مجالا واسعا التقى فيه الشرق بالغرب، حيث وجهت مملكة الخزر اهتمامها إلى التجارة باعتبارها أبرز مواردها الاقتصادية.

وقد اعتمد المصدر الرئيسى لدخل الخزر على التجارة. ذلك أنهم تحكموا فى الطرق التجارية التى تربط الشرق الأقصى بالإمبراطورية البيزنطية من جهة، والأقاليم الإسلامية بالأراضى السلافية من جهة أخرى وكانت تفرض رسوما على البضائع المارة بأراضيها[٨١]، مما جعلها تستفيد من الأرباح الناجمة عن تلك التجارة.

---

(٧٩) رمكه : الرمكة، الفرس (العرب) – الانثى من البراذين.

انظر ابن منظور : لسان العرب، حـ٣، ص١٧٣٣.

(٨٠) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ٨، ص٢٢٩-٢٣٠.

Dunlop: op. Cit. Pp. 179 - 108.

(81) Sinor : Art. Khazar in the New Ency. Britt., Vol p. 788.

ولقد اعتاد التجار المعروفين بالراهدانية على عبور إمبراطورية الخزر عند انتقالهم عن وإلى الصين والهند.[٨٢] والراهدانية تجار يهود يتكلمون بالفارسية والروسية والعربية والإفرنجية، ويسافرون من المشرق إلى المغرب والعودة مرة أخرى. ويمرون على أقاليم الخزر فيحصل منهم ملك الخزر الضرائب والمكوس.[٨٣] وكانوا يحملون معهم الخصيان الخدم والأولاد والحرير والفراء والسيوف والمسك وعود الند والكافور والقرفة ومحاصيل أخرى من أقصى الشرق[٨٤].

ولقد كان للخزر علاقات تجارية كبيرة مع بيزنطة ففي القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) روى بعض السفراء البيزنطيين فى بلاط الخليفة الأموى بقرطبة أن ثمة سفنا قادمة من بلاد الخزر إلى القسطنطينية تجلب إليها من وقت لآخر سمكا وجلودا وفراء وتشحن عند عودتها أقمشة من بيزنطة.[٨٥] والحقيقة أن تجار الخزر شاركوا تجار البلغار والترك فى جلب كميات ضخمة من المنتجات الطبيعية إلى البسفور والقسطنطينية ومن هذه المنتجات الذرة والملح والسمك والفراء والشمع والعسل وجلود الحيوانات والكهرمان والعبيد[٨٦]. ولقد ورد ذكر التجار الخزر مع العديد من تجار البلاد الأخرى التى تنتمى إلى جنسيات مختلفة فى وصف الرحالة بنيامين التطيلى[٨٧] لمدينة القسطنطينية حيث ذكر أن بالمدينة حركة دائبة من التجار القادمين من بابل وفارس وروسيا وأسبانيا وغيرها من البلاد.

---

(82) Bachrach: Art. Khazar, in Lexicon Unversal Ency., Vol. 12, p.66.

(٨٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٠-٢٧١.

(84) Rosenthal: Art. Khazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p.3.

(85) Heyd (W.): Histoire du Commerce du Levant au moyen age, (Leipzig, 1923), Vol. I, p. 47.
Rosenthal: Art. Khazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p.3.
Brehier (L.): Le Monde Byzantine La Civiliaztion Byzantine., (Paris, 1950), p. 202.

(86) Boissonade (P.): Life and work in Medieval Europe (London, 1937), p. 53.

(٨٧) بنيامين التطيلي: رحلته، ص ٧٨.
Weinryb : The Jews of poland., pp. 22-23.

كما كان الخزر وجيرانهم يجتلبون فراء السهوب ورقيقها وسمكها المجفف إلى خرسون ببلاد القرم أو تحملها السفن الروسية من الدنيبير إلى القسطنطينية[٨٨].

والشيىء الجديد بالملاحظة أن بيزنطة كانت تحتكر منتجات الحرير في أوربا وكان الخزر والمسلمون يتزاحمون على استيراد القماش الموشى (المطرز) من بيزنطة، كما كان يفعل الغرب[٨٩].

ولم تكن العلاقات التجارية بين الخرر وبيزنطة فحسب فقد كان للتجار الخزر نشاط بارز خارج مملكتهم في جهات أخرى من العالم في ذلك الوقت حيث وجدوا في بغداد التي كانت ملتقى لمعظم التجار على اختلاف جنسياتهم، من بابل وفارس والهند وغيرهم[٩٠]. كما أن التجار المسلمين جلبوا إلى أسواقهم في خزريا سلع فارس والصين وتبادلوا معهم الأطعمة والخيول ومنتجات الغابة والعسل والفراء والشمع وغيرها من هذه المنتجات[٩١]. وكان سيل من التجارة يتدفق في مجرى الفولجا وغيره من الأنهار، ويصل إلى وسط روسيا واسكنديناوه عن طريق مملكة الخزر. وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق[٩٢]. ولا شك أن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على اتساع وضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الآسيوية وشمال أوربا.

---

(88) Runciman: Byzantine Civilization, p. 167.

والترجمة العربية، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص١٩٩.

(89) Lindsay (J.): Byzantium into Europ, (London, 1952), p. 143.
Runciman: op. Cit., pp. 166-7.

والترجمة العربية، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص١٩٨.

(90) Lindsay (J.): op. Cit., p. 153.

(91) Wren: The Course of Russian History, p. 37.

(٩٢) موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٧٢.

ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة : السيد الباز العريني.

والحقيقة أن الشيء الملاحظ في منطقة القوقاز هو تلك الحضارة البدائية لأقوام هذه المناطق وتنقلاتهم المستمرة وسكانها ذوى السلالات واللغات المختلفة وكل ذلك كان عقبة في إقامة علاقات تجارية دائمة، غير أن ملوك الخزر سكان المناطق التي يخترقها مجرى نهر الفولجا السفلى نجحوا أخيرا في تهيئة وضع منتظم، وأذنوا لليهود والمسيحيين والمسلمين بالإقامة في بلادهم بكامل حريتهم ومن ذلك الحين استطاع التجار المسلمون أن يوثقوا علاقات منظمة في مناطق شمال بحر قزوين، وشهدت أتيل عاصمة الخزر الواقعة على مصب نهر الفولجا وصول سفنهم وقوافلهم ولم يقف العرب بالوصول إلى أتيل، بل استطاعوا أن يصعدوا نهر الفولجا حتى قلب روسيا طلبا للجلود والفراء(٩٣).

والحقيقة أن أتيل عاصمة الخزر كانت بحق على درجة كبيرة من التحضر، وكانت أعظم مركز تجارى في ذلك الوقت(٩٤). كما كان القرنين السابع والثامن الميلاديين يمثلان العصر الذهبى لمملكة الخزر في التجارة حيث بسطوا كل سيادتهم على كل السهوب الجنوبية وكانوا سادة معظم القبائل السلافية الجنوبية(٩٥)، حيث أجبروهم على دفع الجزية، وكانت تلك القبائل السلافية تشارك في التجارة(٩٦). كما أن الوثائق الأثرية تشير إلى أن علاقات تجارية قامت بين مملكة الخزر والسويد، ومن المحتمل أن تكون بدأت هذه العلاقات في نهاية القرن الثامن الميلادى(٩٧). وكانت مملكة الخزر تقوم بتحصيل العشر من قيمة الشحنات المارة بأتيل والتى تمر عبر أراضى الخزر عموما(٩٨).

---

(93) Heyd : op. Cit., Vol. I, p. 47.
(94) The Time Atlas of World History, p. 108.
(95) Sumner: Survey of Russian History, p. 35.
(96) Mackenzie & Curran: A History of Russian and the Soviet Union, pp. 15-16.
Walsh: Russia and the Soviet Union, p. 17.
(97) Florinsky: Russia, vol. I, p.172.
(98) Franzius: History of the Byzantine Empire,. 172.
Walsh : op. Cit., p. 18.

أما عن المصادر الإسلامية التى أوردت إشارات عابرة عن الحياة الاقتصادية بمملكة الخزر، فتذكر أن واردات الخزر وصادراتها كانت من السلع الأجنبية التى كانت أهم مصدر لدخل البلاد، أما بلاد الخزر نفسها فلم تكن تنتج شيئا خاصا بها إلا غراء السمك أما الزئبق والعسل والشمع والخزر والأوبار. فمجلوب إليها من نواحى جرجان وطبرستان وأرمينيا وأذربيجان، والتى كانت تقوم بدورها بتصديره[٩٩]. أى أن معظم نشاطهم التجارى كان يعتمد على إعادة تصدير المواد التى كانت ترد إليهم من الخارج.

وقد عملت مملكة الخزر على توفير الأمن والاستقرار للتجار الوافدين عليها من مختلف الجنسيات وشتى بقاع الأرض وقد سبق أن ذكرنا أن التجار الوافدين كانوا يتحدثون لغات أوطانهم، ولكننا لا نعلم إن كانت هناك لغة مشتركة متفق عليها بين التجار لتسهيل نشاطهم التجارى ومهما يكن من أمر فإنه إذا كان هناك لغة مشتركة فإنها من المؤكد سوف تكون لغة التجارة فقط.

وغير معروف أيضا كيف كانت تعقد معظم الصفقات التجارية، هل هى بالنقد أم المقايضة أم البيع المؤجل الدفع، وإن كانت إحداهما فما طريقة عقد الصفقات الغالية؟.

أما عن العملة الخزرية فلم تمدنا المصادر المتاحة لهذا البحث بما يفيد عن أبرز ما تميزت به مجموعة نقودهم سواء أكانت ذهبية أم فضية، وعلى أى نسق سكت، وهل تأثرت بدولة معينة من ناحية طرازها أو عناصرها أو صنعها.

وفى مجال الزراعة حرصت مملكة الخزر على تنمية مواردها الزراعية جنبا إلى جنب مع التجارة لإنعاش أحوالها الاقتصادية وإن لم يصل نصيبها من الاهتمام كالتجارة. وكانت مزارعهم منتشرة وشاسعة ومعظمها كان الأرز، كما كانت مدينتهم سمندر مليئة بالبساتين الكثيرة وتشتمل على أربعين ألف كرم، "وكان الخزر بعد أن

---

[٩٩] الأصطخرى : المسالك والممالك، ص١٣١.

ياقوت : معجم البلدان، حـ٣، ص٤٣٤.

يحصدوا زرعهم يضموه بالعجل إلى النهر وإلى مواضع تقرب منه وينقلون ما اجتمع إلى النهر فى السفن وما قرب من البلد نقل بالعجل إلى البلد"[١٠٠] والحقيقة أن سمندر تعتبر من أهم مدنهم حيث كانت تطل على ساحل البحر مما جعلها تعج بالتجارة والأسواق[١٠١].

ويفهم من رد الملك يوسف على خطاب حسداى السابق ذكره أن مملكة الخزر كانت واسعة الثروة، ليس من التجارة فحسب بل من ممارستها للنشاط الزراعى أيضا، وساعد على ذلك تمتع أرضها بالخصوبة ووفرة المياه المتمثلة فى الأنهار والترع والجداول، وقد أشار يوسف إلى وجود الحقول ومزارع الفواكه بكثرة فى أرض الخزر[١٠٢].

أما عن الصناعة فلا تفيدنا المصادر المتاحة بشىء فى هذا الصدد وإن كان ابن الوردى[١٠٣] يشير إلى أنه بأرض الخزر جبل يسمى باثره به معادن الفضة السهل المأخذ والرصاص أيضا، ويؤيد ذلك كتاب (دربند نامه) الذى يشير إلى وجود الذهب والفضة بكثرة فى بلاد الخزر[١٠٤]. وربما قامت بعض الصناعات على تلك المعادن، وإن كان من المؤكد أن دولة محاربة كمملكة الخزر لا يخلوا نشاطها الاقتصادى من صناعة بعض الأسلحة المعاصرة فى ذلك الوقت.

ومهما يكن من أمر فإن شهرة إشتغال الخزر بالتجارة غطى على باقى الأنشطة الاقتصادية. ولقد ظل التجار الطليان يشيرون إلى القرم باسم خازاريا حتى وقت متأخر من القرن الخامس عشر[١٠٥]. أى بعد سقوط مملكة الخزر، ولا شك أن هذا لم يكن إلا مجرد رمز جغرافى يعيد ذكرى دولة عفى عليها الزمن.

---

(١٠٠) ابن حوقل : المسالك والممالك، ص٢٨١.

: صورة الأرض، ص ٣٩٢.

(101) Hudud Al Alam., p. 162. C.F.

(102) The Answer of Joseph., CG Adler: Jewish Travllers., pp. 35-36.

(١٠٣) خريدة العجائب وفريده الغرائب، ص ٢٥٤.

(104) Koestler: op. Cit., p. 48.

(105) The Standard Jewish Ency., Art Khazar, p. 1125.

الديانـــــة:

عاشت مملكة الخزر قوية منتعشة فترة طويلة من الزمن، وكانت تضم خليطا يعود بأصوله إلى العديد من الشعوب خصوصًا وسط آسيا وشرقها. وكانت ديانة الخزر الأولى فيما قبل الديانة الشامانية(١٠٦) Shamanistic وهى الديانة الوثنية للقبائل التركية عموما كما كانت لهم تصورات وثنية وإلاههم الأكبر كان تنكرى خان(١٠٧). وكان أكبر حدث فى تاريخ مملكة الخزر، هو اعتناقهم لليهودية، حدث ذلك فى القرن الثامن الميلادى، حيث اعتنقها ملك الخزر والطبقة الحاكمة، وعدد كبير من شعبه، ويبدو أنهم كانوا قد وصلوا إلى درجة من الحضارة دفعتهم إلى التخلى عن عقيدتهم الوثنية، واتخاذ عقيدة جديدة، وهى اليهودية التى صارت الديانة الرسمية لدولة الخزر(١٠٨). والواقع أن اعتناق الخزر لليهودية، قد حير معاصرى الخزر، كما حير العلماء والدارسين المحدثين.

والحق أن تحول الخزر إلى اليهودية أمر يثير طائفة من التخمينات خصوصا وأن هذا الأمر صدر من شعب ليس من أرومة يهودية وجدير بالملاحظة أنهم اتخذوا من اليهودية ديانة رسمية لهم، متحدين ضغوط المسيحيين فى بيزنطة وضغوط المسلمين من الشرق، واتخذوا دينا لا سند له من أية سلطة سياسية بل إنه كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا وقد كان هذا التحول مثيرا لدهشة جميع المؤرخين المشتغلين بالخزر، ولا يمكن أن يعد هذا الأمر أمرا عارضا وإنما يجب أن نعده دليلا على سياسة انتهجتها مملكة الخزر(١٠٩).

Rosenthal: Art. Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p. 6.

(١٠٦) لمزيد من التفاصيل عن الشامانية، انظر، بارتولد: المرجع السابق ص١٤.

(107) Barthold & Golden: Art. Khazar, in the Ency. of Islam. Cambridge History of Iran, Vol. 3, p. 470.
Setton: A History of the Crusades, Vol. I, p. 136.

(108) Grayzel: A History of the Jews., p. 28.
Weinryb: The Jews of Poland., p. 21.
The Time Atlas of World History, p. 108.
Brehier: Le Monde Byzantine La Civilization Byzantine., p. 302.

(109) Koestler : op. Cit., p. 15.

إن اعتناق الخزر لدين يهوذا حدث فريد في التاريخ، والعوامل التي دفعتهم إلى ذلك تحتاج إلى الإمعان، لقد كان العالم في ذلك الوقت يستقطبه قوتين عظميين هما الإمبراطورية البيزنطية وتمثل المسيحية والخلافة الإسلامية وتمثل الإسلام. وكانت بين تلك القوتين مملكة الخزر التي أثبتت في كثير من الأحيان أنها ند لكل منهما.

ومن العوامل التي أسهمت في تهويد الخزر هو الحرص على الاستقلال إزاء القوتين العظميين، المتمثلتين في المسيحية والإسلام، لذا فقد اختارت العقيدة الثالثة (اليهودية) غير التابعة لهاتين القوتين، إذ أنها لو اختارت عقيدة الإسلام سوف تجعل منهم التابع الروحي للخليفة في بغداد، ولو اختارت عقيدة المسيحية سوف تخضعهم على الفور للإمبراطور الروماني[110] (البيزنطي) وربما تكون مملكة الخزر قد اعتنقت اليهودية، وفضلوا في أكبر الظن أن يغضبوا الخلافة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية بدرجة واحدة من أن يغضبوا واحدة منهما غضبا يعرضهم للخطر[111]. وبذلك يكون الخزر قد استقر بهم العزم على أن يكونوا غير تابعين لأي من القوتين العظميين، وعلى أن يحافظوا على موقعهم كقوة ثالثة تتزعم الأمم الوثنية المنتشرة بالفيافي.

على أنه من خلال صلات الخزر الوثيقة ببيزنطة والخلافة تعلموا أن عقيدتهم الشامانية عقيدة بدائية ومتخلفة عن مطالب عصرها، وقد عفى عليها الزمن إذا قورنت بالديانات السماوية، ثم هي عاجزة عن أضفاء الهيبة الروحية والشريعة على زعماء الخزر كما هو حال رجال الحكم المسلمين والمسيحيين، حيث ينعم بها

---

(110) Bury: A History of the Eastern Roman Empire, p. 406.
(111) Durant: The story of Civilization, the Age of Faith, vol. iv, pp. 446-7.
والترجمة العربية ديورانت: قصة الحضارة. عصر الإيمان مجلد ٣، جـ٣، ص ٢٠١، ترجمة محمد بدران

الخليفة والإمبراطور[112]. ولذلك فقد آثر الخزر اتخاذ ديانة غير النصرانية والإسلام واعتنقوا اليهودية.

ويرى البعض أن سبب اعتناق الخزر لليهودية هو حدوث انقلاب فى الحكم ضد الخاقان سليل الأسرة الوثنية التى لا يمكن الوثوق بولائه للشريعة الموسوية،إلا من حيث هو رمز فحسب، كان ذلك سببا فى اتخاذ الخزر العقيدة اليهودية كديانة رسمية للدولة[113]. والحقيقة أن هذا الرأى لم يدعم بأية أسانيد ولكن الشيء الواضح أن الخزر اتخذوا طريقا مخالفا لأهل الغرب الذين أرادوا أن يحملوهم على اعتناق النصرانية ومقاومة أهل الشرق الذين كانوا يريدونهم اعتناق الإسلام.

وحول موضوع اعتناق الخزر لليهودية نلاحظ أن المصادر العربية والعبرية قد اختلفت فى التفصيلات الخاصة بسبب اعتناقهم على الرغم من اتفاقها فى تعليله، فبالنسبة للمصادر الإسلامية فيقول المسعودى[114]، فى هذا الصدد: "وكان تهود ملك الخزر فى خلافه هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م/١٧٠-١٩٣هـ) وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم. وذلك أن ملك الروم فى وقتنا هذا (وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة) وهو أرمنوس (٩١٩-٩٤٤م) نقل من كان فى ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم ...... فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا". وختم المسعودى قوله بالإشارة إلى كتاب له آخر تضمن وصفا لهذه الظروف إلا أن هذا الكتاب فقد ولا نعرف عنه شيئا.

ويتضح من نص المسعودى أن اعتناق الخزر لليهودية، كان على عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى كان معاصرا للإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس المغتصب، والذى اشترك مع الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس (٩١٣-٩٥٩م)، والعبارتان الأخيرتان من نص المسعودى تشيران

---

(112) Koestler: op. Cit., p. 59.
(113) Ibid., p. 57.

(114) مروج الذهب ومعادن الجوهر، حـ١، ص١٣٥.

إلى حوادث حدثت بعد اعتناق الخزر اليهودية بمائتى عام - كما سيأتى - وتكشف لنا عن مبلغ الاضطهاد الذى عاناه اليهود.

ويشير الدمشقى[115] إلى "أن صاحب القسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان فى مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر، فوجدوا قوما عقلاء ساذجين فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم أصلح مما هم عليه فانقادوا إليه".

ويتضح مما سبق أن هؤلاء اليهود وجدوا فى بلاد الخزر أرضا خصبة لانتشار اليهودية ويلاحظ أن الفترة التى تولاها الخليفة العباسى هارون الرشيد كانت بين سنتى ٧٨٦م، ٨٠٩م، وفى تلك الفترة كان يشغل كرسى الإمبراطورية البيزنطية قسطنطين السادس(٧٨٠-٧٩٧م) والإمبراطورة ايرين (٧٩٠-٨٠٢م) والإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م).

ومما يجدر ذكره أن كثير من الأباطرة البيزنطيين قد اتخذوا ضد اليهود إجراءات صارمة، ولقى اليهود كثيرا من الاضطهاد الدينى فى عهود الأباطرة جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) وهرقل (٦١٠-٦٤١م) وليو الثالث (٧١٧-٧٤١م) ورومانوس ليكابينوس وغيرهم، فعلى عهد الإمبراطور هرقل مثلا نجده يصدر مرسوما يقضى بتعميد اليهود بعد أن علم بما ألحقه اليعود بالمسيحيين وبكنائسهم من أضرار، كما عمل على استئصال شأفتهم وإبادتهم من كل مكان حتى من خارج حدود الإمبراطورية حيث أقنع سيسبو Sisebut الحاكم القوطى بأسبانيا بطرد اليهود واقصائهم عن بلاده، وبالفعل قام سيسبو بطرد اليهود وإقصائهم عن بلاده، خاصة هؤلاء الذين لم يستطع إرغامهم على التعميد. كما نجح الإمبراطور هرقل فى إقناع ملك فرنسا بالانضمام لهذا المشروع[116]. ولما كانت بيزنطة أكبر قوة روحية مسيحية فى شرق أوربا وما ولاها، فقد كانت ترقب التغيرات الروحية فى دولة الخزر بعين

---

[115] نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٢٦٣.

[116] ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين ص٢٠٢-٢٠٣.

Finaly: History of Greece., Vol. I, p.326.

مفتوحة، فنجد الإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩٢م يعقد مجمع ترولان الدينى لمعالجة قضية اليهود، والذى تمخض عنه بيان يدعوا إلى استئصال شأفة. "الانحراف اليهودى"(١١٧). كما قام الإمبراطور ليو الايسورى بحملات اضطهاد واسعة جرى بمقتضاها إلزام اليهودى على التحول إلى المسيحية وأدى ذلك إلى هروب الكثير منهم إلى خارج بيزنطية(١١٨). وربما يكون هؤلاء اليهود هم الذين هودوا ملك الخزر وحاشيته، بالإضافة إلى الاعتقاد السائد بأن يهود القوقاز هم الذين دفعوا مملكة الخزر لاعتناق هذا الدين(١١٩).

كما أن الصلات بين دولة الخزر والإمبراطورية البيزنطية قد تأثرت باضطهاد اليهود فى عهد الإمبراطور رومانس ليكابينوس، وقد التجأ كثير من اليهود الذين أخرجوا من الإمبراطورية البيزنطية إلى بلاد الخزر فى ذلك العهد(١٢٠).

ومهما يكن من أمر، فلقد كانت بلاد الخزر الملجأ للخروج اليهودى تحت وطأة الحكم البيزنطى والاضطهاد الدينى فى عهود العديد من أباطرة بيزنطة، حيث كان اليهود يضمرون العداء للإمبراطورية البيزنطية وكانت تمتلئ قلوبهم بالحقد والكراهية لها، وكثيرا ما أظهروا العداء لها وفى كثير من الأوقات أمسى اليهود عنصرا قويا يهدد أمن وسلامة الإمبراطورية.وثمة مصدر إسلامى ثالث وهو "المسالك والممالك" للبكرى(١٢١)، الذى يشير إلى ظروف اعتناق الخزر لليهودية بشكل تفصيلى، ويبدو أن تلك الظروف قد استقاها من الكتاب الذى أشار إليه المسعودى وفقد، حيث يذكر قائلا: "وملكهم على دين اليهودية ومسكنه فى قصر على البعد من النهر وإنما كان سبب تهود ملك الخزر وكان مجوسيا أنه تنصر فرأى فساد ما هو عليه

---

(117) Dunlop: The History of the Jewish Khazars, p. 177.

(118) Rosenthel : Art. Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p. 3.
Art. Chazar, in Chambers's Encyclopeadia, (London and Edinburgh, 1923), Vol. 3.

(119) Rosenthal (H.): Art, Caucasus, in the Jewish Ency., Vol. 3. P. 28.

(120) Barthold & Golden: Art., Khazar, in the Ency. of Islam.

(١٢١) ص٤٤.

فأخذ فيما غمه من ذلك مع بعض مراذبته. فقال له ايها الملك إن أصحاب الكتب ثلاث طوائف فأرسل إليهم واستخبر أمرهم واتبع صاحب الحق منهم، فأرسل إلى النصارى فى أسقف وكان عنده رجل من اليهود ذو جدال فناظره قال له: "ما تقول فى موسى بن عمران والتوراة المنزلة عليه" قال له: "موسى نبى والتوراة حق" فقال اليهودى للملك: "قد أقر بحقيقة ما أنا عليه فسله عما يعتقد، فسأله الملك فقال له: "أقول أن المسيح عيسى بن مريم هو الكلمة وأنه المبين عن الله عز وجل بالسرائر، فقال اليهودى لملك الخزر أنه يدعى دعوى لا أعلمها وهو مقر بما عندى فلم يكن الأسقف كبير حجه، وأرسل إلى المسلمين فأرسلوا إليه رجلا عالما عاقلا عارفا بالجدل فدس اليهودى عليه من سمه فى طريقه فمات واستمال اليهودى الملك إلى ملته فتهود".

وعلى هذا الأساس اعتنق ملك الخزر اليهودية بفضل اجتهاد اليهودى الذى كان بارعا ومتمكنا فى الحجة والمناقشة، وبعيدا عما إذا كانت هذه القصة فى جانب الخطأ أو الصواب فإن المؤرخ المحدث بيورى[١٢٢] يعلق قائلا: "إن هناك حقيقة أساسية هى أن بلاط الخزر كان متأثرا تأثرا قويا باليهودية قبل أن يتهود رسميا، ذلك أن رجل الدين المسيحى والمسلم قد أرسل الملك فى طلبهما، أما اليهودى فكان بالفعل فى صحبته".

ولكن الشىء الملاحظ هنا تعقيبا على ما أورده البكرى أنه على عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث(٨٤٢-٨٦٧م) حوالى سنة ٨٦٠م، قد قدمت سفارة خزرية من قبل خاقان الخزر وطلبت من الإمبراطور البيزنطى أن يرسل لهم من يشرح العقائد المسيحية[١٢٣]. ومن المعروف أن الديانتين الإسلامية واليهودية كانتا معروفتين عند الخزر[١٢٤].

(122) A History of the Eastern Roman Empire, p. 407.
(123) Bury : op. Cit., p. 394.
(124) Ostrogorsky: History of the Byzantine state. P. 203.

ووقع الاختيار على قسطنطين وهو أحد تلاميذ البطريرك فوتيوس ليكون مبعوثا دينيا يشرح لخاقان الخزر مزايا المسيحية ليقدر مكانتها من الديانتين الأخريين (الإسلامية واليهودية) ووصل قسطنطين إلى خرسون ومكث بها عدة اشهر لدراسة اللغة الخزرية(١٢٥). ثم توجه إلى أتيل عبر طريق نهرى الدون والفولجا، وواصل رحلته إلى سمندر والتقى بخاقان الخزر، وعلى الرغم مما تركه قسطنطين من اثر طيب فى نفس ملك الخزر فإن سفارته لم تكن ناجحة تماما، فلم يجر تعميد سوى مائتين من الأشخاص فقط وعاد إلى القسطنطينية بعد ذلك بوقت دون تحقيق النجاح المرجو(١٢٦) مما يدل على أن الديانة اليهودية كان لها شأن كبير فى بلاد الخزر آنذاك، وكان لأتباعها دور خطير ومؤثر فى بلاط خاقان الخزر.

أما المصادر العبرية التى تحدثت عن اعتناق الخزر لليهودية منها الكتاب الذى وضعه يهوذا هاليفى (يهوذا اللاوى) (١٠٧٥-١١٤١م) أعظم وأشهر شاعر يهودى فى أسبانيا، ويعتبر هاليفى أول مفكر لليهود فى العصور الوسطى، ووضع كتابه عن الخزر وأسماه كوزارى Kuzari أى الخزر بالعبرية هخوزى (Hebrew safer- Hakuzari).(١٢٧)

كتب هاليفى كتابه قبل أن يموت بسنة واحدة حيث إنه كان صهيونيا لقى ربه فى حجه لبيت المقدس، وهذا الكتاب فى الحقيقة هو عبارة عن رسالة فلسفية تعرض الرأى الذى يقول بأن الأمة اليهودية هى الوسيط الوحيد بين الله وسائر البشر، وسوف تعتنق الأمم جميعا الدين اليهودى فى آخر الزمان، ويبدو أن اعتناق الخزر لليهودية إشارة على هذا الحدث الذى ليس بعده حادث(١٢٨). وهذا الكتاب عبارة عن حوار فى شكل مجادلات ومناقشات دارت بين الملك والملك والحبر

---

(125) Bury : op. Cit., p. 394.

(126) Dunlop: The History of the Jewish Khazars, p. 195.

(127) Art., Jewish Philosophy, in the New Ency. Britt., Vol. 10, p.210.
Grayzel: A History of the Jews, p. 333.

(128) Koestler: The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage, p.78.

اليهودى. وتحدث عن المحاولات الفلسفية التى دارت بين ممثلى الديانات الثلاث السماوية. ويجدر بنا هنا أن نعرض بعض ما جاء فيه.

يذكر هاليفى أن ملك الخزر رأى رؤية فى منامة حيث جاء إليه ملك وقال له: "نيتك حسنة ولكن عملك ليس كذلك"، وبناء على ذلك قرر ملك الخزر استدعاء ممثلى الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام لمناقشتهم وبيان أفضل هذه الأديان[١٢٩].

ثم يستعرض فى كتابه كيف حاول الفيلسوف اليهودى اقناع ملك الخزر بدينه بانتهاج طريقه الفلسفة اليونانية العتيقة، فعمل على اقناعه بروح تلك الفلسفة حيث ذكر "أن الرب أعلى الأعالى، وسبب أسباب كل تطور فى الخلق كما أن كل مخلوق أصل من مخلوق سابق له والعالم لم يخلق إلا وهو قديم، وحاول أن يقنعه بمبدأ السببية من أن كل إنسان ولد من إنسان سابق له، وأن العالم مر بتطور تدريجى، وأن كل حلقة فى السلسلة مربوطة بالحلقة التى قبلها والتى بعدها مربوطة بكلتيهما. وهكذا فإن الأسباب والنتائج مرتبطة وملتصقة بالأخرى، وما هية كل واحدة نتيجة سابقة ومسببة لتلك التى بعدها ......"أى أن الفيلسوف حاول أن يقنع الخزر بفكرة الديانة اليهودية على أنها القاعدة والأساس للأديان الأخرى دون الاهتمام بالمشاكل الدينية والخلافات المختلفة بين تلك الديانات، ومن ثم فهو يستطيع أن يعرض دينه على أسرته ومواطنى دولته[١٣٠].

بعد ذلك قرر الملك الخزرى أن يدعو ممثلين عن المسيحية والإسلام، لكى يقدموا أفكارا عن ديانتهما تحدد أى الديانتين أصلح وقد ألقى ممثل المسيحية محاضرة أمام ملك الخزر عن أسس ديانته. ومن هذه الأسس ذكر "أن المسيحيين يعتقدون أن إلههم قبل الأول وأن العالم خلق وقد استمر خلقه ستة أيام، وقد ولد

---

[١٢٩] شه لاڤان. يوسف: يهوذا هاليفى، هخوزرى.

هوتسأت أو رعيم، هعروت فهنحيوت للمود فلقرياه (١٩٧٨)، ص١٠

[١٣٠] شه لاڤان. يوسف: المصدر السابق، ص١٠-١٢.

البشر من آدم ومن أبناء نوح بعد الطوفان وكان الخالق مهتما بخلقه وظاهرا لهم، واختار من أجناس البشر شعب اليهود، ووضع بينهم روحه القدس، ويؤكد المسيحيون أنهم مؤمنون بوجه عام بكل شيء مدون بتوراة موسى، وكتب أنبياء إسرائيل (العهد القديم) وكل ما أتى عنهم حقيقة، والاختلاف في نظرة المسيحيين في العلاقة مع اليهود تبدأ مع يسوع المسيح، وكان تجسيد الرب قبل معرفتهم ليسوع، وقد ولد يسوع لإحدى عذارى اليهود ففي الظاهر اتخذ صورة بشرية. ولكن أصبح برغبته هو الرب، ففي الظاهر ظهر كنبي، وفي الخفاء كان هو المسيح الذي تطلع إليه اليهود وابن الله وأصبح هو شيء واحد الأب والابن والروح القدس، وبلغه واضحة فإن هذا التعريف يعد ثالوثا ولكن في ماهيته "توحيد إلهي" وقد سكن مع شعب إسرائيل حتى صانوه ثم شنقوه، وقد أسقط شنقه غضبا إلهيا أبديا على شعب إسرائيل، والمسيحيون يسيرون في الطريق الصحيح لأنهم يتطلعون إلى يسوع المسيح، وقد عرف بطرس قوانين المسيحية ووصاياها، وقد جاء للتمسك بشرائع موسى وليس لإخفائها" على أن الملك الخزري أجاب الراهب بعد الانتهاء من محاضرته بأن الخزري لا يستطيع أن يتقبل العقيدة المسيحية، لأنها تعتمد على أقوال غير منطقية مثل إنجاب الله ابن من عذراء لحما ودما، ومع أنه ابن الله فهو أيضا الأب وأيضًا الروح القدس في الوقت الذي هم فيه ثالوثا هم شيئا واحدا، وبذلك لا يمكن للخزري أن يتقبل تلك الديانة كإيمان[١٣١].

بعد ذلك ألقى العالم المسلم محاضرته عن أسس دينه أمام ملك الخزر، وأنكر هو أيضا مثل الخزر إمكانية تجسيد الله في يسوع وأوضح أن المسلمين يعتقدون أن الله كتب قرآنهم، وأن القرآن يشهد على حقيقته، فلا يستطيع بني البشر أن يأتوا بمثله، بل ولا بآية من آياته ونبيهم محمد (ﷺ) هو آخر الأنبياء قد جاء بأمر إلهي لكي يلغي كل الشرائع التي سبقته، ويدعو الإسلام كل الشعوب لكي يسلموا، ويتلقى المؤمن بعد موته ثواب، ويتحد جسده مع نفسه في جنه عدن، ويتمتع هناك

---

[١٣١] ش. لافان. يوسف: المصدر السابق، ص١٣-١٤.

بكل الملذات الممكنة، والممتنع عن الإسلام يموت فى نار جهنم وجلدته لا يتركوه إلى الأبد.........الخ[١٣٢]

على أن ملك الخزر رفض أيضا هذه العقيدة لأن - بزعمه - إعجاز القرآن فى لغته والإنسان الذى لا يعرف اللغة العربية لا يستطيع أن يتبين بماذا يفضل القرآن عن الكتب العربية الأخرى، كما أن ملك الخزر لم يصدق أن الخالق تجلى لمحمد[١٣٣] (ﷺ).

ثم جاء ممثل الدين اليهودى أمام ملك الخزر، ولم يفتتح محاضرته عن الدين اليهودى كما فعل المسيحى والمسلم ولكنه بدأ المحاضرة بقوله: "نحن نؤمن بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذى أخرج أبناء إسرائيل". وقد ذكر ممثل الدين اليهودى أن مسئولى المسيحية والإسلام افتتحوا أقوالهم فى المحاضرة على أسس الديانات التوحيدية، وليس فى هذه القضية فرق جوهرى بين دين ودين آخر، ولذلك فلم يعد هو إلى تلك الأقوال وأدعى أن ما أورده ممثلى المسيحية والإسلام جاءت لكى تثبت حقيقة دين إسرائيل، ومن ثم دعى ملك الخزر إلى الإيمان بدين إسرائيل الذى يتأسس على وقائع تاريخية صادقة معروفة فى العالم منذ أن حدثت حتى اليوم، فلا يوجد فرد حاول أن ينكرها[١٣٤].

ويهمنا هنا أن يهوذا هاليفى يذكر فى موضعين مختلفين من كتابه أن تاريخ اعتناق الخزر اليهودية وقع منذ أربعمائة عام فى عام ٤٥٠٠ (طبقا للتقويم اليهودى) أى سنة ٧٤٠م[١٣٥]، وهو أكثر التواريخ احتمالا.

ولا شك أن هاليفى اتخذ من اعتناق ملك الخزر لليهودية سبيلا لنصره دينه فغلف كتابه بهذه القصة التاريخية الواقعية، حتى يكون تأثير كتابه بعيدا وزعم أن

---

(١٣٢) شه لاقن. يوسف: المصدر السابق، ص١٤-١٥.

(١٣٣) شه لاقن. يوسف: المصدر السابق، ص١٥-١٦.

(١٣٤) شه لاقن. يوسف: المصدر السابق، ص١٦-١٧.

(135) Koestler: op. Cit., 79.
Gregocre: Le Glozel Khazare, in Byzantion, (1937),p. 249.

اليهودية خير أديان الأرض وأن ملك الخزر تهود عن قناعة تامة بالديانة اليهودية التى هى الوحيدة الوسيط بين الله وسائر البشر، ولقد نجح حيث ركز على أن المسيحية وتعاليمها تعتمد وترتكز فى كثير منها على اليهودية ولا تعارضها إلا فى فكرة الإله، كما ركز أيضا على فكرة التثليث التى تلاقى خلافا كبيرا لكنه على الرغم من أن المؤلف كان متمكنا ملما بالعقيدة المسيحية والفلسفة الإغريقية، وعلى معرفة بالإسلام - كما وضح - إلا أنه فى الحديث الخاص بالإسلام الذى دار بين ملك الخزر والفقيه المسلم يبدو ضعيفا، وذلك أنه أظهر الإسلام خاليا من المعجزات اللهم إلا القرآن الكريم المدون باللغة العربية، وبعد أن فكر الملك مليا وجد أن القرآن بالعربية ولا يستطيع أحد غير عربى أن يدرك معجزته.

وصفوة القول أن كتاب يهوذا هاليفى عبارة عن نقد موجه إلى الديانتين الإسلامية والمسيحية، وهو شبيه إلى حد كبير بالقصة التى أوردها البكرى حيث نجح الحاخام اليهودى فى إقناع ملك الخزر باعتناق اليهودية، فى حين فشل القس المسيحى والفقيه المسلم، والاختلاف بين الروايتين يتضح فى أن الفقيه المسلم لم يدس أحد له السم.

وتعتبر "الرسالة الخزرية The Khazar Carrespondence"، التى تبودلت باللغة العبرية بين حسداى بن شفروط وملك الخزر يوسف من أهم المصادر التى تتحدث عن اعتناق الخزر لليهودية، وقد جرى تبادل هذه الرسالة فى عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر[١٣٦](٩١١-٩٦١م/ ٣٠٠-٣٥٠هـ) الذى استطاع أن يقضى على الحركات الانفصالية فى دولته ويوحد البلاد تحت سيطرته ويجعل من عاصمة ملكه قرطبة مفخرة للأندلس العربية وأحد المعابر الرئيسية لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

وقد ولد حسداى فى قرطبة سنة ٩١٠م لأسرة يهودية بارزه، واستطاع أن يجذب انتباه الخليفة عبد الرحمن الناصر بمهارته وممارسته للطب، فاتخذه الخليفة

---

(136) Gregoire: op. Cit., p. 226.
Brehier: Le Mond Byzantine, p. 30.

طبيبا. ثم وزيرا لخارجيته ليدلى بدلوه فى مسارب المعاملات الدبلوماسية المعقدة للخلافة مع بيزنطة، حيث كان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٩١٩-٩٤٤م) مهتما بضمان حياد قرطبة فى أثناء الحملات البيزنطية على الخلافة العباسية فى الشرق، لذا عزز من أواصر الصداقة بينه وبين قرطبة، وأرسل مخطوطة طبية وهى مخطوطة ديوسقوريدس Dioscorides مع الراهب نيقولاس Nicolaus الذى ترجمها من اليونانية إلى اللاتينية، وقام حسداى بترجمتها إلى اللغة العربية. وكان حسداى ينتهز كل فرصة للتدخل لتحسين وضع اليهود فى بيزنطة وأسبانيا وفى كل مكان فى أنحاء العالم، كما أشترك حسداى فى كثير من النواحى السياسية الخارجية مع الإمبراطور الألمانى أتو الأول (٩٣٦-٩٧٣م) وقشتاله وأرغون، وغير ذلك من الممالك النصرانية[١٣٧]. وقد سمع حسداى أول ما سمع من بعض تجار من خراسان ببلاد فارس، بوجود مملكة يهودية مستقلة على رأسها ملك يهودى، وأن هذه المملكة موجودة بالفعل وأسمها خوزار Khozar (مملكة الخزر). وقد أكد له رواية التجار سفراء بعثة دبلوماسية بيزنطية أرسلت إلى الخليفة عبد الرحمن، ولذلك عزم حسداى على إرسال مبعوثين من رجال البلاد إلى الخزر يحملون رسالة إلى الملك يوسف ملك الخزر فى ذلك الوقت[١٣٨].

وقد استهل حسداى خطابه بتحيات رنانة لملك الخزر، ثم تحدث عن اليهود، وما عانوه من المصائب والنكبات التى نزلت بهم، وكيف فرح حينما علم بوجود تلك المملكة اليهودية، ثم تحدث حسداى بإفاضة عن الأندلس واسمها وموقعها والتجارة وكل شاردة وواردة عن الأندلس والمسافة بينها وبين القسطنطينية وكيف ازدهرت أسبانيا فى عهد العرب، كما تحدث عن جغرافيتها، كما وضح كيف يعيش اليهود فى كنفها عيشة رغده، ثم انتقل حسداى بعد ذلك للحديث عن الكيفية التى عرف بها المملكة اليهودية من التجار الخرسانيين وكيف شك فى صدق

---

(137) Koestler : op. Cit., pp. 65-66.

(138) The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., p. 22.
Rosenthal: Art., Chazar, in the Jewish Ency., Vol, iv, p. 3.

روايتهم واعتقد أنهم يسعون إلى كسب عطفه ووده، ولكن البعثة الدبلوماسية البيزنطية أكدت له روايتهم، وذكرت أن تلك المملكة تبعد عن القسطنطينية في رحلة تستغرق خمسة عشر يوما، وأن لبيزنطة علاقات تجارية طيبة معهم وعلى رأسها الآن ملك خزرى اسمه يوسف(١٣٩).

وذكر حسداى كيف عزم على الاستفادة من خدمات السفارة البيزنطية لنقل رسالته إلى ملك الخزر، وكيف أوفد رسولا أسمه إسحاق بن ناسان Isaac Ibn Nathan بتعليمات تقتضيه أن يمضى فى رحلته حتى يبلغ بلاط الخزر، وحمله بهدايا قيمة للإمبراطور البيزنطي لكى ييسر له رحلته، وعندما وصل الرسول إلى القسطنطينية عومل معاملة طيبة، ولكن البيزنطيين أخروه ومنعوه من المضى فى رحلته بحجة أن الطريق مملوء بالأخطار، ومن ثم عاد إسحاق رسول حسداى إلى قرطبة دون إنجاز المهمة(١٤٠). وربما يرجع سبب عودته إلى أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن راغبة فى قيام تحالف بين بلاد الخزر اليهودية وخلافة قرطبة التى كان كبير وزرائها يهوديا.

ويمضى حسداى ذاكرا كيف أصيب بالإحباط حينما علم بذلك الأمر، وقرر إرسال خطابه عن طريق بيت المقدس لأن هناك أشخاصا وعدوا بتوصيله، إلا أن رسلا من قبل ملك Gebalim (بوليسلاف الأول Boleslav I of Bohemia) وصلوا إلى قرطبة فى زيارة سياسية، وكان من بين أفراد البعثة يهوديان اسمهما سو ل Soul ويوسف Hoseph اللذان عرضا عليه توصيل الخطاب، وذلك بإرساله إلى اليهود القاطنين فى هنغاريا (المجر) اللذين يقومون بدورهم بتوصيله إلى روسيا ومن هناك

---

(139) The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., pp. 27-8.
Rosenthal: op. Cit., Vol, iv, p. 3.

(140) Rosenthal: op. Cit., Vol, iv, p. 3.
The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., p. 28.
Koestler : op. Cit., pp. 70.

إلى البلغار، حتى آخر المطاف في أتيل عاصمة الخزر، ولقى هذا الاقتراح الاستحسان والقبول لدى حسداى الذى عبر عن شكره العظيم لهم(١٤١).

ومضى حسداى فى رسالته قائلا: "إنى لأشعر بحافز يدفعنى إلى معرفة الحقيقة: هل حقا يوجد مكان على ظهر هذه الأرض، يستطيع فيه اليهود المنهكون أن يحكموا أنفسهم دون أن يخضعوا لأحد"(١٤٢)، لو قيض لى أن أعلم بوجود هذا المكان حقا، لما أصابنى التردد فى التضحية بكل ما أملك من ألقاب الشرف التى أحملها والاستقالة من منصبى الجليل تاركا مكانتى العالية وأهلى وماضيا فى رحلتى

---

(141) Rosenthal: op. Cit., Vol, iv, p. 3.
The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., p. 28-9.
Art., Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 950.

(١٤٢) ورد فى العهد القديم أن إقامة اليهود فى فلسطين استمرت ستة قرون من سنة ١٢٠٠ق.م إلى سنة ٥٨٦ق.م وكان لليهود مملكة فى فلسطين فى عهد داود كانت عاصمتها أورشليم. وما لبثت تلك المملكة أن انشطرت إلى قسمين بعد وفاة سليمان خليفة داود، وهما مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (نابلس) شمالا، ومملكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها أورشليم (القدس)، وظلت المملكتان تتقاتلان، كل دولة تعمل على فناء الأخرى، وانتهت الحرب بينهم بالقضاء على الشمالية، وانضواء تابعيها تحت لواء مملكة يهوذا.

انظر العهد القديم سفر الملوك الأول، اصحاح١٤.

بعد ذلك تعرضت مملكة يهوذا لطرقات مصر مرتين على يد شيشنق والثانية على يد نخاو إلى أن جاء دور المملكة الشمالية حيث فتحها سرجون الأشورى فى عام ٧٢١ق.م وقضى عليها تماما ثم أغار نبوخذ نصر ملك بابل فى عام ٥٨٦ق.م وقضى على مملكة يهوذا نهائيا واستولى على أورشاليم وأحرقها وهدم هيكل سليمان وساق من تبقى من اليهود إلى بابل أسرى كما تروى التوراة.

انظر: - العهد القديم، سفر الملوك الثانى، اصحاح ٢٤.

وبذلك زالت إلى الأبد دولة اليهود فى فلسطين وأصبح ليس لهم أى أهمية فى فلسطين. وقد بدأ اليهود فى الاضمحلال وأوشكوا على الفناء الكلى كما ورد فى أخبار الأيام الثانى "فأفنيت أمى بأمة ومدينة بمدينة لأن الله أزعجهم بكل ضيق".

انظر: العهد القديم، اصحاح ١٥، آية ٦.

أعبر الجبال وأقطع السهول، ضاربا فى اليابسة، خائضا الماء حتى ابلغ البلاد التى يحكمها مولاى الملك (اليهودى)(١٤٣).

وبعد ذلك يسأل حسداى طائفة من الأسئلة المباشرة عن دولته وطبيعة أرضه والقبائل التى تقطن حول دولته، وعن الملوك الذين اعتلوا المملكة وعن جغرافية أرض الخزر وشعائرها ونظامها القضائى، والأمم التى تدفع الجزية واللغة الدارجة فى أرض الخزر وموقفها من يوم السبت، وعن جيوشه، وعن أصله ومن أى نسل انحدروا، كما سأل حسداى "هل لدى الملك يوسف علم بالتاريخ المحتمل للهجرة الأخيرة (أى ظهور المسيح عليه السلام) التى ننتظرها ونحن نجوب الأرض من بلد إلى بلد، ويحق علينا فى ذلتنا وخضوعنا اللذين نعانى منهما فى تشردنا أن نصغى فى صمت إلى أولئك الذين يقولون: "لكل أمة أرضها وأنتم دون سواكم لا تملكون حتى الشبح من أرض على وجه هذه البسيطة"، وأنهى حسداى خطابه برجاء أن يرد عليه الملك يوسف(١٤٤). ويلاحظ من خطاب حسداى أنه كان طويلا ذكر فيه معلومات غزيرة وتفصيلات طويلة عن الأندلس بهدف إغراء الملك يوسف بالإضافة فى ذكر أحوال مملكته فى رده عليه.

أما عن رد ملك الخزر يوسف على رسالة حسداى، فنجده يبدأ مستهلا بتحيات دافئة، ثم تحدث الملك مرددا مطالب حسداى الرئيسية التى جاءت فى رسالته، منوها فى فخر واعتزاز بأن مملكة الخزر تكذب الذين يقولون "أن صولجان يهوذا قد سقط من أيدى اليهود إلى الأبد" والذين يقولون أيضا "أنه لا مكان على وجه الأرض للملكة خاصة باليهود"(١٤٥). ثم ردد الملك الخزرى مطالب أخرى لحسداى تضمنت إجابة عن سؤال حسداى الخاص بشعبه واصله، ومن أى قبيلة من

---

(143) Koestler : op. Cit., pp. 71.
(144) The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., pp. 30-32.
Art., Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 950.
(145) Koestler : op. Cit., pp. 72.

القبائل الأثنى عشر اليهودية[١٤٦] ينتسب الملك وشعبه، وأجاب يوسف بأنه وشعبه يرجع أصولهم إلى يافث الابن الثالث لنوح ولا يرجعه إلى سام[١٤٧].

وبذلك نستطيع القول أن الملك الخزرى يوسف بالرغم من إيمانه الشديد باليهودية واعتزازه بقيامه على "صولجان يهوذا" فإنه لم يستطع أن يزعم أنه من أصل سامي وبذلك يكون الخزر لا علاقة لهم بالجنس السامى، كما أن حسداى فى رسالته سأل عن أى قبيلة من القبائل الأثنى عشر ينتسب (الملك) ظنا منه أن يهود الخزر خرجوا من فلسطين شأنهم فى ذلك شأن يهود الأندلس.

بعد ذلك يتحدث يوسف فى رده عن اعتناق الخزر لليهودية بشكل أسطورى، والذى حدث قبل ذلك بقرنين من الزمان، وبدأ بمدح الملك بولان ووصفه بالعدل والحكمة، وأنه من أعظم الغزاة حيث طرد السحرة والمشركين، "وقد تراءى له فى أحلامه ملك نصحه وحضه على أن يعبد الإله الواحد الحق الذى سوف يجزيه بالإكثار من ذريته ومباركتهم وتخليص مملكته من أعدائها وجعلها تدوم حتى نهاية العالم[١٤٨]. ويعقب كويستلر[١٤٩] قائلا: "أن هذا بالطبع من وحى القصة

---

(١٤٦) ارتبط اليهود فى التاريخ بإبراهيم الخليل – أبى الأنبياء – الذى نشأ عليه السلام كلداتيا فى القسم الجنوبى من العراق وإبراهيم من سلالة سام بن نوح عليه السلام، ولقد هاجر من مدينة أور فى أرض الكلدانيين حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م. هو وزوجته سارة، ولوط ابن أخيه إلى فلسطين أرض الكنعانيين، ولما أشتد القحط بفلسطين أخذ إبراهيم أسرته ومن معه إلى مصر فدخلها أيام الهكسوس، ثم عاد مرة أخرى إلى كنعان، وهناك سيولد له إسماعيل من جاريته هاجر والأخر إسحاق من زوجته سارة، وسيولد لإسحاق هذا ولدان هما عيسو ويعقوب وقد أقام يعقوب أو إسرائيل فى أرض كنعان وأنجب أثنى عشر ولدا ولقد سموا أسباط إسرائيل، وهم الأساس الذى خرج منه بنوا إسرائيل جميعا وعرفوا بقبائل إسرائيل الأثنى عشر اليهودية.

– انظر التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٤٩.

(147) The Answer of Hoseph., CF., Alder: op. Cit., p. 34.

(148) Koestler : op. Cit., pp. 66-67.

(١٤٩) Ibid, p. 67.

التي وردت في سفر التكوين وشمل أن الخزر زعموا أنهم "شعب مختار". أيضا قد عاهدوا الرب على الرغم من أنهم لم يكونوا من نسل إبراهيم.

والحقيقة أن هذا يدل على أن الملك يوسف ملك الخزر قد تأثر بالوعود الربانية المزعومة التي حفلت بها التوراة[١٥٠].

على أن الملك يوسف بعد أن تحدث عن تحول الخزر إلى اليهودية يقف عند هذا الحد، ويسلك اتجاه آخر غير متوقع، إذ ذكر أن الملك بولان كانت نيته قد صحت على أن يطيع الله، غير أنه يضع مشكلة في هذا السبيل ويقول: "وأنت يا رب تعلم ما يكنه قلبي من أسرار، وقد تغلغلت فيما تنطوي عليه جوانحي، فعلمت أنني عليك توكلت، غير أن قومي اللذين أحكمهم لهم عقول مشركة، وليست أدري أيؤمنون بي أم لا يؤمنون، وإني إذ أجد في عيونك المطلقة الرضا والرحمة، وإني أسألك أن تتجلى أيضا للأمير الأكبر، لتجعله يمدني بعونه وتأييده". واستجاب المولى لطلب الملك بولان فتجلى للأمير الأكبر في الحلم، وحينما استيقظ في الصباح من نومه حتى شخص إلى الملك بولان وأخبره بكل ما رأى في منامه[١٥١].

على أن الشيء الملاحظ أنه لم يرد في أخبار المؤرخين المسلمين فيما يختص باعتناق الخزر لليهودية عن وجود أمير أكبر يجب الحصول على رضاه، لكن

---

(١٥٠) منها ما جاء في سفر التكوين "ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملا فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا، فسقط إبرام على وجهه، وتكلم الله معه قائلا: "أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور الأمم، فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم أني أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما. وملوك منك يخرجون وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا. لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وإعط لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلهم".
– انظر، إصحاح ١٧، آية ١ – ٨.

(151) **Koestler : op. Cit., p. 67.**

ربما يكون ذلك صدى لما ذكرته المصادر الإسلامية من أنه كان للخزر - كما ذكرنا من قبل - شخصان (عاهلان) يقومان بأعباء الحكم فى المملكة.

ويستمر يوسف فى حديثه ويروى كيف ظهر الملك مرة أخرى فى منام بولان وكيف أمره بإقامة مكان للعبادة يحل فيه الرب وذلك " أن السماء والسماوات التى فوقها لا تتسع لى" على أن بولان رد عليه فى خجل وحياء بأنه لا يمتلك الذهب ولا الفضة التى تعيناه على القيام بهذا العمل وإن كان الواجب والرغبة يوجبان القيام بذلك، وهنا أكد له الملك بأن كل ما يجب عليه عمله هو أن يقود جيوشه إلى داريل وأردبيل فى أرمينيا، وفعل ذلك بولان ما أشار عليه الملك. وعاد منتصرا ومحملا بالغنائم وأقام هيكلا مقدسا ومجهزا بصندوق مبارك (تابوت العهد) وشمعدان ومذبح وأدوات مقدسة حفظت إلى اليوم ولا تزال بعد فى حوزتى (أى فى حوزة الملك يوسف)(١٥٢).

والحقيقة أن هذه الحملة التى تحدث عنها الملك يوسف تنطبق على الحملة التى قام بها الخزر على أردبيل والتى قتل فيها الجراح الحكمى وسبقت دخول الخزر اليهودية وكانت سنة ٧٣١م (١١٣هـ) تقريبا، وكما سبق فإن بعض المصادر الإسلامية قد أشارت بأنه كان للخزر مناجم ذهب فى القوقاز، ومجمل القصة التى رواها يوسف أنها تجمع بين الحقيقة والخيال.

وبعد أن ينتهى الملك يوسف من رده على حسداى، يتحدث عن الملك عبديه Abadiah، وهو أحد حفدة بولان الذى أصبح ملكا على مملكة الخزر، ووصفه يوسف بالشجاعة حيث أصلح وجدد فى مملكة الخزر، وقوى من شأن اليهودية فى المملكة، ودعى بعض المدارس اليهودية إلى المملكة، وجمع جمعا من حكماء إسرائيل وجعلهم يفسرون الكتب المقدسة والمشنا والتلمود، وأقام عبديه المدارس والمجامع اليهودية واستخدم الخزر فى مكاتباتهم الرسائل العبرية(١٥٣).

---

(152) Ibid, pp. 67-68.

(153) Rosenthal: Art., Chazar, in the Jewish Ency. Vol. iv, p.2.
Art., Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 951.

وعلى ما يبدو أنه بعد بولان بعدة أجيال حدثت نهضة دينية أو إصلاح وربما يكون هذا التغيير قد واكبه انقلاب فى المملكة أدى إلى ذلك، وأن اعتناق الخزر لليهودية تم على عدة مراحل كما وضح فإن بولان طرد السحرة والمشركين، قبل أن يتجلى له الملك فى منامه وأقام العهد مع الإله الحق قبل أن يقرر، أإله اليهود هو أم النصارى أم المسلمين، وأغلب الظن أن اعتناق الملك بولان واتباعه لليهودية كان مرحلة وسط أو أنهم اعتنقوا صورة بدائية من اليهودية تعتمد على التوراة دون سواها، مع استبعاد باقى كتب اليهود الربانية والشعائر المشتقة منها، وهم فى ذلك يشبهون "القرائين" وهم فرقة كبيرة يعود أصلها إلى القرن الثامن الميلادى فى بلاد فارس وكانت تتمسك بالتوراة (العهد القديم) فقط دون غيرها من الكتب اليهودية كالتلمود.

ثم أجاب يوسف على بعض الأسئلة الخاصة بمملكة الخزر من حجمها وجغرافيتها والأمم التى تدفع الجزية، إلا أنه يجنح فى خطابه بعيدا عن الكياسة والفطنة حيث يظهر بمظهر المدافع عن الخلافة الإسلامية فى بغداد حين ذكر أنه يمنع الروس ويقاتلهم ليمنعهم من نهب الأقاليم الإسلامية التابعة للخلافة[١٥٤] ومن المعروف أن الخلافة الأموية فى قرطبة التى كان حسداى فى خدمتها كان بينها وبين الخلافة العباسية فى بغداد عداوة مستحكمة أفاضت فى ذكرها المصادر المعاصرة.

على أن الملك يوسف خص تاريخ ظهور المسيح عليه السلام بالقول: "إن عيوننا على حكماء أورشاليم وبابل وعلى الرغم من أننا نعيش بعيدا عن صهيون، فإننا قد سمعنا مع ذلك بأن الحسابات مخطئة لوفرة الآثام، ونحن لا نعلم شيئا وإنما الباقى هو الذى يعلم كيف يتولى الحساب، وليس لدينا ما نستند إليه إلا نبوءات دانيال Danial ونسأل الله أن يعجل بخلاصنا".[١٥٥]ونقف عند هذه الفقرة، ونقول أن جمهور اليهود يعتقد أن فلسطين هى أرض الميعاد وأنهم سوف يعودون إليها، وانضم

---

(154) The Answer of Joseph., C.F., Adler: op. Cit., p. 35.
(155) Koestler: op. Cit., p. 75.

إلى هؤلاء اليهود الخزر الذين لا يمتوا بصلة إلى بنى إسرائيل. وهذه العودة سوف تتم على يد ما أسموه المسيح المنتظر، وأن هذا المسيح (المنقذ أو المخلص) سيخرج من بيت داود ويجمع شمل اليهود ويعود بهم إلى أورشاليم لينقذهم من المحن والشدائد التى يعانونها، ويخلصهم من التشريد والهوان جزاء عصيانهم أوامر الله، وينتقم لهم من جميع الشعوب ويفرض عليها سلطان اليهود، ولقد ورد فى تلمودهم: "عند ما يأتى المسيح تطرح الأرض فطيرا وملابس من الصوف وقمحا فى حجم كلاوى الثيران الكبيرة وحينئذ ترجع السلطة لليهود"(١٥٦).

وهناك أسطورة فى توراتهم تشير إلى أن هناك نبى يدعى ايليا صعد إلى السماء مستقلا مركبة من نار يجرها حبل من نار أيضا، واليهود يعيشون فى انتظاره على أمل هبوطه من السماء بشيرا بمقدم المسيح(١٥٧). كما تحفل التوراة بنبوءات تشير إلى هذا المسيح المنتظر(١٥٨).

وفى نهاية الخطاب ذكر يوسف أن الإله ربما يجمعه هو وحسداى وكل المشتتين والمأسورين وكل من أحب إسرائيل من اليهود، وأجابه بأنه على استعداد لدخول حسداى فى خدمة ملك الخزر، وأكد له يوسف فى عبارات دافئة أنه يعتبره والده ويعتبر نفسه ابنا له وأن شعب الخزر سوف يكون تحت رهن مشورته(١٥٩).

كان هذا خطاب حسداى والرد عليه من ملك الخزر يوسف. والحقيقة أنه على الرغم من وفرة المعلومات عن اعتناق الخزر لليهودية إلا أن هذا الموضوع مازال مثيرا لدهشة العديد من المؤرخين المعنيين بالخزر، صحيح أن تحول الخزر

---

(١٥٦) التلمود: ص٧-٨.

لم يظهر المسيح المنتظر، ولم تظهر بوادر ظهوره ولم تنتج الأرض فطيرا ولا قمحا كثيرًا حجم الحبة الواحدة منه فى حجم كلية الثور، ويبدوا أنهم أحسوا بتأخر من ينتظرونه ففكروا فى إقامة دولة لهم فى قبرص أو مدغشقر، وسعوا إلى تكوينها فى فلسطين بالاغتصاب.

(١٥٧) التوراة: سفر الملوك الثانى، إصحاح٢.

(١٥٨) انظر، أسفار حزقيال: إصحاح ٣٧ - اشعيا: إصحاح٢ - هو شع إصحاح٣.

(159) The Answer of Joseph., C.F., Adler: op. Cit., p. 36.

الى اليهودية كان الدافع إليه سياسيا إلا أنه ليس من المعقول أن ملك الخزر اعتنق هذا الدين بهذا الشكل الأسطورى الذى أوردته المصادر المتباينة، ولا يمكن أن يكون قد انقاد إليه انقيادا أعمى دون أن يعرف شعائره وفروضه. إن اللاجئين الذين فروا بدينهم من اضطهاد بيزنطة كانوا يتقاطرون على بلاد الخزر حشودا إثر حشود،وكانت بلاد الخزر هى المأوى الطبيعى للخروج اليهودى تحت وطأة الاضطهاد الدينى، ولابد أن الخزر كانوا على معرفة وثيقة باليهود وشعائر دينهم قبل اعتناقهم لهذه الديانة، ولكن مما يدعوا إلى الدهشة أن الخزر اتخذوا دينا لا سند له من أية سلطة سياسية، بل كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا.

ويبدو أن اليهود اقنعوا ملك الخزر وشعبه بأن اليهود قد اختارهم الرب لكى يقودوا العالم إلى الحياة الفضلى، وأن الله اختارهم لهداية بقية الشعوب فى العالم، لاشك أن القائمين على هذه الديانة أقنعوا ملك الخزر وحاشيته بأنه إذا أعتنق اليهودية سوف تكون أمته اليهودية الجديدة هى المعلم بالنسبة لشعوب العالم الناعسة الغافلة، وانه سوف يصبح أكثر حضارة من بيزنطة المسيحية والخلافة الإسلامية.

ويبدو أيضا أن القائمين على الديانة اليهودية انبروا وراحوا يصفون بؤس اليهود والمظالم التى لاقوها ويعيشون فيها، ودعوا ملك الخزر إلى العطف على اليهود وناشدوه باعتناق اليهودية، وربما يكون اليهود قد نسوا أرض الميعاد التى يطمعون العودة إليها فى ذلك الوقت، فعملوا على إقناع ملك الخزر باعتناق اليهودية هو وشعبه، وقرروا التخلى عن أرض الميعاد (فلسطين) - مؤقتا - وقنعوا بمنطقة أخرى تحقق أحلامهم بإقامة وطن قومى لهم، فيبدو أن اليهود الذين مضى عليهم ألف عام مشردين فى الأرض بلا مأوى نسوا ما يكون عليه حالهم إذا تولى أمرهم ملك ليس منهم وأرض لا أصل لهم بها.

وهكذا اعتنق الخزر اليهودية على الرغم من البعثات التشيرية الضخمة التى كانت ترسلها بيزنطة لنشر الديانة المسيحية والتى لم تصادف النجاح، فإن الخزر أصروا بعناد على أن اليهودية عقيدة أحسن من النصرانية، ولم تغن فتيلا جهود

القديس كيرلس الذى تعلم الخزرية والعبرية تهيؤا لتلك الغاية، فلم يستطع أن يصرفهم تماما عن رأيهم(١٦٠).

وعلى الرغم من أن مملكة الخزر كانت تحمى اليهود واليهودية فى أراضيها إلا أنه كان فى أتيل أكثر من عشرة آلاف مسلم ومسجد جامع له مئذنة شامخة وكان المسلمون يصلون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع، وبلغ ملك الخزر فى سنة ٩٢٢م (٣١٠هـ) أن معبد اليهود قد دمر فى بعض البلاد الإسلامية، فما كان منه إلا أن هدم مئذنة المسجد وقتل المؤذن، ولم يمس المسجد نفسه بسوء مخافة أن تدمر جميع المعابد اليهودية فى البلاد الإسلامية(١٦١) وكان ذلك أكبر دليل على حماية الخزر لليهود واليهودية خارج نطاق دولتهم.

---

(160) Runciman: Byzantine Civilization, p. 286.

والترجمة العربية، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٣٥١.

(١٦١) ياقوت: معجم البلدان، حـ٣، ص٤٣٥.

الخـاتمة

هكذا اتضحت أبعاد الدور الكبير الذى لعبته مملكة الخزر فى العصور الوسطى فى القرنين السابع والثامن للميلاد، وليس الغرض من هذه الخاتمة أن تكون تلخيصا للبحث وإلا صار الأمر تكرارا لا مبرر له.

من الواضح أن مملكة الخزر كانت فى البداية واحدة من تلك المجتمعات غير المستقرة لا ماديا ولا روحيا، تعيش حياة البداوة وتحكمها العلاقات القبلية، وكانت لا تختلف فى البداية عن التشكيلات المختلفة التى كانت تنتشر فى الأصقاع القاسية من وراء القفقاس وحول بحر قزوين وفى السهوب الروسية حتى المناطق الممتدة من اسكندنافيا إلى البلقان والنمسا كالجرمان والسلاف والهون والآفار والغايكنج وغيرهم.

وكانت مملكة الخزر عبارة عن قبائل وثنية شديدة المراس صناعتها الغزو والفتح، واستطاعت أن تسيطر على العديد من الشعوب القاطنة فى شرق أوربا والقوقاز، وأن تتعامل مع الترك والبيزنطيين والمسلمين، وأخضعت البلغار والالان والبرطاس والمجر وغيرهم من الشعوب المتجولة فى تلك المنطقة وحملتهم على الاعتراف بسلطانها حتى أصبحت دولة مرهوبة الجانب.

وحينما ظهر الخزر فى القوقاز واصبحوا مجاورين لحدود الفرس، أصبح الفرس العقبة الكأداء فى سبيل توسع الخزر وانتشارهم، مما أدى إلى حدوث تقارب بين الخزر وبيزنطة أمام الفرس عدوهم المشترك.

ولقد عانى الفرس الساسانيون مرارا من غزوات العناصر التركية، وكانت أكثر الشعوب التركية ارتيادا للأراضى الفارسية الخزر خاصة فى عهود قباذ (٤٨٨-٥٣١م) وكسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م).

ومن المعروف أن فارس كانت العدو التقليدى لبيزنطة وكان الصراع بينهما يمثل شوكة فى حلق الإمبراطورية البيزنطية، وبعد أن سقطت فارس فى يد

المسلمين فى القرن السابع الميلادى ورث المسلمون دور فارس كعدو تقليدى لبيزنطة وأيضا للخزر.

وفى العلاقة بين الخزر وبيزنطة، وضح أن الصلات بين الجانبين كانت قديمة، ولكن الفترة التى تلت عهد الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢-٦٠٢م) شهدت زيادة الصلات والاحتكاك بين الطرفين خاصة على عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) والإمبراطور جستنيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥م، ٧٠٥-٧١١م) وغريمه تيبريوس الثالث (٦٩٨-٧٠٥م)، ثم الإمبراطور فيليبكوس باردانس (٧١١-٧١٣م) وليو الأيسورى (٧١٧-٧٤٠م) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥م) الذى تزوج أميرة خزرية سنة ٧٣٢م أنجبت له ليو الرابع الذى عرف باليو الخزرى وقدر له أن يعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٧٧٥م إلى سنة ٧٨٠م.

لقد توج هرقل إمبراطورا على بيزنطة وحينذاك كان عليه أن يواجه الصعاب الضخمة والمشكلات المعقدة التى قدر لبيزنطة أن تعيش فيها، وكان أكبر تلك المشكلات هو مواجهة العدو الفارسى، وكان الفرس فى الناحية الشرقية على أتم أهبة لإنزال ضربة قاصمة بالإمبراطورية البيزنطية، وكانت مملكة الخزر تواجه نفس المصير فأظهرت حماسة للاتفاق مع بيزنطة ضد العدو المشترك.

وفى علاقة الخزر ببيزنطة بلغ من نفوذهم أن كان فى استطاعة خاقان الخزر أن يرفع حاكما جديدا فى بيزنطة ويمنح البيزنطيين إمبراطورا جديدا، فحينما تخلى خاقان الخزر عن جستنيان الثانى جعل سقوطه أمرا مؤكدا فى حين أن فيليبكوس لم يكن يستطيع البقاء دون معاونته.

كانت العلاقات بين بيزنطة والخزر علاقات طيبة ولم يتعكر صفوها سوى مرات قليلة عادت بعدها إلى حالتها الطبيعية، بدليل أن الخزر حينما طلبوا مساعدة الإمبراطورية البيزنطية فى بناء قلاع لصد أعدائهم من الغرب والشمال. لبى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) الطلب بحماس شديد.

ولقد كانت مملكة الخزر حاجزا يحمي بيزنطة من شر غزوات القبائل البربرية المختلفة التي كانت بالفيا في الشمالية، قبائل البلغار والمجر والبشناق والفيكنج والروس وغيرهم.

وبعد انتشار الإسلام ووقوع كثير من مناطق القوقاز تحت مظلة الإسلام، أصبحت حدود الخزر تلاصق أملاك المسلمين، وتقترب من مناطق فتوحاتهم الجديدة لنشر الدين الإسلامي، وفي الحرب التي اندلعت بين الخزر والمسلمين والتي امتدت أكثر من قرن من الزمان، أسفرت في النهاية عن نجاح الخزر في الحد من الهجوم الإسلامي العاصف في مراحله الأولى على شرق أوربا من جهة ومنع الخزر من التوسع على حساب المسلمين من جهة أخرى.

لقد كان الخزر قوة برهنت على ذلك بأن كانوا الحد والحصن الرئيسي تجاه توسعات المسلمين في القوقاز، ولو قدر للمسلمين السيطرة على مملكة الخزر والقضاء عليها لنفذوا إلى أوربا، ولتغير تاريخ أوربا وخريطتها تماما عما نعرفه الآن.

ولقد سعت كلا من بيزنطة والخلافة الإسلامية إلى تدعيم السلام مع الخزر وكان ذلك هو النتيجة المباشرة لموقع إمبراطورية الخزر الجغرافي الفريد، لذا حاول كلا من الطرفين أن يجذبا الخزر إليهما عن طريق الديانة أو مشاريع الزواج السياسي بعد استخدام السيف والدبلوماسية.

ولقد تمتعت مملكة الخزر بكل امتيازات الأمم المتحضرة في العصور الوسطى، من حكومة متسامحة وتجارة منتعشة ومجتمع عالمي وتشريع متقن وجيش على أهبة الاستعداد.

وبعد أن تشعبت قبائل الخزر البدائية وأصبحت شعبا له وضعه الخاص وتركيبته الاجتماعية المتميزة في العصور الوسطى، نمت في نفس هذا الشعب نزعة إلى التماسك ورغبة في إقامة مجتمعا له عقيدة منطوية على نفسها، خاصة وأن مملكة الخزر لم ترض أن تبقى على وثنيتها البدائية الساذجة المتخلفة تلك الوثنية التي

اصبح تناسق أنظمتها وغناها بالخيال قد عفى عليه الزمن، رفضت مملكة الخزر أن تبقى على تخلفها المادى وسذاجتها الفكرية، فاعتنقت الديانة اليهودية.

وقد اعتنق الخزر اليهودية على الرغم من محاولات بيزنطة استقطاب هذا الشعب وشده إلى عجلة الإمبراطورية وتشجيعه على اعتناق المسيحية والحيلولة بينه وبين اعتناق العقائد الأخرى.

ولقد وضح أن يهود الخزر ليس هناك ما يربطهم إطلاقا من الناحية الأنثروبولوجية بيهود فلسطين القدماء.

وأخيرا فإن اعتناق الخزر لليهودية قد أعطى للعصور الوسطى سمة خاصة تميزت بها تحول غير اليهود إلى اليهودية.

الملاحـــق والخرائـــط

- الملحق الأول (١): صور الرسائل المتبادلة باللغة العبرية بين الخزر والأندلس فى القرن العاشر الميلادى.
- الملحق الثانى (٢): صورة لأمير منتصر ممسكا بأحد أعدائه (الفن الخزرى).
- خريطـة (١): إمبراطورية الخزر (القرن ٧-١١م).
- خريطـة (٢): أهم هجرات الشعوب المتصلة بالخزر وطرق تجارتها.
- خريطـة (٣): إمبراطورية الخزر.
- خريطـة (٤): طريق رحلة ابن فضلان من بغداد إلى بخارى.
- خريطـة (٥): مخطط الأماكن التى وردت فى رحلة ابن فضلان.

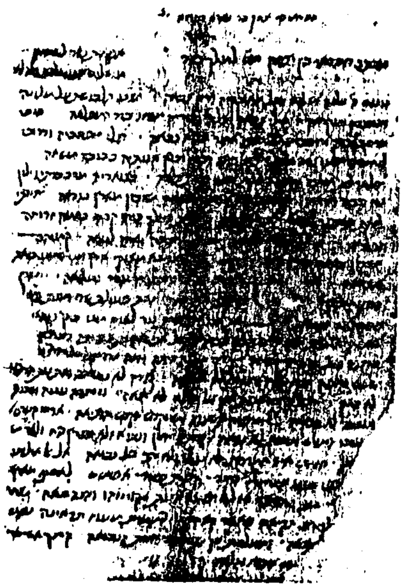


Figure 1. First of the letters from Hisdai ibn Shaprut to the king of the Khazars, 10th century. Oxford, Christ Church Library, Ms 193, p. 12

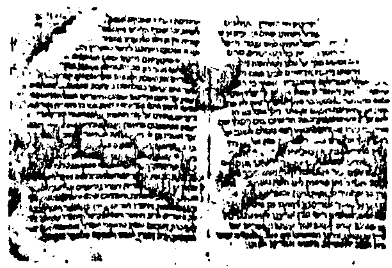


Figure 2. Two pages from the Cambridge Document, discov... in the Cairo *Genizah* which contains Khazar corresponde... Cambridge University Library T-S Loan 38

-صورة للرسائل المتبادلة باللغة العبرية بين الخزر والأندلس في القرن العاشر الميلادى.

- Encyclopedia Judaica, Art. Khazar, vol. x, pp. 951-952.

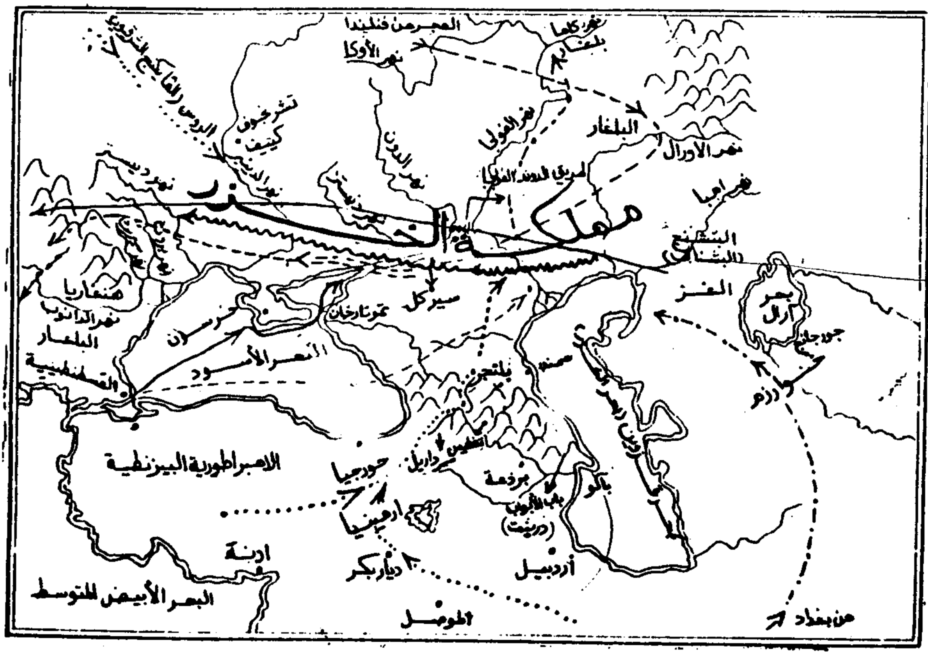


'Vict[illegible]ous prince' returning with prisoner[illegible] war. A severed head hangs from his pommel. The [illegible]lden jar depicting this scene comes [illegible] the 'treasure of [illegible]' 9th–10th cent[illegible] and gives some idea of the arts pr[illegible] within the [illegible] Empire. (See Chapter I, [illegible])

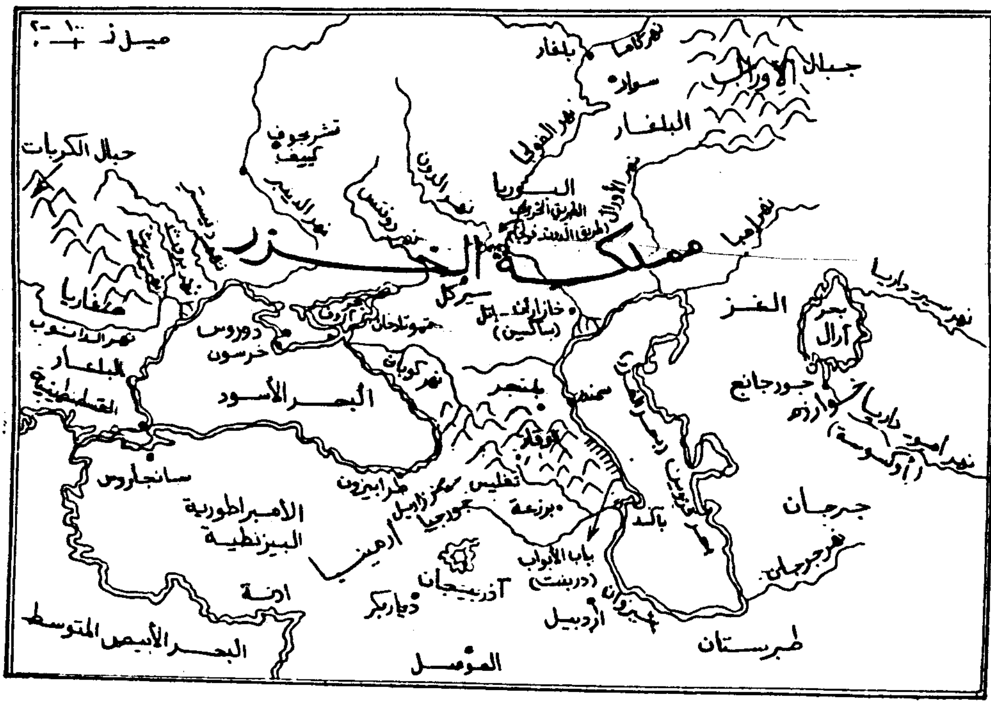
Kunsthi[illegible]

صورة لأمير منتصر ممسكا بأحد أعدائه (الفن الخزري)

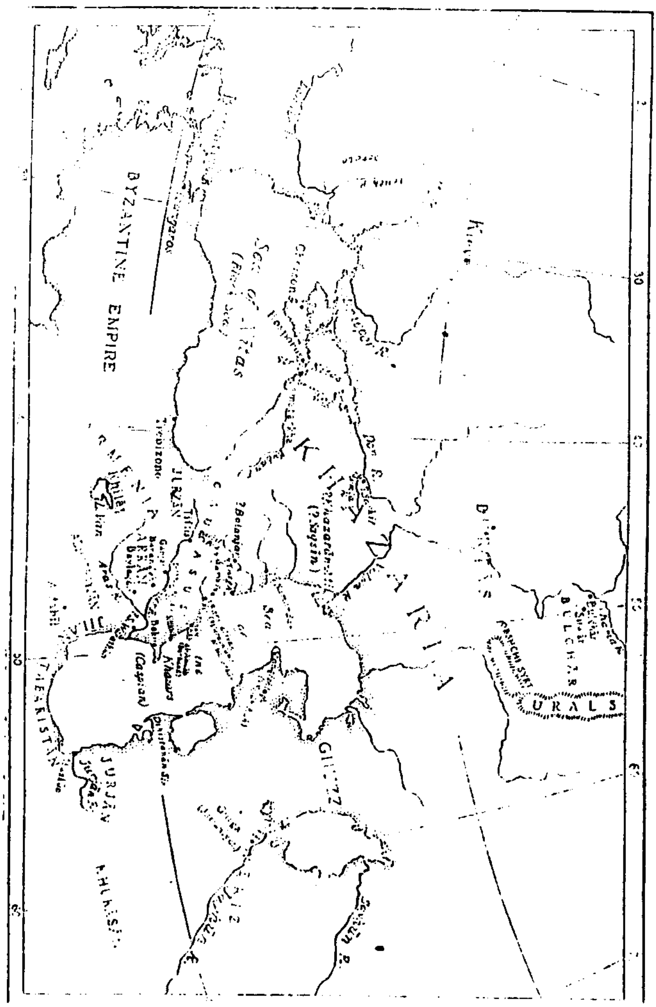
- Koestler The Thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage . p 2



أهم هجرات الشعوب المتصلة بالخزر وطرق تجارتها.

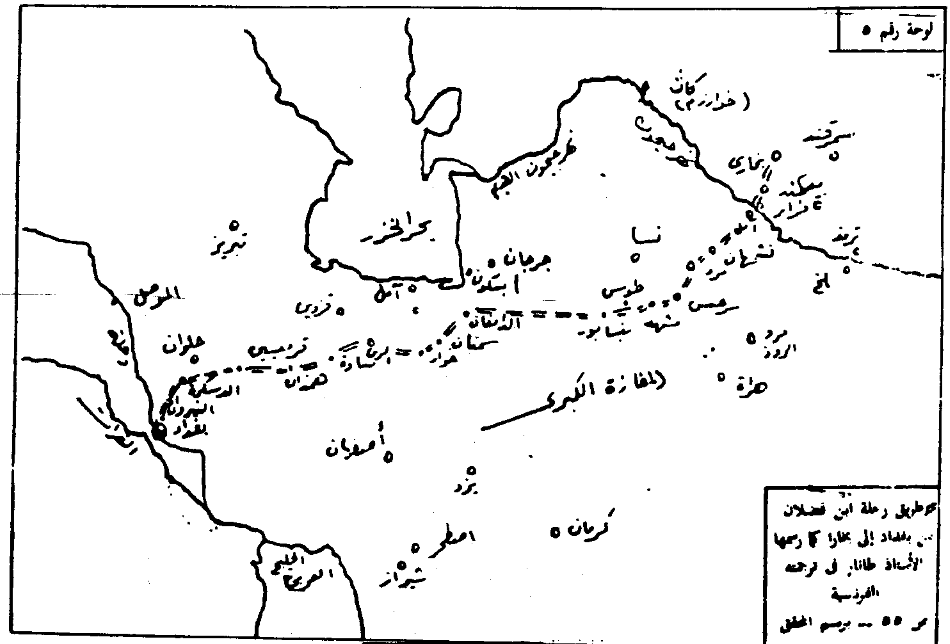


امبراطورية الخزر (القرن ٧-١١م)



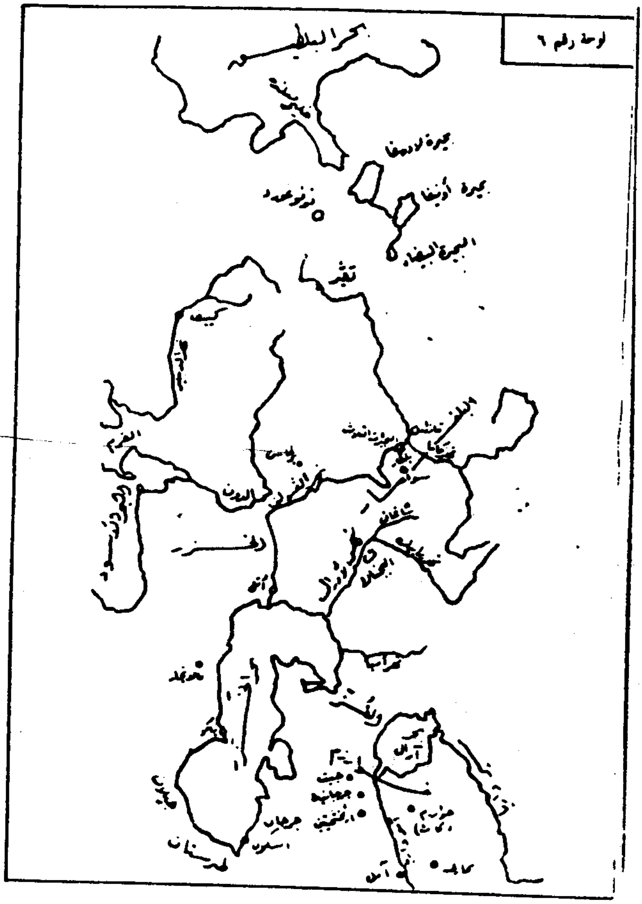
إمبراطورية الخزر

Dunlop : The History of the Jewish Khazars, p. 88.



مخطط الرحلة ــ القسم الأول

رسالة ابن فضلان، ص٦٥



ــ مخطط الأماكن التي وردت في رحلة ابن فضلان ، كما رسمها الأستاذ كامار في الترجمة
[من بخارى إلى بلغار]

رسالة ابن فضلان، ص ٦٦

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

أ - المصادر البيزنطية (يونانى - لاتينى).

ب- المصادر السريانية والأرمينية.

ج - المصادر العبرية (اليهودية).

د - المصادر الفارسية والتركية.

هـ - المصادر العربية والمترجمة.

ثانيا المراجع:

أ - المراجع العربية والمترجمة.

ب- دوائر المعارف والأطالس والقواميس.

ج - الدوريات والمجموعات.

د - المراجع الأجنبية المختلفة.

أولا المصادر:

أ - المصادر البيزنطية (يونانى - لاتينى)

- **Gedrenus (G)** : Historiarum Compendium, Vol. I, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, MDCCxxxviii) (1838).
- **Constantinus Porphyrogenitus** : "De Administrando Imperio., in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, MDCCCXI) (1811).
- ———————— : De Administrando Imperio, English trans. By R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949).
- ————————: De Cerimoniis Aulae Byzantinae, Vol. I, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantine, (Bonnae, MDCCCXXIX) (1829).
- **Nicephorius. Patriarch Constantinopolitani** : "Breviarium Historicum De Rebus Gestis post imperium Mauricii" Tomus. C. Cols 875-944, in Patrologia Graecae, (Paris, 1860).
- **Theopanis** : "Chrongraphia", Vol. I, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, MDCCCxxix) (1839).
- **Zanoras (Ioannis)** : "Epitomae Historiarum, Librii. XVIII In Corpus Scriprum Historiae Byzantinae, (Bonnae, MDCCXCVII) (1797).

ب - المصادر السريانية والأرمينية:

- **Chronique De Michel Le Syrien**, Patriarche Jacobite D'Antioche, (1166-1199), editee et traduit en Francais par J.B. Chabot, T. ii, (Paris, 1904).
- **Bar Hebraeus** : The Chronography of Gregory Abul Faraj. The Son of the Aron., Translated to English from Syriac, By E.A.W. Budge, (Oxford, London, 1932).
- **Moses Khorenots** : History of the Armenians, Translated and Commentary on the literary Sources. By Robert. W. Thomson, (London, 1978).

ج - المصادر العبرية (اليهودية):

שה-לבן. יוסף:
יהודה הלוי הכוזרי, הוצאת "אורים-לעם"
הערות והנחיות ללמוד ולקריאה, 1978

-شه لافان. يوسف: يهوذا هاليفي "هخوزري" هـو تسان أورعيم، هعروت فهنحيوت للمود فلقرياه (١٩٧٨)

- **The Epistle of R-Chisdai** Son of Isaac (of Blessed memory) to the king of the Khazars in, Adler: Jewish Travellers, pp. 22-32.
- **The Answer of Joseph** king of the Togarmi for Chisdai the Head of the Captivity son of Isaac son of Ezra the Spaniard Beloved And Honoured By us. in Adler: op. Cit., pp. 32-36.

د - المصادر الفارسية والتركية-:

-ابن البلخي : (ت ١١٠٦م/٥٠٠هـ)

" فارسنامه" (كمبرج، ١٩٢١م).

-قزويني :(ت ١٣٤٩م/٧٥٠هـ) حمد الله بن ابى بكر بن احمد بن نصر مستوفى.

" تاريخ كذيدة: مجـ١، (دار السلطنة، لندن ١٩١٠م).

-الكرديزى : (عاش في القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجـرى) أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك.

"زين الأخبار" ، حـ٢.

ترجمة، عفاف السيد زيان، الطبعة الأولى (١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ).

-الكاشغرى : (عاش في القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى) محمود بن الحسين بن محمد.

"ديوان لغات الترك" المجلد الأول.

(دار الخلافة العليا – مطبعة عامرة ١٣٣٣هـ)

- **Hudud Al Alam** (The Reigon of World), Apersian Geography., 312 A.H. –982 A.D., translated and explained By V. Minorsky, E.J.W. Gibb Memorial series, New Series xi, (London, 1937).

هـ - المصادر العربية والمترجمة-:

-القرآن الكريم.

-الكتاب المقدس.

-ابن أعثم : (ت ٩٢٦م/٣١٤هـ) العلامة أبي محمد أحمد الكوفي. "كتاب الفتوح"، طبع بإعانة وزارة المعارف. الحكومة العالية الهندية، تحت إشراف د. محمد عبد المعين خان. حـ٢، (١٩٨٩م/١٣٨٩هـ) حـ٦ (١٠٧٣م/١٣٩٣هـ) جـ٧(١٩٧٤م /١٣٩٤هـ)، جـ٨ (١٩٧٥م/١٣٩٥هـ) الطبعة الأولى - دار الندرة الجديدة - بيروت - طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية لحيدر أبا دالدكن - الهند.

-ابن الأثير : (ت ١٢٣٣م/ ٦٣٠هـ) ابو الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الجزرى.
"الكامل فى التاريخ" ١٢ جزء (بيروت ١٩٧٠م).

-البحترى : (ت٨٩٧م/ ٢٨٤هـ) ابو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى "ديوان البحترى" مجلد ١،٢، عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصرفى (الطبعة الثالثة - دار المعارف - بدون تاريخ).

-البكرى : (ت١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ) عبد الله بن عبد العزيز "المسالك والممالك"، نشره وترجمه إلى اللغة العربيةRose ، بطر سبوج (St. Persbourge, 1878).

-البلاذرى : (ت ٨٩٢م/ ٢٧٩هـ) أحمد بن يحيى بن جابر "فتوح البلدان"، عنى بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، (بيروت ١٩٨٣م/١٤٠٢هـ).

-بنيامين : (ت ١١٧٣م/ ٥٦٩هـ) بنيامين بن يونه التطلى "رحلة بنيامين التطلى"، ترجمها من الأصل العبرى عزرا حداد، (بغداد ١٩٤٥م).

-الجاحظ . (ب ٨٦٩م/ ٢٥٥هـ) ابو عثمان عمرو بن بحر "كتاب الحيوان". حـ٤ (بيروت ١٩٨٠).

-ابن حوقل . (ت ٩٧٧م/ ٣٦٧هـ) أبو القاسم أحمد القصبى "المسالك والممالك" (ليدن، بريل ١٨٧٣م)

-ابن حوقل : "صورة الأرض" قسمان فى كتاب واحد (بريل ١٩٦٧م).

-ابن خرداذبه : (ت ٩١٢م/٣٠٠هـ) ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله "المسالك والممالك" يليه نبذة من كتاب الخراج لأبى فرج قدامة بن جعفر، (بريل ١٨٨٩م)

-ابن خلدون : (ت١٤٠٥م/ ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن جابر "العبر وديوان المبتدأ والخبر" حـ٣،٤،٥ (بريل ١٩٨٣).

-الدينورى : (ت٨٩٥م/ ٢٨٢هـ) أبو حنيفة احمد بن داود "الأخبار الطوال". تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة د. جمال الدين الشيال، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، (المعادى ١٩٥٩م/١٣٧٩هـ)

-الدمشقى : (ت١٣٣٨م/ ٧٣٩هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى المعروف بشيخ الربوة "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر"، طبع بمدينة بطرسبورغ المحروسة فى مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية (١٨٥٦/١١٢٨هـ).

-الذهبى : (ت١٣٤٧م/ ٧٤٨هـ) شمس الدين محمد بن أحمد "دول الإسلام" ، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، جزئين فى مجلد واحد (القاهرة ١٩٧٤م).

-ابن سعد : (ت٨٤٥م/ ٢٣٠هـ) محمد بن سعد كاتب الواقدى "الطبقات الكبرى" حـ١، (دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨م/١٣٨٨هـ)

-ابن رسته : (ت٩٢٢م/ ٣١٠هـ) أبو علي أحمد بن عمر "الأعلاق النفيسة" المجلد السابع ويليه كتاب البلدان لليعقوبي، (مطبعة بريل - ليدن ١٩٦٧م).

- الإصطخرى : (ت٩٧٥م/ ٣٤٦هـ) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي "المسالك والممالك"، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال (القاهرة ١٩٦١م).

- الطبرى : (ت٩٢٢م/ ٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير "تاريخ الرسل والملوك"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٠ أجزاء (بيروت ١٩٨٠م).

- ابن عبد ربه : (ت٩٤٠م/ ٣٢٨هـ) أحمد بن محمد "العقد الفريد"، حـ٢، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري (القاهرة ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ).

-ابن العبرى : (١٢٨٦م/ ٦٨٥هـ) غريغوريوس الملطي "تاريخ مختصر الدول"، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، (بيروت ١٨٩٠م).

" : تاريخ الزمان" نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة (بيروت ١٩٨٦م).

-ابن فضلان : (ت٩٢١م/ ٣٠٩هـ) أحمد بن العباس بن راشد بن حماد "رسالة ابن فضلان" حققها وعلق عليها وقدم لها د. سامي الدهان. الطبعة الثانية (بيروت ١٩٨٧م).

-ابن الفقيه : (ت٩٠٢م/ ٢٩٠هـ) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني "مختصر كتب البلدان"، (ليدن - بريل ١٣٠٢هـ).

-ابن قتيبه . (ت ٨٩٩م/٢٧٦هـ) ابو محمد عبد الله بن مسلم "المعرف". حققه وقدم له د. ثروت عكاشه، الطبعة الثانية، سلسلة ذخائر العرب (٤٤) بدون تاريخ.

-القزوينى : (ت١٢٨٣م/ ٦٨٢هـ) زكريا بن محمد بن محمود "آثار البلاد وأخبار العباد". (بيروت - دار صادر - بدون تاريخ).

" :عجائب المخلوقات فى غرائب الموجودات" (كتاب التحرير بدون تاريخ).

-قسطنطين : (عاش فى القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى) بورفيروجينيتوس "إدارة الإمبراطورية البيزنطية"، ترجمة وعرض وتحليل د. محمود سعيد عمران (بيروت ١٩٨٠م)

-القلقشندى :(ت ١٤١٨م/٨٢١هـ) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا." ١٤ جزءا، (القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م).

-ابن كثير : (ت ١٣٧٢م/ ٧٧٤هـ) أبو الفد إسماعيل بن عمر الحافظ "البداية والنهاية" حـ٧،٩،١٠ (الطبعة الأولى ١٩٣٣م).

-محبوب : (عاش فى القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى) المنبجى "كتاب العنوان"، منشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis, Vol. VII-VIII نشره فازيليف Vasiliev, (Paris, 1911).

-المسعودى : (ت ٩٥٧م/ ٣٤٦هـ) ابو الحسن على بن الحسن بن على "مروج الذهب ومعادن الجوهر" جزءان، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، (كتاب التحرير ١٩٦٦م/ ١٣٨٦هـ).

-المقدسى : (ت٩٩٧م/ ٣٨٧هـ) شمس الدين بن عبد الله محمد البشارى "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" (مطبعة بريل – ليدن ١٩٠٦م)

-ابن منظور : (ت ١٣٠٣م/٧١١هـ) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقى المصرى.
"لسان العرب"
أجزاءا إلى ٦ (دار المعارف – بدون تاريخ).

-ابن النديم : (ت ٩٨٦م/ ٣٧٨هـ) محمد بن إسحاق "الفهرست"،)المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨هـ).

-النويرى : (ت ١٣٣٢م/ ٧٣٣هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الكندى.
"نهاية الأرب فى فنون الأدب"،
جـ ١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٧٥م).
جـ٢١، تحقيق محمد البجاوى (القاهرة ١٩٧٦م).
جـ ٢٢، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى (القاهرة ١٩٨٤م) ومراجعة إبراهيم مصطفى.

-ابن الوردى : (ت١٣٤٩م/ ٧٤٩هت) ابو حفص عمر بن مظفر بن عمر "تتمه المختصر أو تاريخ ابن الوردى".
إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوى (بيروت ١٩٧٠م).
:"خريدة العجايب وفريدة الغرائب"
نسخة عربية مترجمة إلى اللاتينية فى مجلد واحد.
(Edidit et latine vertie, Andreas Hylande (Lunde,1823)

-ياقوت : (ت ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـت) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى
"معجم البلدان"، ١٠ أجزاء.

-اليعقوبى : (ت ٨٩٧م/ ٢٨٤هـ) احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح
"تاريخ اليعقوبى" حـ٢، (دار صادر - بيروت - بدون تاريخ).

ثانيا المراجع:

أ - المراجع العربية والمترجمة:-

-أومان (شارل):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. مصطفى طه بدر.

(القاهرة ١٩٥٣م)

-بينز (نورمان):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد

(القاهرة ١٩٥٧م)

-بارتولد (و):

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى. ترجمة د. أحمد السعيد سليمان راجعة إبراهيم صبرى.

(القاهرة ١٩٥٨م)

جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣)

(الإسكندرية ١٩٨٨م)

-حسين فوزى : (دكتور)

حديث السندباد القديم.

(مصر ١٩٤٣م)

-حسنين محمد ربيع: (دكتور)

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية.

(القاهرة ١٩٨٦)

-ديورانت (ول):

قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد الثالث (عصر الإيمان) ترجمة محمد بدران. (القاهرة ١٩٧٦)

-دحلان (أحمد زينى):

الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية، جزءان فى مجلد واحد. (الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٣هـ)

-رنسيمان (ستيفن):

الحضارة البيزنطية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على. (القاهرة ١٩٦١)

-زبيدة عطا: (دكتور)

الترك فى العصور الوسطى، بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون.

(دار الفكر العربى - بدون تاريخ)

-سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسى.

(القاهرة ١٩٧٥)

-السيد الباز العرينى : (دكتور)

الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م.

(بيروت ١٩٨٢)

-عبد القادر أحمد اليوسف: (دكتور)

الإمبراطورية البيزنطية.

(بيروت ١٩٦٦)

-فتحى عثمان:

الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى. ، الكتاب الأول والثانى (القاهرة ١٩٦٦)

-كراتشكوفسكى : (أغناطيوس يوليا فيتش)

تاريخ الأدب الجغرافى، قسمان

نقله إلى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ١٩٦٣)

ليلى عبد الجواد إسماعيل : (دكتورة)

الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين.

(القاهرة ١٩٨٥م)

-محمود محمد الحويرى: (دكتور)

١- رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٨١م)

٢- الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩م)

-موس (هـ. سانت. ل. ت):

ميلاد العصور الوسطى. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة د. السيد الباز العرينى. (القاهرة ١٩٦٧م)

-هسى (ج. م):

العالم البيزنطى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد.

(القاهرة ١٩٨٤م)

-التلمود "كتاب الإرهاب الصهيونى":

هدية من جريدة التعاون. العدد رقم ٢٣٥ (١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ)

-المعجم الوسيط:

مجمع اللغة العربية، حـ١ ، الطبعة الثالثة

(القاهرة ١٩٧٢م/ ١٣٩٢هـ)

ب - دوائر المعارف والأطالس والقواميس:

- **The New Encyclopaedia Britannica.**
  (Ready reference and Index), Art., Khazar, Vol. v,Pecheneg, Vol. vii-Cumans, Vol.iii. (London, 1974).
- **The New Encyclopaedia Britannica.**
  (knowledge in Depth), Art. Byzantine Empire, Vol. 3. Caliphat, Vol. 3- Jewish Philosophy, Vol. 10 (London, 1974).
- **The Encyclopaediz Americana.**
  Art., Khazar, Vol. 16, (First Published, 1899).
- **The Standard Jewish Encyclopedia.**
  Art., Khazar (Jerusalem, Tel Aviv, 1958).
- **The American people Encyclopeadia.**
  Art., Khazar, Vol. ii (New York, 1966).
- **The Jewish Encyclopeadia.**
  Art., Chazar, Vol. v- Art., Caucasus, Vol. iv. (New York and London).
- **Encyclopeadia of Islam.**
  Art., Khazar, Vol. iv- Bulghar, Vol. I – Bahr Al Khazar, Vol. I – Abkhaz, Vol. I – Turks, Vol. iv (Leiden- Brill, 1978).
- **Chambers's Encyclopaedia.**
  Art., Chazars, Vol. 3 (London and Edinburgh, 1923)
- **Chambers's Encyclopaedia.**
  Art. Khazar, Vol. vii (London, 1973).
- **Encyclopaedia of World Biography**
  Art.. Khosrow I.. vol. 6 (1973).
- **Encyclopaedia Judaica.**
  Art. Khazar. vol. x (Jresalem, 1974).
- **Harmsworth Encyclopaedia.**

Art., Khazar, vol. vi (London, 1906).

- **Lexicon Universal Encyclopaedia.**
  Art., Khazar, vol. 12 – Art.. Cumans, Vol. 5.
  (New York, 1983).
- **Dictionary of the Middle Ages.**
  Art., Khazars, Vol. 7 (New York, 1986).
- **The Time Atlas of World History.**
  (New Jersey, 1985).

ج – الدوريات والمجموعات:-

- **Byzantion.,** (1937).
- **Dumbarton Osks Papers . (1959).**
- **Journal Asiatique.** (1823).
- **Cambridge History of Iran.** (Cambridge, 1983).
- **The Cambridge Medieval History.** (Cambridge, 1980).
- **Patrologia Orientalis.** (Paris, 1911).
- **Patrologia Graecae.** (Paris, 1860).
- **Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.** (Bonnae, 1828-1897).
- **Slavonic and East European Review.** (1944).
- **Bulletin of the school of Oriental and African studies.** (1948).
- **Notices et Extraits des Manuscrits De La Bibliotheque De Roi.**, Tom 11 (Paris, MDCCLXXIX) (1789).

د – المراجع الأجنبية:-

- **Abnour (A):**
  Histoire Abregee De Peuples De La Russie.
  (Paris, 1909).
- **Adler (E.N):**
  Jewish Travellers. (London, 1930).

- **Allen (W.D):**
A History of the Georgian Peopl (London, 1939).
- **Bachrach (B.S):**
Art., Khazar, in lexicon Universal Encyclopaesia, Vol. 12 (New York, 1983).
- **Baynes (N):**
The Successor of Justinian, in Cambridge Medieval History., Vol. II (Cambridge, 1980).
- **Barthold (W) & Golden (P.B):**
Art., Khazar, in Encyclopaedia of Islam, Vol. Iv, pp.1172-1181 (Leiden-Brill, 1978).
- **Barthold (W):**
Art., Bulghar, in Encyclopaedia of Islam. Vol. I, pp. 1304-1308 (Leiden-Brill, 1960).
- **Barthold (W):**
Art. Turks in Encyclopaedia of Islam, vol. iv. (Leiden-Brill, 1978).
- **Barthold (W):**
Art. Abkhaz in Encyclopaedia of Islam, vol. I. (Leiden-Brill, 1968).
- **Barthold (V.V):**
Four studies on the History of central Asia. Translated from the Russian by V.Barthold and T.Minorsky, vol. III. (Leiden-Brill, 1969).
- **Bernard (P):**
A History of Russia. (London, 1962).
- **Becker (C.H) :**
The expanision of the Saracense. In Cambridge medieval History. Vol. II (Cambridge, 1980).

- **Boissonade (P)**

Life and work in Medieval Europe
(London, 1937).

-**Brutɔkus (J):**

The Khazar Origin of Ancient Kiev. In Slavonic and East European Review. Vol. 22, pp. 108-24. (1944).

- **Brehier (L):**

Vie et Mort de Byzance.
(Paris, 1947).

- **Brehier (L):**

La Civilization

Le Mond Byzantine (Laxivilization Byzantine.
(Paris 1950)

- **Brooks (W.E) :**

The Successors of Heraclius to 717. In Cambridge Medieval History, Vol. II, pp. 391-411.
(Cambridge, 1980).

- **Buss (R):**

Art. Pechenges in Lexicon Universal Encyclopaedia. Vol. 15 (New York, 1983).

- **Buss (R):** Art. Cumans in Lexicon Universal Encyclopaedia. Vol. 5
(New York, 1983).

- **Bury (J.B):**

A History of the Eastern Roman Empire.
(London, 1912).

- **Bury (J.B):**

A History of the Later Roman Empire from the Death of Theodosios I to the Death of Justinian.
(London. 1923).

- **Chavannes (E) :**
Ducuments sur Les T'ou-Kiue (Turcs) Occidentaux.
(St. Petersburg, 1903).
- **Cole (F.C):**
Art. Khazar, in the American People Encyclopaedia. Vol. XI
(New York, 1966).
- **Diehl (C):**
Histoire De L'Empire Byzantine.
(Paris, 1920).
- **Dunlop (D. M):**
The History of the Jewish khazars.
(Princenton, 1954).
- **Dunlop (D. M):**
Art. Khazar, in Encyclopaedia Judaic. Vol. 10.
(Jresalem, 1974).
- **Durant (W) :**
The story of civilization, the age of Faith A History of Medieval civilization; Chritian, Islamic and Judaic from Constantine to Dante AD 325-1310. Vol. IV.
(New York, 1950).
- **Finaly (G):**
History of Greece. Vol. I.
(Oxford, 1877).
- **Florinsky (M. T):**
"Russia" A History and an interpration in two volumes, Vol. I. (New York, 1953).

-Franzius (E):

History of the Byzantine Empire Mother of nation.

(New York. 1961)

- Gibbon (E):

The Decline and fall of the Roman Empire. Vol. II. (London, 1952).

- Glubb (S. j):

The Empire of the Arabs.

(London, 1963).

-Gregoire(H):

Le "Glozel" Khazar. In Byzantion pp. 225- 266.

(1937).

- Grayzel (S):

A History of the Jews. From the Babglonian exile to the end of the world war.

(Philadelphia, 1948).

-Grousset (R):

L'Empire Des stepps.

(Paris, 1948).

-Grousset (R):

Histoire de L'Armenie de Origines a 1071.

(Paris, 1947).

Halpen (L):

Les Barbares.

(Paris, 1936).

Head (C):

Imperial Byzantine Portraits.

(New York, 1982).

Heyd (W):

Histoire du Commerce du Levant au moyen age.Vol .1. (Lepzig, 1923).

- **Hodgson (G.S):**
The venture of Islam.
(Chicago, 1974).

- **Hussey (J. M):**
The Byzantine World.
(New York, 1961).

-**Kazhdan (N. P) and Epstein (A.W):**
Change in Byzantine Culture in the eleventh and twelfth centuries. (London, 1985).

- **Klaproth (M) :**
Memoire sur les khazar.
T.3, in Journal Asiatique pp. 153-160.
(Paris, 1823).

-**Koestler (A):**
The thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage. (London, 1976).

- **Krachkovski (I. U):**
Istoria Arabskoi Geograficheskoi literatury.
(Moskova- Leningrad, 1957).

- **Lamouche (C):**
Histoire de la Turquie.
(Paris, 1934).

-**Levtchenko (M. V):**
Byzance de origines A. 1453.
(Paris, 1949).

- **Lewis (A.R):**
Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100. (New Herssey, 1951).

- **Lebeau ( ):**
Histoire de Bas-Empire.
Tome. XI.
(Paris, 1930).

Lindsay (J) :

Byzantium into Europ; The story Byantium as the first Europ (326-1204) and its furthei contribution.

(London. 1952)

- Macarthy (C.A):

The Magyars in the ninth century.

(Cambridge. 1930)

-Mackenzis (D) Curran (M):

A History of Russia and the Soviet Union.

(New York, 1982).

- Mavor (J) :

An Economic History of Russia Vol., I.

(London, 1925).

- Minorsky (T):

Tamim Ibn bahr's Journey to the Ughurs; in Bulletin of the school of Oriental and African studies. VolXII. (1948).

- Miller (D. A):

The Byzantine tradition.

(New York and London).

- Obolensky (D):

The Byzantine Commonwelth.

(London, 1971).

- Oman (C. W):

The Byzantine Empire,

(New York, 1892).

- Ostrogorsky (G) :

History of the Byzantine state Eng. Trans. J. Hussey

(Oxford, 1957).

- **Ostrogorsky (G):**
The Byzantine Empire in the world of the Seventh century. In Dumbarton Oaks Papers, pp. 3-21 (1959).

- **Patkanian (M.K) :**
Essai d'une Histoire de la dynastie des Sassandies dans Journal. Asiatique. Serie I Tome. VII. (1866),

-**Poliak (A.N):**
Khazaria, in Hebrew.
(Tel Aviv, 1944).

- **Pritsak (O):**
Art. Khazars, in Dictionary of the middle ages. Vol.7.
(New York, 1986).

-**Ripley(W.Z):**
The Races of Europe. (London, 1945).

- **Rosenthal (H) :**
Art., Chazar in the Jewish Encyclopaedia; Vol. IV.
(New York and London)

- **Rosenthal (H) :**
Art., "Caucasus" in the Jewish Encyclopaedia. Vol. III.
(New York and London)

- **Rosenthal (H) :**
Technique and Approach of Muslim Scholarship.
(1947).

-**Robinson (S):**
A short History of Medieval people.
(London MCMVII) (1907).

- **Runciman (S) :**

A History of the first Bulgariam Empire. (London, 1930).

- **Runciman (S) :**

Byzantine civilization.

(London. 1933).

- **Runciman (S) :**

A History of the Crusades. Vol. I.

(Cambridge. 1954).

- **Setton (M. K):**

A History of the Crusades. Vol. I.

(Philadelphia, 1955).

- **Shaban (M. A):**

Islamic History a new interpration. Vol I. A. D. 600-750, A. H. 132.

(London, 1984).

- **Shaban (M. A):**

Islamic History a new interpration. Vol 2. A. D. 750-1055, A. H. 132-442.

(Cambridge, 1981).

- **Shater(E. Y):**

Art., Khosrow I (531-576) in Encyclopedia of world Bigraphy Vol. 6. (1973).

- **Shirin Akiner :**

Islamic People of the Soviet Union.

(London, 1983).

- **Sinor (D) :**

Art. Khazars. In the New Encyclopaedia Britannica. Vol. V. (London, 1974).

- **Stratos (A.N) :**

Byzantium in the Seventh Century (602-634), Vol. I. Trans. By Marco Ogilvie Grant.

(Amsterdam, 1921).

- **Sumner (B. H) :**
Survey of Russian History.
(London, 1944)

- **Sykes (P) :**
History of Persia. Vol. I.
(London, 1921).

- **Vasiliev (A. A) :**
Histoire de L'Empire Byzantine. Tom. I.
(Paris, 1932).

- **Vasiliev (A. A) :**
History of the Byzantine Empire. Vol. I.
(Madison, 1958).

- **Walsh (W. B):**
Russia and the Soviet Union.
(New York, 1958).

- **Weinryb (B. P) :**
The Jews of Poland. A social and economic History of the Jewish commenity in Poland 1100 to 1800.
(Philadelphia, 1973).

- **Wren(M. C):**
The course of Russian History.
(New York, 1958).

فهرس محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة:	
أهمية الموضوع - دراسة تحليلية لمصادر ومراجع البحث	٧-٣٤
الفصل الأول:	
قيام مملكة الخزر	٣٥-٧٠
الإشارات المبكرة عن تاريخ الخزر - علاقة الخزر بالأرمن - علاقتهم بالبيزنطيين قديمًا - علاقتهم بالهون - علاقتهم بالفرس - علاقتهم بالأتراك الغربيين - الهيمنة الخزرية على بعض الشعوب فى شرق أوربا (البلاد التى كانت تدفع الجزية للخزر - البلغار - الغز - البرطاس - مملكة السرير - الآلان - المجر - هون ورشان - البجناك)	
الفصل الثانى:	
مملكة الخزر وعلاقتهم بالبيزنطيين فى القرنين السابع والثامن الميلادى	٧١-١١٤
علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) - علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور جيستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥، ٧٠٥ - ٧١١م) - علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١م) - علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢م).	

الفصل الثالث:-

مملكة الخزر وعلاقتهم بالمسلمين فى القرنين
السابع والثامن للميلاد ١١٥-١٥٤

علاقة الخزر بالمسلمين فى صدر الإسلام - علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة الأموية - علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة العباسية.

الفصل الرابع:

المظاهر الحضارية بمملكة الخزر ١٥٥-٢١٢

التنظيم السياسى - القضاء - الجيش - اللغة - المجتمع - النشاط الاقتصادى - الديانة.

الخاتمة ٢١٣-٢١٨

الملاحق والخرائط ٢١٩-٢٢٦

قائمة المصادر والمراجع ٢٢٧-٢٥٠

هذا الكتاب

محاولة جادة لتسليط الضوء على تاريخ مملكة الخزر التى تأثر بها حاضرنا تأثراً بعيداً، فالدراسة التى يقدمها الكتاب بالغة الأهمية لأنها تدحض كثيراً من المزاعم اليهودية ، و تؤكد أن معظم يهود العالم بما فيهم يهود إسرائيل لا علاقة لهم على الإطلاق بالجنس السامى .
يعرض الكتاب أيضا لصفحة جديدة فى تاريخ المسلمين ، فبعد انتشار الإسلام ووقوع كثير من مناطق القوقاز تحت مظلة الإسلام أصبحت حدود الخزر تلاصق أملاك المسلمين ، و تقترب من مناطق فتوحاتهم الجديدة لنشر الدين الإسلامى ، ففى الحروب التى اندلعت بين الخزر و المسلمين و التى امتدت لأكثر من قرن من الزمان ، أسفرت فى النهاية عن نجاح الخزر فى الحد من الهجوم الإسلامى العاصف فى مراحله الأولى على شرق أوربا من جهة و منع الخزر من التوسع على حساب المسلمين من جهة أخرى .

كما يعرض الكتاب الدور الهام الذى لعبته مملكة الخزر فى العصور الوسطى مع البيزنطيين و الفرس و البلغار و الأرمن و اللان و البشناق و المجيار والروس و أسبانيا (الأندلس) و العديد من الشعوب الأخرى .

إن هذه الدراسة ضرورية للمختصين فى التاريخ ، فضلاً عن أنها يجب أن تكون جزءاً من ثقافة جمهور المتعلمين بصفة عامة و المهتمين بالقضية الفلسطينية بصفة خاصة.